

A.U.B. LIBRARY





809
M271nA

نماذج بشرية

Handwritten signature

بقلم

الدكتور

محمد مندور - يندى حفظه الله

- ما سقاها !

Large handwritten signature

59725

الطبعة الأولى

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٤٤

الهراء

اعتدت أن أملئ على زوجتي ما أكتب أو أقرأه عليها بعد الفراغ منه ، وهي أديبة تجيد النثر والشعر ، وأنا شديد الثقة بذوقها الأدبي الذي أدركته فيها وهي لا تزال طالبة بكلية الآداب ، ولقد كان هذا الذوق دائماً خير عون لي على الرجوع عما قد تسوقني إليه حرارة القلم عند ما يتملكني الموضوع فأندفع في أعقابه . ولقد تناولت هذه النماذج بالمراجعة قبل جمعها في الكتاب الحالي ، فإذا بي أرجع إلى ما كانت قد رآته عند الكتابة الأولى في عدد من المواضع . وإن يكن هناك إنسان قد أحس بكل ما وضعت في هذا الكتاب من تفكيرى وإحساسى ، فهو لا ريب هذه الزوجة العزيزة .

ولقد حرصت على أن تظهر القراء على ما في هذه النماذج من جهد مستور وصنعة خفية فقدمتها إليهم وتلك ولا ريب سنة قد تبدو جديدة ، ولكنها سنة خيرة .

وهأنا أهدي إليها هذا الكتاب رمزاً لما أحمل لها من محبة ووفاء .

محمد مندور

فهرست الموضوعات

صفحة	
١ — ١	مقدمة بقلم السيدة ملك عبد العزيز
٦ — ١	جفروش
١١ — ٧	فيجارو
١٨ — ١٢	دون كيشوت
٢٥ — ١٩	فاوست (١)
٣١ — ٢٥	فاوست (٢)
٣٥ — ٣١	فاوست (٣)
٤٢ — ٣٦	هاملت (١)
٤٧ — ٤٢	هاملت (٢)
٥٤ — ٤٨	الست
٦٢ — ٥٥	بيترس : (١) في عهد الشباب
٦٧ — ٦٢	بيترس : (٢) في الكوميديا الإلهية
٧٥ — ٦٨	چوليان سوريل
٨٠ — ٧٦	إبراهيم الكاتب
٨٦ — ٨١	فيليسيتيه
٩٢ — ٨٧	الأستاذ بتلان
١٠٢ — ٩٣	راستنيك
١٠٨ — ١٠٣	أوليس : (١) في الإلياذة
١١٤ — ١٠٨	أوليس : (٢) في الأودسا
١٢٠ — ١١٤	أوليس : (٣) في فيلوكتيت
١٢٤ — ١٢٠	أوليس : (٤) في الآداب الحديثة
١٣٣ — ١٢٥	العبيط : (١) العبيط مع ماري والأطفال
١٣٧ — ١٣٣	العبيط : (٢) العبيط في الحياة الاجتماعية
١٤١ — ١٣٧	العبيط : (٣) العبيط والإعدام
١٤٤ — ١٤١	العبيط : (٤) العبيط والنساء

مقدمة

بقلم السيدة ملك عبد العزيز

« للكاتب الإيطالي المعروف بيرندلو رواية مسرحية هي (ست شخصيات تبحث عن مؤلف يبرزها إلى الوجود) . وهذا معنى الخلق في الأدب . ولكم من شخصية ما تزال مبعثرة غامضة حائرة حتى يتاح لها مؤلف يجمع أشتها ويوضح معالمها ويدعم حياتها ، فإذا هي أبقى على الزمن من البشر ، وإذا بها تجتاز الأجيال مستقلة الوجود في مأمن من الفناء ، لأنها أعمق في الحياة من كل حي ، وأصدق دلالة من كل واقع » (ص ١) .

ذلك ما يبدأ به المؤلف كتابه ، وذلك ما سأستعيده لأبدأ به مقدمتي عن ذلك الكتاب . فإذا كان أولئك الكتاب الكبار خالقو تلك النماذج قد وجدوا شخصياتهم مبعثرة غامضة حائرة في الحياة ، فجمعوا أشتها ووضحوا معالمها ودعموا حياتها ، فكذلك قد وجد المؤلف تلك الشخصيات مبعثرة حائرة ، ولكن في كتبهم ، التي صارت أعمق في الحياة من كل حي وأصدق دلالة من كل واقع ، فجمع أشتها ووضح معالمها ، فكان من ذلك خلق جديد .

وها هو جيته يتحدث عن فوست قائلا : « تسألوني أي فكرة أردت أن ألبسها فوست ؟ وكيف لي أن أعرفها ؟ ثم أنسى لي بالعبارة عنها ؟ قد تكون جولة بين الأرض والسماء ! هي خطوات أكثر منها فكرة ، وإن يكن في فقدان إبليس لرهانه ونجاة ذلك الرجل الذي ما زال وهو في حمأة الرذائل يهفو إلى الخير حتى نجت روحه من الهلاك ما ينير الكثير من وقائع حياته . ولكن هذه الفكرة التي تستقر في قلب القصيدة ولا في أي جزء من أجزائها على انفراد . . . » (ص ١٩) . ولقد يكون جيته حقاً لم يقصد إلى فكرة واحدة ، فكرة بذاتها ، ولكن هذا لا يمنع أنه قد تكون هناك بالفعل فكرة في قلب القصيدة . وما له يمي تلك الفكرة ، والأدب لا يصدر عن وعي كله ؟ بل ما له يحددها فيملئها على قرائه ويزجهم في طريق واحد مرسوم ؟ ولكنه تركها حائرة مبعثرة ليأتي سواه يبحث عنها ويبرزها للضياء ، فيقول عن فوست : « إنه عقل طغى على القلب فأشقى صاحبه » (ص ٣٢) . ويقول عن حياته : « إن معنى تلك الحياة والأثر الذي خلفته

خطى فاوست على صفحات الزمن هو أنه علينا أن ندأب ما استطعنا في سبيل المثل العليا ،
وسيان بعد ذلك أأصبنا نجاحاً أم إخفاقاً فالجهاد نبيل في ذاته » (ص ٣٥) . وسواء أوافق
جيمته على ذلك الفهم أم لم يوافق ، فليس له — وما أراد — أن يملئ شيئاً على قرائه ،
فلكل منهم حرية الفهم كيفما يريد .

وهكذا جاء مؤلف « النماذج البشرية » فدرس جملة من عيون الأدب الغربي ثم رسم لنا
أوضح شخصياتها كما رسبت بنفسه ، وحدثنا عن أسرارها كما أوحى بها إليه .
« النماذج البشرية » دراسة وخلق .

هي دراسة . فالمؤلف يحيط بتاريخ الكتاب وبملاسات ما كتبوا وبالأراء المختلفة
في فهم شخصياتهم والحكم عليها . يبرز ذلك حيث لا يثقل ، ويطويه حيث يفضل
الطى . هي « كالنور الداخلي » يضيء دون أن يعشى . فلئن كان المؤلف يحرص على
إيراد الحقائق التاريخية حول الشخصية وخالقها ، فإنه لا يدعها تطفئ على الخلق الفني
فتجفف ماءه . بل هو لا يوردها جملة واحدة ، بل يحتال لينثرها هنا وهناك حيث توحى
المناسبات . ففي هملت نراه ينطقه فيحدثنا عن نفسه ، مشيراً فيما يسوق من حديث إلى المصدر
الذي استقى منه شكسبير قصته . كل ذلك دون أن نحس أن المؤلف قد قصد إلى شيء
« ولو أنني بقيت على الفطرة كما خلقت لانتقم لوالدي في غير تردد ، ولكان بعد ذلك
ما يكون من نصر أو هلاك ، ولغادرت الحياة غير مخلف أثراً إلا أن تكون إشارة مؤرخ
مثل ساكسو جراماتيكوس يسوق اسمي بين من يسوق من ملوك الدانيمركة . ولعله يذكر
ما كان من محاولتي الانتقام لأبي » (ص ٣٦) . ويضيف هملت ، وقد أراد المؤلف أن يظهرنا
على أن قيمة تلك المسرحية الخالدة ليست في موضوعها بل في علاج هذا الموضوع : « وكم
في ثنايا التاريخ من أحداث كهذه طفا القليل منها على الزمن وهوى الكثير ، والناس بعد
لا يشغلون أنفسهم بما طفا أكثر من اشتغالهم بما هوى ، ولكن شكسبير قد خلقني خلقاً
جديداً وأودع روحى من النفاذ ما لا أزال أشقى به ... » (ص ٢٦) . وفي موضع آخر من
هملت أيضاً نرى المؤلف يشير إلى الحالة النفسية التي كتب فيها شكسبير قصته « ونحن لا بد
متسائلون عن مبلغ ما حملته خالقه العبقرى من حرارة نفسه وقد استوت ملكاته وسط أزمة
نفسية ما تزال إلى اليوم حائرة في فهم سرها ومداهها وإن طالعتنا في أكثر من مقطوعة
من شعره الغنائى Sonnets الذي يدور حول ذلك العام ، عام ١٦٠٤ » (ص ٣٩) . وفي
السست نراه يُنطق مولير بقوله : « وأنا الآن في أزمة نفسية تكاد تهد كياني ، فها هي

زوجتي تحتمى وراء المجاملات الاجتماعية فتثير في نفسي الغيرة تكويني بناها كياً» (ص ٤٨) فيستعين بتلك الملابس التاريخية على تأييد رأيه في أن شعور مولير كان مع بطله ألسنت ، إذ لم يجعله موضعاً للضحك في بعض الأحيان إلا ليتقى غضب هيئة اجتماعية تؤمن بالمجاملات وما بها من نفاق . وفي « أوليس » يصف معارك طروادة ثم يقول : « وكانت معارك تبيض لهولها النواصي إذا كانت كلها في قسوة ملاحم السنة العاشرة التي اكتفى هوميروس بأن صور لنا جزءاً منها » (ص ١٠٣) ، ليخبرنا أن هوميروس لم يصف في ملحمة من تلك الحرب سوى جزء من السنة الأخيرة .

ومن وسائله الجميلة في إيراد الحقائق التاريخية أن تراه يمزج بين النموذج ومؤلفه حين يرى أن المؤلف إنما كان يصور جانباً من نفسه في أنموذجه ، وفي هذا ما يجسم الشخصية الروائية حتى لتحسبها ولدت وعاشت واضطربت في الحياة بالفعل . استمع إليه يقول في سذاجة تضفي على الكلام خفة وسحراً : « نشأ دون كيشوت كما نشأ سرقاتيس بمقاطعة المانش بأسبانيا » (ص ١٤) . ويتابع المؤلف تجسيمه لنماذجه ليضيف إلى حياتها حياة فيقول : « فيجارو من رجال سنة ١٧٨٠ الذين مهدوا للثورة الفرنسية » (ص ٧) . فلو قرأ تلك العبارة من لم يسمع باسم ذلك البطل لما داخله شك في أنه قد عاش ومهد للثورة بالفعل . وفي تلك السنة كتبت الرواية ، وفي تلك السنة خلق بومارشيه بطله فيجارو . وبمثل تلك السذاجة حدثنا عن دخول كلمة فيجارو في اللغة الفرنسية اسماً لكل حلاق بعد أن ذاع صيت تلك الشخصية الفريدة . « وبلغ من نجاحه في تلك المهنة أن أصبح كل حلاق الأرض يحملون اليوم ذلك الاسم » (ص ٨) . وحدثنا عن الروايات التي ظهر فيها ذلك البطل : « ولقيه المؤلف بومارشيه وقد سُم مهنته ، ومن ذلك اليوم أحبه ، فصاحب خطاه في الحياة ، وقص علينا نبأه في مسرحيات ثلاث : حلاق أشبيلية ، وزواج فيجارو ، والأم الجانية » (ص ٨) .

ورغم أن المؤلف إنما قصد إلى إحياء « النماذج البشرية » إلا أنه لم يغفل أن يسوق شيئاً من النقد لفن الكاتب أو لطبيعة العمل الفني ، ولكنه يسوق ذلك كعادته سوقاً محكماً في السياق بحيث لا تحس له نفرة أو إقحاما . ففي « إبراهيم الكاتب » يقول : « وأنا بعد لا أستطيع أن أتبع تاريخ تلك الظاهرة في حياة رجلنا لأنني لا أعرف قصته ، وإنما أعرف منها مرحلة قصيرة تذكرني بالدراما الكلاسيكية حيث ترتفع الستارة عن شخصيات تكونت من قبل ، وإذا بنا أمام أزمة من أزمت الحياة ، وإذا بالشخصيات تتحرك في أزمتها وفقاً

لطبائعها . ونحن بعد لا نعرف ماضى تلك الطبائع ولا نشأتهما ، وإنما ندرك خصائصها من احتكاكها بالناس والأشياء وسط أزمته العارضة . وإذن فقد كانت لإبراهيم الكاتب دراما صيغت قصة » (ص ٧٧) . ويصف أدب الكاتب بقوله : « إبراهيم الكاتب أو إبراهيم المازنى مزيج جميل من الشعر والسخرية ، وتلك صفتان يرد لهما بحق جورج ديهاىل سر نبوغ الكتاب » (ص ٧٧) . وكذلك نراه يحكم على قصة پتلان بأن « أجزاءها المختلفة ليست فى نسبة واحدة من الصلة بالحياة . . . » (ص ٩٢) ، ثم يفسر ذلك ويوضحه . ولكم من مرة نقف أمام أدب الكاتب من أولئك الكتاب الكبار نعجب به ونتمنى لو يظهرنا المؤلف على ما فيه من أصالة وجمال ، ولكن موضوع « النماذج » يضيق عن ذلك ؛ فلعلنى إذ أقول اليوم هذا ، أنتزع من المؤلف وعداً بأن يعود إلى فن أولئك الكتاب يتحدث عنه .

والنماذج خلق ينث فيها المؤلف الحياة بما يصطنع من سذاجة ، وبما يحملها على التحدث به عن نفسها كما حمل هملت ، وبما يترجمه من أقوالها الأصلية ينطقها به بعد أن يكون قد مهد الجو وأحكم الملابس . هو مخلص لنماذجه يتابعها جزءاً وجزئين كفاوست ، وقصة واثنين كفيجارو ، بل ينتقل معها قروناً كأوليس : يعاصر هوميروس فى القرن التاسع ق . م . ثم سوفوكلى فى الخامس ق . م . ثم تينيسون وجويس فى العصور الحديثة ، فهو عالم بها ملم بأطوارها . استمع إليه يتحدث عن أوليس « ومن عجب أن يسير رجلنا من بطولة الإلياذة إلى دهاء الأودسا ثم ينتهى ببحث فيلوكتيت وأن نجد فى كل مرحلة بذور المرحلة التالية حتى لنحسب أنه كان يمتلك كل تلك الصفات كامنة وإنما هو محك الزمن الذى أظهرها فيه ، كما أظهرها عند الشعب اليونانى كله ، يوم سار من صلالة البداوة إلى مرونة الحياة إلى فساد المدنية » (ص ١٠٤) وفى الحق أن الرجل ما عاش إلا فى القرن الثانى عشر ق . م . فى عصر البداوة الأولى ولكن خالقيه من الكتاب هم الذين نقلوه معهم إلى أزمانهم حين صوروه بالصورة الخاصة التى أرادوا . ولولا نفاذ نظر المؤلف لما استطاع أن يرى تطور صورته فى رءوس كتبه المختلفين ، ولما استطاع أن يجد فى كل مرحلة بذور المرحلة التى تليها رغم اختلاف أولئك الكتاب ، ثم أن يحكم من ذلك ، لا أنموذجا لشخص واحد فى الحياة فحسب ، بل أنموذجا للشعب اليونانى كله فى عصوره المتعاقبة ، وأنموذجا لكافة الحضارات « حين تسير من صلالة البداوة إلى مرونة الحياة إلى فساد المدنية » .

والمؤلف يتسلل إلى نفوس نماذجه من خلال أنفسها ومن خلال خالقها ، ويعرض مختلف

الآراء فيها لينفذ إلى ما يراه الحق وليصورها في الصورة التي أوحى بها إليه . استمع إليه . يتحدث عن دون كيشوت « فمن قائل إن هو إلا مجنون يخيّل إليه خبلة أنه موكل بأثم البشر يحاول لها إصلاحاً فترتد إليه ضرباته إن لم يضرب في غير مضرب . ومن قائل إن هو إلا مثالي عنيد لا يزال يصطدم بحقائق الحياة المرة حتى يسلمه الفشل إلى الفناء . وأما أولئك الذين يستطيعون فهمه على وجهه فهم الشباب ، الذين يحسون بفيض من الحياة أنه ليس من الضروري أن ننجح لنجاهد في سبيل مثل أعلى نؤمن به ونفنى دونه لأن الجهاد غاية نبيلة لذاتها . ومتى احتاج النبل إلى ما يعززه من نتائج ؟! » (ص ١٣ ، ١٤) أو إلى قوله عن هملت : « هذه مأساة هملت ، ولكم كثرت من حوله الأقاويل فمن قائل إنها مأساة جنون ومن قائل إن هي إلا شهوة انتقام ، ولكم اتهمه قوم بالعجز والتردد . وفي الحق إنهم لمخطئون . ليست مأساة هملت شيئاً من كل هذا وإنما هي مأساة رجال الفكر أولئك الذين اتسعت عقولهم لكل شيء فنفضت بصائرهم إلى حقائق الحياة ، وتشعبت بهم أوجه الرأي فتحطمت بين أيديهم حياتهم التي اتخذوها موضعاً للدرس والتحليل . ألا ترى إلى بسطاء الناس كيف لا يرون من الأشياء إلا جانباً واحداً فيسرعون إلى تنفيذ ما اعتزموا ، بينما تلح العقول الكبيرة في كل أمر ألف جانب وجانب فما تزال أحياناً حائرة مترددة حتى تقف في مكانها إلا أن يكون قضاء محتوم » (ص ٤٧) ولا شك في أن ذلك رأى أصيل أيده ودعمه بما بسط من وقائع الرواية وأحاديثها .

ثم هي خلق بما فيها من تأمل شخصي وملاحظات إنسانية وتفكير عميق غذتها ثقافتها واسعة واضطراب مباشر في مناحي الحياة . استمع إليه يقول في چفروش : « فأشد انفعالات النفس وأعمقها غوراً وأصدقها رنيناً هو ما يعقد اللسان » (ص ١) أو إلى قوله عن دون كيشوت « فاستحالت آلامه سخرية من آماله التي طوحت به في كل مذهب ، ولكنها سخرية لا تزال تحمل ما كان بتلك الآمال من عذوبة . ومن منا لا يحس في نفسه بتلك الحقيقة الإنسانية اللاذعة ، وهي أننا مهما تنكرنا لأحلام شبابنا ومهما سخرنا مما كان فيها من طيش ، لا نملك إلا أن نحنو عليها ونرفق بها كما نحنو ونرفق ببعض نفوسنا » (ص ٣) من منا يقرأ ذلك ثم لا يحس بصدقه وإنسانيته ؟ ومن منا يقرأ قوله « هذا هو چفروش كما تعرفه بريس في أطفالها الذين قد لا يعرفون للأخلاق قواعد ولكنهم يصدرون عما هو أسمى من الأخلاق : عن صفاء في النفس وحرارة في القلب وإمعان في الحياة تنشر على شفاههم ابتسامة أبدية الخلود » (ص ٥) من يقرأ هذا ثم لا يحس أنه قد فسر لنا حياة أولئك الصعاليك الذين نجبهم

ونعجب بهم وإن كنا قد نتردد في انتهاج سبلهم في الحياة - من منا لا يحس أنه قد جعل
 جفروش نموذجاً حقا لهم بحيث لا نملك أنفسنا حين نقرأه ، وهو الطفل الباريسي ، من أن
 نذكر الشاعر العربي عروة بن الورد ، عروة الصعاليك الذي كان يجمعهم ويؤيهم ويطعمهم
 مما يستلب في غاراته ، ثم لا يذكر قوله الجميل النبيل :

أتهزأ مني أن سمعتَ وأن ترى بوجهي شحوب الحق والحق جاهد
 أقسم جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد

ثم انظر كيف صور الدور الذي تلعبه السخرية في الحياة بقوله في فيجارو « ولكم من
 مرة لا يجد المرء سبيلاً إلى الانتقام من آلام الحياة غير ابتسامة عابرة أو حكم ضاحك . وهل
 يضعف من نفوسنا غير الألم ؟ وهل يحد من حياتنا غير الهموم التي لا نعرف كيف نسخر منها ؟ »
 (ص ٧) واستمع إلى تلك الحقيقة الاجتماعية الصادقة في العبيط « فنحن في الحق أكثر استعباداً
 للعرف منا للخلق وذلك لأمر بين هو أننا جميعاً - إلا من عصم ربى - أشد حرصاً على حركاتنا
 الظاهرة منا على حقائق نفوسنا » (ص ٢٢) ثم احكم هل عدا الحق في قوله ! ثم أى تفكير أصيل
 دقيق في وصفه للمكر في « الأستاذ بتلان » : « المكر ذكاء ينفذ إلى النفوس فيعرف مواطن
 الضعف فيها وإلى تلك المواضع يتسلل فيختلس الثقة . والمكر إحساس باطنى بالنسب ،
 إحساس يقف بصاحبه عند طاقة الغير يعالجها حتى يقودها إلى ما يريد وكأنه لا يعي ما يفعل .
 والمكر أخيراً قدرة على تصريف القول وشعور دقيق بمفارقات الألفاظ . وهو صفة إذا
 حرم منها إنسان فقد سلاحاً لا يمكن أن يغنى عنه سلاح آخر للنجاح ، وذلك لما هو واضح من
 أن الحياة البشرية كلها إنما تنهض على فهمنا لنفوس الغير وتذليل تلك النفوس . وإذن فالمكر
 ليس شراً في ذاته وإنما يصبح شراً إذا أفلت من رقابة الضمير ، ومثله مثل الكثير من قوى
 الحياة والوجود » (ص ٨٧)

ولكم من مرة تراه يلخص فلسفة بأسرها في جملة تأتي في موضعها من السياق ، دون أن
 تحس فيها جفاف العلم وإن ظلت محتفظة بجلال الفكرة ، مما يجعل لتلك النماذج دسامة تغذى
 العقول وتفتح أمامها أبواباً من التفكير ، كما رأيناها من قبل ترهف من أحاسيس النفوس .
 فما هو يجمع فلسفة الضحك عند برجسون في قوله : « إن في تصرفات ألسنت ما يخرج
 وما يضحك ولكنه إسراف في قضية عادلة ، إسراف قصد منه إلى إثارة الضحك ؟ وهل نحن
 نضحك إلا مما يخرج عن مألوفنا ؟ وهل الضحك إلا جزاء نقوم به ما يخرج في حياتنا عما يجب
 أن تطرد عليه في عرف المجتمع ؟ » (ص ٥٤)

وأخيراً هي خلق لما فيها من صياغة محكمة أصيلة وأسلوب حار يضمنان لها الخلود كعمل فني . وفي الحق إننا لنستطيع أن نرى في ذلك مرحلة أخيرة من مراحل الأسلوب العربي في العصر الحديث ؛ فلقد كان في البدء سجعاً وتكلفاً وزخرفة لفظية ثم مال — كرد فعل — إلى البسط والتبسيط بحيث تكشف لك الكتابة عن كل ما تحمل للقراءة الأولى دون أن تترك لك ما تفكر فيه وتتأمله . ولكن أسلوب هذا الكتاب قد خلا من سوءات الصنعة المتكلفة ونأى عن البسط المسرف ، فجاء أسلوباً مركزاً موحياً غنياً بما يرقد تحته من إحياءات ، فلا تملك إلا أن تقف بين الحين والحين لدى الجملة تمضغها وتجترها لتستخرج كل ما يكمن في قلبها من معنى . وهو إلى هذا قد خلا من ثقل الحاجة المنطقية وجفاف الأسلوب التعليمي بل نراه يلقى ما يريد في خفة تشبه خفة الإغريق الذين كانوا « يفكرون بخيالهم » ويحلون مشكلات الوجود بالأساطير .

في جوليان سوزيل تجده يقول بعد أن صور ما قد يلاقيه بعض الممتازين من اضطهاد في المجتمع يدفعهم إلى ارتكاب الآثام . « وهكذا تجعل الجماعة منهم كما جعلت من سوريل طيوراً جارحة » (ص ٦٩) انظر كيف اهتدى المؤلف إلى الوصف الدقيق الناقل للإحساس يلقيه في خفة عابرة فيصيب موقعه من النفس ، فهو لم يقل « وحوشاً ضواري » مثلاً لأنه يريد أن يحتفظ في نفسك ببعض العطف على أولئك الذين « جعلتهم الجماعة » بظلمها لهم يصلون إلى تلك الحال . وكذلك وصفه للتشابه بين فتاتين صغيرتين بقوله « شبه قطرات الندى بعضها لبعض » (ص ٣) فهو لم يشبههما بزهرتين مثلاً بل اختار أدق ما يحمل ما في النفس من إحساس ، إحساس بالصفاء والطهر والرقّة ؛ وهل أدق من قطرات الندى في نقل ذلك الإحساس .

وإنك لتلمح مثل هذا التوفيق في التعبير في قوله « فلئن كان ألسنت ضميراً ينطق بمكنونه صادقاً صريحاً فلسليمين أ كذوبة اجتماعية تتحرك ؛ ومن عجب أن يحبها ألسنت حبا صادقاً عميقاً » (ص ٥٠) وانظر أي وصف كان يكون أكثر انطباقاً على امرأة كسليمين « في حركات وجهها وابتسامات شفتيها وجرس ألفاظها من التكلف والصنعة قدر ما في ألوان وجهها وأصباغ شعرها ؛ » (ص ٥٠) . وأي وصف كان يكون أبلغ عن رجل كألست ، لا يكتفى « بالأقول إلا ما يؤمن به بل وأن يقول كل ما يؤمن به ولو كان في ذلك شقاؤه ، ولو أصبح به موضع سخرية الناس أجمعين » (ص ٤٨) ثم انظر كيف ثبتت الكاتب العجب في نفوسنا من حبه لسليمين حين جمع في دقة بين « الضمير » و « الأ كذوبة »

واقراً مى تلك الجملة يفسر بها كيف أن رأس المحكوم عليه بالإعدام فى اللحظات السابقة للتنفيذ ، تحظى بحياة غنية تتدافع فيها الأفكار غزيرة متتابعة « أو ما تحس أنها قد وصلت إلى غاية الجهد فلم يبق فيها إلا ما يخلف هذا الجهد من حرارة تشبه الحياة وهى بحمى اليأس أشبه » ثم خبرنى ألم يرقك هذا التفسير الإنسانى الصادق بما فيه من دقة وتركيز يدعوان إلى التأمل ؟

واستمع إلى قوله : « وهكذا تتصور النفوس الممتازة وقد قضى عليها أن تتبع السلسلة الإدارية ، وأن تكبح من طموحها حتى تبلى فى أصغر المراكز ، وما تزال تحنى أصلابها وتتصبب عرقاً حتى تستطيع — وقد لا تستطيع — بعد جهد عشرين عاماً — جهد الرقيق — أن تصل إلى ما تستحق » (ص ٦٨) . ثم انظر إلى قوة الصورة ودلالاتها وأصالتها فى قوله : « تحنى أصلابها وتتصبب عرقاً » . إننى لأتصور أمامى الآن رجلاً رث الثياب يخرج من فوهة منجم مظلم ، وقد حمل فوق ظهره حملاً ثقيلاً انحنى عوده تحت وقره ، ونفرت عروقه وتصبب منه العرق . وانظر إلى تلك الجمل الاعترافية التى قطعت الأسلوب ، عقبات تقف فى طريقك كلما حاولت الانطلاق مما يشعرك بالجهد ، جهد أولئك الممتازين الذين وضع المجتمع فى سبيلهم العقبات ، « حتى تستطيع — وقد لا تستطيع — بعد جهد عشرين عاماً — جهد الرقيق — أن تصل إلى ما تستحق » ، ولكن الجملة الأخيرة تطول قليلاً ، إذ فيها راحة الوصول . فأى مطابقة فى الأسلوب بين الفكرة وما يساوقها من عاطفة ، وبين الموسيقى اللفظية ! وما دمننا بصدد الموسيقى فلتقرأ مى تلك الفقرة : « ولكم قعقت أسلحة رولان فى مفاوز الجبال ، ولكم نشرت قلاع برباروس الرعب على صفحات المياه ؛ فما له لا يغامر كما غامروا ؟ وما له لا يلتمس المجد بمجد السيف كما التمس من قبل أبطال ؟ » (ص ١٢) . واستمع كيف « قعقت » الأسلحة فى « مفاوز » الجبال ، وكيف « نشرت » ، لا بعثت ، « قلاع » برباروس « الرعب » على « صفحات » المياه ، لا سفن برباروس ، الخوف على صفحة الماء . ثم احكم أى توفيق قد صاحب الكاتب فى اختياره للألفاظ المعبرة بمعناها وموسيقاها ، ورولان هو ذلك البطل الشهير الذى زعموا أنه حاول رد العرب عن إسبانيا ، فأوحى بأول ملحمة فى الشعر الفرنسى ، ورباروس هو ذلك القرصان الرومانى المرعب الذى دوخ رواد البحر .

« تراه فى المنزل وما تدرى من أين دخل ، تغلق الباب فيأتيك من النافذة ، تحسبه بالداخل بينما هو فى الخارج ؛ أليس هو فيجارو مضرب المثل فى الخفة والمهارة ؟ أليس هو فيجارو ؟... » (ص ٩) .

نعم إنه فيجارو مضرب المثل في الخفة والمهارة ، إذن فليتابع المؤلف خفته في حركة الأسلوب ، في تلك الجمل المنفصلة المتلاحقة ، وفي ذلك التساؤل المتكرر الذى يتبعها . وبعد فليس الحديث عن السيل الموسيقى في الأسلوب والدقة في اختيار الأصوات المعبرة بالأمر الهين . ذلك لأنها ليست من البساطة والوضوح بحيث تمسك بها وتدرجها في رقم أو أرقام كذلك الذى كانوا يعلموننا في المدارس عن أدب هذا الكاتب أو ذاك « سجع قصير الفقرات ، ومقابلة أو طباق ، وبدء بالتحميدات الخ الخ . . . » . إنها ليست موسيقى رقص ، محددة مقسمة متقابلة ، ولكنها فيض نفس ، نفس حارة غنية ، موسيقى سيالة تعلو وتهبط وتتكسر وتتراخى وتتدافع حسب نبضات الإحساس أو وثبات الفكر ، فإذا أردت أن تدرك خصائصها ، فعليك أن تقف إزاء كل جملة ، وإزاء كل فقرة ، تتأمل السر في إحكام ما بها من نغم .

وإذا كان المؤلف قد استعان بتجسيم شخصياته على إيراد الحقائق التاريخية ، فإنه قد استعان بذلك أيضاً على استحضارها أمام القراء ، حتى تكون أبلغ تأثيراً في نفوسهم ، « ها نحن تحت أشجار القسطل في ظلام الليل ، وها هو فيجارو وحيداً مجهداً يقص علينا آلامه ويشكو ظلم الحياة ، بعد أن نفذ صبره وأصابته السهام شغاف قلبه . ها هو فيجارو يصيح غيرة على عروسه التى يحب . . . » (ص ١٠) . ثم إذا به يعقب بعد أن انتهى فيجارو من إلقاء مونولوجه بقوله : « وحزن الحاضرون لحزن فيجارو » . وفى الحق لم يكن ثمة حاضرين سوى النظارة فى المسرح ، ولكنه أحالهم « حاضرين » معه حتى يوهنا بالواقع فيكون أفعّل تأثيراً فى نفوسنا .

وبعد فإذا كان المؤلف يملك تركيز الفكر ودقة اللفظ وقوة إيحاءاته ، ثم دلالة الصور وموسيقى الأسلوب ؛ وإذا كان يعرف اصطناع السداجة وإحياء الشخصيات ، فإنه يملك هبة لا تقل خطراً عن كل هؤلاء ، يملك حرارة القلب ، يملك قوة الشعر ، ومثالية التصوف ، استمع إلى قوله « دون كيشوت رمز لأحلام الشباب ، وأى سحر أفعّل فى النفس من تلك الأحلام ؟ لقد تذهب أحداث الحياة بتلك الآمال العذاب التى يقوم عليها صبا ناكما كانت تقوم العذارى على النيران المقدسة بمعابد الآلهة يمسكن ضرامها عن أن يخمد ، ولقد تنقطع أوتار القيثارة فلا تعود تملأ نفوسنا بنگماتها الساحرة ، ولكن النار لا بد مخلفة رماداً مقدساً ، ولا بد للألحان من رجع فى النفس تحن إليه كلما عادت بها الذكري من ثنايا الماضى الجميل » . إننى لأشفق أن أمس تلك الفقرة الرائعة بالتحليل فألقى ظلاً على ما بها من شعر وتصوف ،

ولكن عليك أن تعيدها على سمعك لتحس بكل ما فيها من جمال وجلال .

ثم هو إذا كان يملك الشعر فإنه ليعرف السخرية . استمع إلى قوله في « العبيط » : « ولكن الرجل عبيط عبيط ما في ذلك ريب ، فهو لا يعرف أين يضع نفسه ولا يقدر نفسية من يخاطبه ولا يظن إلى ما في ردود الخادم من وقاحة متصاعدة ، وهو أخيراً لا يعرف أن ما كل حق يقال ، وإذا قيل فما ينبغي أن يقال لكل إنسان وما إلى ذلك من حكمنا الثمينة . قد تقول هذا وخيراً من كل هذا ، وأما أنا فأعتقد أن عقولنا نحن هي الفاسدة وأن حياتنا الاجتماعية كانت من القسوة بحيث خلقت أرواح عبيد وأرواح سادة ، وكانت من الالتواء بحيث جعلت من حياتنا نفاقاً متصلاً ، واتخذت من هذا النفاق قانوناً صارماً يصيبنا من عدم احترامه أكبر الأذى » (ص ٣٦ ، ٣٧) فأى سخرية أبلغ منها في قوله « عبيط عبيط ما في ذلك ريب » ووصفه لتلك الحجج بأنها « حكمنا الثمينة » ثم استخفافه بها في قوله « قد تقول هذا ، وخيراً من كل هذا » . ثم إنني أرجو أن تقف عندما في هذه الفقرة من سخط على التواء حياتنا الاجتماعية ونفاقها وما بها من دعوة لتحطيم تلك القسوة التي خلقت أرواح عبيد وأرواح سادة . ولكنها دعوة لا تأتي من الخارج ، لا تأتي من أنه « ينبغي » لنا أن نحث على الفضيلة وأن نجعل الأدب منابر وعظ ، لا تأتي عن قصد وتعمل — فذلك ما يمتدح الأدب ولا يحيي الأخلاق — وما يؤمن الكاتب بشيء من هذا بل إنه ليؤمن بأن الفن غاية نبيلة في ذاتها ، ولكن تلك الدعوة وأمثالها إنما تصدر لديه عن فيض نفسي ، عن شعور شخصي وإيمان عميق ، ولذلك تحتفظ بقوتها على التأثير ، فتسلم لها النفوس ، بدل أن تنفر من وعظ مفتعل مرسوم .

ولكني يستجيب إلى ذلك الشعور الذي يعتلج في نفسه من حبه للمثل العليا تراه يقف في تصويره لبعض الشخصيات عند مرحلة بعينها حين يراها تفقد دلالتها الأولى كمثل ممتاز « ولهذا نقف في تصوير فيجارو عند هذا الحد لنتركه في ذهن القارئ مثلاً حياً لمبلغ ما يستطيع أن يصل إليه الفرد من عزة نفس مهما اتضعت به سماقات الهيئة الاجتماعية الفاسدة . » (ص ١١) وفي الحق إن في النماذج خير غذاء للجيل الجديد . تراه يدعو إلى المثل وإن كان ينصح بملابسة الحياة « وهكذا نحن في الحياة لابد لمن يريد أن يظفر منها بما يسميه جمهرة البشر نجاحاً وقوة أن يستوثق من الأرض بقدم وأن يلبس الواقع عن قرب . وأما المثاليون الذين يرفضون أن تدنس الأرض أقدامهم فمثلهم لنكد الطالع كمثل أنتيه وقد رُفِعَ إلى الفضاء ما تلبث السيوف أن تذهب برءوسهم » (ص ١٢) ففي هذه الفقرة تراه يصور ضرورة ملابسة الواقع

فلا يهيم الشباب في واد سحيق من الأحلام لا يفضى إلى شيء ، وإن كان لا زال يحتفظ بحبه للمثل في قوله « أن يظفر بما يسميه جمهرة الناس نجاحا وقوة » وفي قوله « لنكد الطالع » . وهو يدعو إلى الجهاد ، الجهاد الذي لا يعرف اليأس مهما لاقى من إخفاق « وأما أولئك الذين يستطيعون فهمه على وجهه فهم الشباب الذين يحسون أنه ليس من الضروري أن ننجح لنجاهد في سبيل مثل أعلى .. » ثم هو يرفع من قوى النفس الخلقية « ولكنه أبى النفس يرفض أن يميل مع الرياح ليمر على عنقه رجال حابتهم الأقدار على غير فضل فيهم أو رفعهم بحق البشر فوق ما كان يجب أن يقيهم اتضاع نفوسهم » .

ولقد نجد تفاوتاً في الحرارة بين النماذج المختلفة ، فما ننتظر أن يتحمس للمحتال « بتلان » وإن كان قد يتحمس ضد أوليس بعد أن ينحدر . إنه يفهم محنة هاملت ويعطف على فيليسيته ويرثى إچوليان سوريل ويخشى على رستنيك ويحب جفروش ، ولكن حماسه تبلغ أقصاها حين يتصل النموذج بمعنى عام شديد المساس بحياتنا قريب من آلامنا وآمالنا . استمع إلى قوله عن فيجارو « فيجارو أنموذج بشري خالداً لأبناء الشعب الذين لا يطمأن من كبريائهم ظلم ولا يعوزهم سلاح فإن لم يكن العنف فلتكن السخرية . . . فيجارو روح خالدة لأنها كقوى الطبيعة التي لا تدفع . فيجارو من روح الله لأنه رمز الشعب ، ذلك الشعب الخامل الذكر المهضوم الحق ، ذلك الشعب الذي لا يريد أن يستجدي أحداً وإنما يطالب بحقوق لا بد أن ينالها يوماً ما ، ذلك الشعب الذي يشكو من نظام فاسد لا بد من أن يقيم على أنقاضه نظاماً أصح » . (ص ١١) وفي هذا الكلام من حرارة القلب وقوة الإيمان ما يشحذ القوى ويحيي النفوس .

وبعد ، فلعل أطلت عليك أيها القارئ الكريم ، ولعلك تتساءل وما بالها تكتب كل هذا الكلام عن صاحب الكتاب ؟ ولكنه لو لم يكن زوجي لكان لي الحق في أن أكتبه كمحبة للأدب ، فكل ما طرأ هو أنه قد أفسح لي الكتاب لأقول ما أريد .

جـقـرـوش

Gavroche

للكتاب الإيطالى المعروف پيراندلو Pirandello رواية مسرحية هى «ست شخصيات تبحث عن مؤلف يبرزها إلى الوجود» ، وهذا هو معنى الخلق فى الأدب . ولكم من شخصية ما تزال مبعثرة غامضة حائرة ، حتى يتاح لها مؤلف يجمع أشاتاتها ويوضح معالمها ويدعم حياتها ، فإذا هى أبقي على الزمن من البشر ، وإذا بها تتجاز الأجيال مستقلة الوجود فى مأمن من الفناء ، لأنها أعمق فى الحياة من كل حى ، وأصدق دلالة من كل واقع .

ولقد يبدو غريباً أن نترك النماذج المشهورة كدون كيشوت وهاملت وفوست مثلاً ، لنبدأ بجقروش . وجقروش طفل فى الثالثة عشرة من عمره يظهر ويختفى بعد أن تبدأ رواية «البؤساء» لهيجو وقبل أن تنتهى ؛ فلا هو بطل الرواية ولا هو مدارها ، ولكنى رغم ذلك أحب هذا الطفل وأفضله على الرجال ، حتى لقد أقعدنى المرض أياماً فلم أجد جليساً تستريح إليه النفس خيراً منه . ولقد سئمت منطق البشر وأصبحت أرثى لذلك الفيلسوف الجليل^(١) الذى غذى شبابى بما فى الخير والحق من جمال . وما أدرى أضل رجلنا عندما زعم أن النفوس لا يمكن إلا أن تعشق الخير والحق إن بصرت بهما ، أم يخادع الناس أنفسهم ويخادعون الغير عندما يتحدثون عن الخير والحق ؟ ومن يدرينا ؟ قد لا يكون هذا ولا ذاك ، وإنما هو عبث بالألفاظ وإخراج اللغة عما خلقت له من حمل معانى النفوس ونفثات القلوب . ولكم من مرة حدثتني النفس أن اختراع اللغة هو أقسى ما نزل بالبشر من كوارث .

فأشد انفعالات النفس وأعمقها غوراً وأصدقها رنيناً هو ما يعقد اللسان ، وأكمل الرجال شهامة أقلهم حديثاً عن الخير والشر ؛ وتلك ألفاظ ما كان جقروش يعرف لها معنى ، ولو أنه علم أن للأخلاق قواعد تواضع عليها الناس لفست حياته ، لأنه نشأ على السخرية من مواضعاتهم والعبث بقوانينهم ، وحتى وخزات الضمير ما كان يعرف لها المأ ، وما كان قوام حياته إلا معنى عميقاً للشهامة وفطنة إلى مواضع التهلكة أ كسبته إياها تجارب عاجلته بها الحياة صغيراً . نعم لقد كانت تجاربه محدودة ، ولكنها كانت غنية لشدة ما قاسى من آلام

حتى ما كان يدهشه شيء وهو بعد في العاشرة من عمره .
« وكان جفروش يرتدى بنطلوناً لم يأخذه من أبيه وقيصاً لم يأخذه من أمه ، وإنما كساه
بتلك الأسمال قوم محسنون ، ومع ذلك فقد كان له أب وقد كانت له أم ، ولكنه لم يكن
موضع تفكير أبيه ولا محبة أمه . لقد كان من أولئك الأطفال الذين لهم أم وأب ومع ذلك
فهم أيتام .

« وكان شعوره بالسعادة أتم ما يكون عندما يجد نفسه في الشارع ، إذ أن حجارته
كانت عليه أقل صلابة من قلب ذويه ، وقد ألغوه إلى الحياة برفسة قدم ، فطار إليها راضى
النفس . لقد كان طفلاً صاحباً شاحباً خفيفاً يقطاً ساخراً حتى الملامح مريضها ؛ فكنت
تراه رائحاً غادياً مغنياً لاعباً يحفر القنوات ، ويسرق أحياناً ولكن في مرح كما تسرق القطط
أو العصافير ، وكان يضحك لمن يسميه عفريتاً ، ويفض من يسميه لصاً . لقد حرم المأوى
والخبز والنار والحب ، ولكنه كان مرحاً لأنه حر » .

هذا هو طفل باريس ، وهو منها بمنزلة العصفور من الغابة .

« وباريس أطفال لا يجدون عشاء كل يوم ، ولكنهم قد يذهبون إلى المسرح كل مساء .
لا قيص على جسدكم ، ولا حذاء بأرجلكم ، ولا سقف فوق رؤوسكم ؛ فهم كذباب السماء
لا يملكون من كل ذلك شيئاً . يعيشون أسراباً . يذرعون الطرقات ، ويسكنون الفضاء ،
ويرتدون بنطلوناً قديماً يخلعه عليهم أبوهم فينزل إلى ما دون أكتافهم ، وبرنيطة لأب آخر
تغطي آذانهم ، وحمالة ذات فرع واحد يعلقونها بأكتافهم . يعدون ويتربصون ، ويضيعون
وقتهم ، ويدخنون ، ويقسمون أغلظ الأيمان ، ويفشون الحانات ، ويعرفون اللصوص ؛ وما
في قلوبهم من الشر أثر لأن بها لؤلؤة هي الطهر والآلى لا تذوب في الأحوال .

« وهم يصيحون ويسخرون ويصخبون ويتضاربون ، وعليهم خرق كالشحاذين ، وأسمال
كالفلاسفة . يصيدون في المجارى ، ويطاردون في القمامة ، ويستخرجون المرح من الأحوال .
يصرون بأضراسهم ، ويعضون بالأنياب . يصفرون ويغنون ، يحيون ويسبون . يجدون بغير
بحث ، ويعرفون ما يجهلون . هم إسبرطيون إلى حد اللصوصية ، ومجانين إلى حد العقل ،
وشعراء إلى حد الإسفاف . يرقدون فوق الأولب ، ويندسون في الروث ، ويخرجون منه
مرصعين بالنجوم » .

ولنتتبع جفروش قليلاً في أزقة باريس وهو يبحث عن عشاءه : ها هي حديقة يتدلى منها
التفاح (ولقد أودت بآدم تفاحة فلم لا تنجى أخرى جفروش من الموت جوعاً؟!) ، ودون

التفاح سياج يعبره جثروش ، فإذا به على مقربة من زارع الحديقة ، وزارعها شيخ فان . يسترق جثروش السمع إلى حواره مع زوجه العجوز ، فإذا بهما في ضيق شديد ، وإذا بالمالك ينذرهما بالطرد ، وإذا بهذا الحديث يذهب بما يحس جثروش من ألم الجوع فيتفقد إلى جوار السياج مضجعاً يأوى إليه .

ومن خلال ذلك السياج لمح طفلنا شبحين يتبع أحدهما الآخر : أولهما شبح شيخ وقور ومن خلفه شبح فتى خليع يتربص به ، وما هي إلا أن وثب الفتى بالشيخ فسقط إلى الأرض ؛ وهم جثروش ليرى ما حدث ، فإذا بالشيخ قد أرغم أنف الفتى ؛ وانتظر جثروش ليرى بقية المفامرة ، فإذا بالشيخ يُنهض الفتى آخذاً بتلابيبه كما يفعل قط بفأر ، وإذا به يعظه وعظاً طويلاً يفهم منه جثروش أنه لا تستقيم الحياة بغير جد وإلا انتهت بغياهب السجون أو دماء المقاصل ، ثم يدفع الشيخ محفظة نقوده إلى اللص ويحلى سبيله .

لم يرق جثروش ما رأى ، وإذا به يتسلل في الظلام خلف اللص حتى يأتيه واللص لا يشعر بوجوده ، ثم يضع يده في الجيب الذي به المحفظة ويعود بها حتى يقترب من موضع مضيفه الشيخ خلف السياج ، فيرمى بالمحفظة إلى الحديقة ويعدو ملء أرجله ، وقد نسي جوعه ونسى مخدعه ، ولكنه فرح مغتبط بتلك البطولة الساذجة ، لأن مزاجه مزاج فنان ، وما يعنيه من بعد ذلك شيء ، وما يريد أن يعرف عما ارتكب شيئاً من أحكام البشر . هل ما أتاه يعتبر خيراً أم شراً ؟ هذا ما لا يعنيه ، وما أظنه قد ساءل نفسه يوماً سؤالاً كهذا ، لأنه كما قلنا لا يعرف للشر أو الخير معنى ، ولا يأتي أيهما عن حساب أو تقدير ، وإنما هي طبيعته تسوقه إلى ما يفعل وفي فعله هذا جمال لا شك فيه .

لقد يلقي في الطرقات طفلين مشردين أصغر منه سنّاً وأضعف قوى ، فيسيطر عليهما حمايته ، ويقودهما إلى حيث يجد لهما قليلاً من الخبز ، أو يمهد لهما مضجعاً إلى ساق تمثال نابليون ، مستعيناً بما يسرق من أخشاب سياج حديقة النباتات ؛ حتى إذا أويا إلى مضجعهما خف في ظلام الليل ليساعد مجرمًا على الهرب من السجن ، والمجرم أبوه والطفلان أخواه ، ولكنه لا يعلم عن ذلك شيئاً ، ولو أنه علم لما تغير موقفه ، لأنه يأتي ما يأتي للجمال ما يفعل في ذاته ، وما للخير أو الشر في نفسه أي اعتبار .

ويعود طفلنا عند الصباح ليوقظ طفليه اللذين يعتبر نفسه قواماً عليهما ، ويعتزم أن يبصرهما بالحياة ، وأن يقوم على تنشئتهما ، فيقتادهما معه وسط الطرقات ، ولكنه يفقدهما في ازدحام يلقيه ، فيأسف أشد الأسف ، ولا يجد عزاء عما فقد إلا أغنية ساذجة يردد

مقاطعها خلال الأزقة المظلمة .

كل تلك المغامرات قصيرة الباع ، لا تظهر ما بنفس هذا الطفل الخيرة من غنى ؛ وأما اليوم الذى تجلت فيه ثروته الروحية فكان يوم ثورة سنة ١٨٣٢ .

فى ذلك اليوم كان جفروش عائداً من إحدى ضواحي باريس ويده غصن مكمل بالأزهار ، وإذا بروح الثورة تهب ، وإذا به من رجاها فيلقى الطفل غصنه من يده ، ويسرع إلى مخزن أسلحة يختطف منه طبنجة واعداء بردها ، ويعدو إلى قلب باريس ، ولكنه يلاحظ أن الطبنجة بغير زناد ؛ فليكن ، وليعد طفلنا وسط الجموع صاخباً مهللاً ، وليتغن بالمرسينز مع المتغنين ، وليخطب من حوله : « لا عليكم ! إن برجلى اليسرى ألماً شديداً ، ولقد قسا بى الروماترم ، ولكننى مسرور أيها المواطنون ؛ وما على الأعيان إلا أن يستوثقوا من مواضع أقدامهم . من هم أفراد الشعب ؟ كلاب ! ليكن ؛ ولكن ليحترموا تلك الكلاب . آه ! ليت هنا زناداً . لقد أتيت من ظاهر المدينة حيث النار تضرم والقلوب تغلى . آه ! لقد حان الحين لنقطف زبد القدير » .

وفيا هو سائر لا يلقى رجلاً إلا حثه على السير إلى القتال ، وإن يكن الحزن قد تسرب إلى نفسه دقيقة عند ما نظر إلى سلاحه قائلاً : « سأنتقل إلى المعركة وإن لم تنطلق منك رصاصة » .

وفيا هو كذلك إذا بجموع الطلبة الثائرين يمرون وعلى رأسهم زعيمهم « إنجولرا » Enjolras ، فينضم إليهم ، لأنه يعرف أنهم يعلمون إلى أين يسيرون . خف فى مقدمتهم ، وسلاحه الحرب بيده ، والأغاني لا تغادر شفثيه ، حتى وصلوا إلى حانة قرروا أن يتخذوا منها مقرهم ، وأن يقيموا أمامها حواجزهم ؛ ويأخذ جفروش على نفسه إنجاز تلك الحواجز .

« ها هو يغدو ويروح خفيفاً مرحاً . ها هو يصعد وينزل ، ويصيح ، ويزغى ويزبد ، حتى لكأنه خلق ليث الشجاعة فى نفوس الجميع . عجبا ! أى باعث كان يحفزه ؟ وأى أجنحة كانت تطير به ؟ لقد كان باعثه ما عانى من بؤس ، وكانت أجنحته ما يفيض به قلبه من فرح . لقد كنت تراه بغير انقطاع ، وكنت تسمع صوته فى كل لحظة . لقد كان وجوده يملأ الفضاء حتى لكأنه فى كل مكان . كنت تراه بأعلى الحواجز يدفع المتسكعين ، ويحث المتكاسلين ، ويبعث النشاط فى المتعبين ، ويقلق المتأملين . يثير فى البعض النشوة ، وفى البعض الغضب ، وفى الآخرين الجهاد ، كما يدعو الجميع إلى النشاط . يخز طالباً ، ويعض عاملاً . يقف ويسير ، ويستأنف السير منتقلاً بين هؤلاء وأولئك ، يتمم حيناً ، ويطن

أخرى . ثم لا يقف جهده عند ذلك الحد ، بل يحاول أن يشترك في المعركة ، فيرمى بسلاحه الحرب إلى الأرض ، ويأخذ ببندقية أثقل منه وزناً ، ويقدح الزناد ، فإذا بالبندقية فارغة ، وإذا بوجهه يتقطب امتعاضاً . ولعل هيجو لم يشأ أن يجعل منه سفاكاً للدماء . ويرسله أحد الثوار بخطاب إلى فتاة ، فيطيع ، وينتهزها فرصة سانحة ليحطم بالحجارة ما يليق من مصاييح ، وهو في أثناء ذلك يغنى بصوته المرتفع وسط الشوارع المظلمة ، ويعثر في أثناء سيره بعربة يد يدفعها حمال ثمل ، فيأخذها منه ، ويسوقها أمامه فوق الحجارة في ضجة تسترعى انتباه رجال البوليس ، فيسرعون إليه فيدفعها في أرجلهم ، ويولى الأدبار كدخان تبدد ، ويعود إلى الحواجز ليحضر المعركة الحاسمة ، فإذا بالإخوان الثوار قد نفدت ذخائرهم . يرى ذلك فيأخذ لساعته سلة يعبر بها الحواجز إلى حيث تتمدد جثث الموتى من الجند يفرغ جعبهم ، وما يزال ينسل من جثة إلى جثة ، والجند يصوبون إليه رصاصهم دون أن يصيبه أذى ، وهو يحاورهم ويداورهم ، مختفياً وراء جثة ، محتمياً بمصرع باب ، وكلما رفت رصاصة بجوار أذنه غايظ من أطلقها بحك إصبعه على أنفه ، والحواجز تهتز ، وصوته لا يسكت عن الغناء ، حتى حم القضاء وأصابته رصاصة أقعدته والدم يسيل فوق وجهه ، فرفع ذراعيه إلى السماء ، وأدار وجهه إلى الجهة التي أتته منها الرصاصة وهو يغنى : « لقد سقطت إلى الأرض وتلك غلطة قولتير . لقد سقطت بالقناة وتلك غلطة ... » .

ولم يتم أغنيته ، إذ أتته رصاصة أخرى خر منها صريعاً وجهه على الأرض ولا حراك به . وهكذا قضت روح ذلك الطفل الكبير ، وقد اجتمعت بنفسه قوة الثورة على الظلم إلى جوار المرح والسخرية من آلام الحياة .

هذا هو جفروش كما تعرفه باريس في أطفالها الذين قد لا يعرفون للأخلاق قواعد ، ولكنهم يصدرون عما هو أسمى من الأخلاق : عن صفاء في النفس ، وحرارة في القلب ، وإيمان في الحياة ينشر على شفاههم ابتسامة أبدية الخلود .

هذا هو جفروش كما يعرفه كل الفرنسيين وكل من يتكلم الفرنسية ، حيث خللت اللغة هذه الشخصية الأصيلية الجذابة ، بأن أدخلتها بين مفرداتها كاسم ذات وكصفة ، وهم يدعون الرجل « جفروش C'est un gavroche » ، كما يصفونه بتلك الروح التي صورنا « il a l'esprit gavroche » . وليس بعد ذلك دليل على خلود هذا النموذج البشري بين ما خلق الأدب من نماذج .

ولكم يذكركم جفروش هذا بهيجو خالقه وقد ظل طفلاً حتى آخر عهده بالحياة ،
ولكم يذكركم برينان الذي قال عنه أحد النقاد فأصاب القول : « إنه كان يفكر كرجل ،
ويحس كامرأة ، ويتصرف كطفل » . وهكذا شأن كل من تميز بين البشر ، فما يجوز
أن نخضعهم لأحكامنا الوضيعة المتواضعة . ولحياتهم منطق لا يفهمه إلا من يضارعهم .
وأما نحن فلنخضع لما تملى علينا الجماعات التي ننتمى إليها ؛ وإن كان لنا أن نحذر أحداً
فليكن ذلك الحذر ممن يتشدقون بكلمات الخير والحق ونفوسهم أصغر من أن تحتوى معاني
تلك الألفاظ الجميلة .

فيجارو

Figaro

لست أدري إلى أى حد يصح ذلك رأى السائد عند المفكرين ، من اعتبار السخرية قفزات من الذكاء لا تمت إلى القلب بصلة ، ومنها ما يقطر دماً ؛ ولكم من مرة لا يجد المرء سبيلاً إلى الانتقام من آلام الحياة غير ابتسامة عابرة أو حكم ضاحك ! ولكم من مرة اهتزت النفس انفعالاً من حركة لـ « تشبلن » أو قهقهة منه ! ومن عجب أن يُضحك المرء ويُحزن ! ومن عجب أن يفترّ الفم وينقبض القلب ! وفيجارو كتشبلن من أولئك الذين تحمل ضحكاتهم فيضاً من الأسى يكاد يلهب منا القلوب .

فيجارو من رجال سنة ١٧٨٠ الذين مهدوا للثورة الفرنسية ، وقد خلقه مؤلفه في زمن كان الفلاسفة قد أيقظوا في الشعب ذلك الإحساس بالبوأس الذي حررهم من كل ظلم ، وأخذت الثورة تضطرم في قلوب الرجال ، وكان لا بد لها من متنفس . وكيف السبيل والبستيل لهم بالمرصاد ، والفرنسي رجل حامى الطبع لا يطيق صبراً على ضيم ، وهو من يقظة النفس بحيث لا يستطيع أن يمسك لسانه عن الحكم على ما يرى من فساد ، ويرجو من خير ؛ وإذا فلتكن السخرية سبيله ينفث فيها مكنون نفسه ، فينال ما يريد دون أن يتعرض لهلاك محقق .

سخرية فيجارو إذاً ليست دليل جفاف في نفسه ، وإنما هي انتقام مر من نظام بلغ من فساده أن كان الشعب يسعى إلى هدمه دون أن يفكر فيما يريد أن يقيم على أنقاضه من نظام ؛ وعندما ياجم الظلم ألسنة الرجال لا يجد ذوو الإباء منهم سبيلاً غير تلك السخرية التي لا تعرف سلاحاً أمضى منها بين أيدي الشخصيات القوية .

وفيجارو شخصية نادرة المثال في إباءها . ولنستمع له وهو الخادم يخاطب سيده :

السيد — أيها الكسول الخبول .

فيجارو — سيدي ! دعنا نحصى الفضائل التي تُطلب من خادم ولننظر بعد ذلك .
ألا يعرف سيدي أسياداً كثيرين جديرين بأن يكونوا خدماً .

هذا هو فيجارو يرتدى ملابس الخدم ونفسه أعز من نفس الأسياد . وما ولد فيجارو خادماً ، ولقد تقلبت به أحداث الحياة ، ولو أنه أراد لوصل إلى ما وصل إليه چل بلاش

« Gil Blas »^(١) من قبل ، ولكنه أبى النفس يرفض أن يميل مع الرياح لير على عنقه رجال حابتهم الأقدار على غير فضل فيهم ، أو رفعهم حتى البشر فوق ما كان يجب أن يبقوهم اتضاع نفوسهم .

ولد فيجارو ابناً طبيعياً لطبيب وخدمته ، وتخلّى عنه أباه وسط أمواج الحياة ، فزاول الطفل كل المهنة احتيالا على الحياة الغشوم ، وبخاصة مهنة « الحلاقة » ؛ وبلغ من نجاحه في تلك المهنة أن أصبح كل حلاق الأرض يحملون اليوم ذلك الاسم . ولقيه المؤلف بومارشيه (Beaumarchais) ، وقد سُمّ مهنته ، ومنذ ذلك اليوم أحبه فصاحب خطاه في الحياة وقص علينا نبأه في روايات مسرحية ثلاث : « حلاق أشبيلية » و « زواج فيجارو » و « الأم الجانية » . وقد مثلت الروايات الثلاث تباعاً في سني ١٧٧٥ و ١٧٨٤ و ١٧٩٠ . ومرت السنون وفيجارو يجالّد الحياة وهو هو ذلك المرح الصاحب الذي يلتبس في كل ألم جانبه المضحك . وانصرفت الأيام وكل ما فيها من ألم لا يستطيع أن يخلف في نفسه غير ابتسامة هازئة . وأما الغد فما كان يعني بأمره ، وما له من سلاح غير تلك السخرية يرسلها سهاماً لمن يمسّه بسوء فيبلغ ما يريد من خصمه دون أن يترك جراحاً ظاهرة .

ها هو « حلاق أشبيلية » يقفز إلى المسرح وكأنما يعلو منبراً ؛ وها نحن نراه أول ما يبدو في أحد شوارع أشبيلية ، وقد علق في ظهره قيثارته بشريط عريض من الحرير ؛ وها هو يغنى في صرح ويده قلم وورقة ، وها هو يوهّم نفسه أنه قادر على كتابة أغنية يشيد فيها بالخر والكسل اللذين يقتسمان قلبه ؛ وها هو يعثر مصادفة بالكونت المائثفا أحد زبائنه القدماء فيقص عليه ما كان له من أحداث كسبي بصيدلية ، وكمثل مسرحي ، فيسأله الكونت : لماذا ترك مدريد ؟

فيجارو : هو طاملي السعيد — يا مولاي — قادني إلى حيث ألقاك . لقد رأيت في مدريد جمهورية الأدباء ، وقد أصبح بعضهم لبعض ذنباً ضارياً فسُئمت الكتابة ، ومِلّت نفسي وضقت ذرعاً بالآخرين ، وقد ثقلت ديونى وخف جيبى ، فاستقر رأيى على أن أدخل « الموسيقى » أجدى على من مجد باطل أصيبه بقلمى . وتركت مدريد لأجوب متأملاً قشتالة والمانش والأندلس ، يرحب بى قوم ويزج بى فى السجن آخرون ، ونفسي أينما حللت تخلق فوق أحداث الحياة ، يلومنى قوم ويمتدحنى قوم ، أنعم بما أصيب من خير ، وأصبر على ما ينزل بى من محن ، ساخراً من الحق مناهضاً الأشرار ، أضحك من بؤسى وأقص ذقن كل

(١) بطل رواية من تأليف Le Sage لساج وصل إلى السلطة بمرورته بل وضعته بادئاً من العدم .

من ألقى ، حتى استقر رأيي على المسير إلى أشبيلية ، حيث أنا الآن على أتم أهبة لأن أخدم مولاي فيما يسره أن يأمرني به .

الكونت — ومن أين لك بتلك الفلسفة الباسمة ؟

فيجارو — من مصاحبة البؤس يا مولاي . تراني أسارع إلى الضحك من كل شيء خشية أن تساقط مني الدموع .

واستعان الكونت بمواهب فيجارو ليصل إلى ما يريد من الزواج « روزين » ؛ وكانت روزين بنتاً جميلة تبتناها شيخ فان ؛ وكان الشيخ يغار عليها كما يغار من ملابسه ؛ وفيجارو « حلاق صحة » أشبيلية ، فالسبيل أمامه ممهدة ليحمل إلى روزين رسائل الكونت ، وفيجارو واسع الحيلة يستطيع أن يسخر من الشيخ ومن الخدم ، وأن يحضر المأذون ويعقد الزواج ؛ وقد أصبح الكل ألعبوبة في يده يسخر منهم ويضحك الحاضرين ما اتسعت أشداقهم لضحك ، وهو في كل ذلك كنسمات الريح تحسبها ولكن لا تستطيع لها لمساً . وإنه لأهون على من يريد أن يمسك بنعمة من قيثاره فيجارو من أن يمسك بالرجل وما لشخصه من وجود محس أكثر مما لأغانيه التي تشيع في الفضاء ، تراه في المنزل وما تدرى من أين دخل ، تغلق الباب فيأتيك من النافذة — تحسبه بالداخل بينما هو في الخارج . أليس هو فيجارو مضرب المثل في الخفة والمهارة ! أليس هو فيجارو الذي يعرف كيف يستفيد لا من أغلاطه هو فحسب بل ومن أغلاط الآخرين ؟ وهل يضعف من نفوسنا غير الألم ، وهل يجد من حيلتنا غير الهموم التي لا نعرف كيف نسخر منها ؟ !

وجازى الكونت فيجارو على ما أسدى إليه من يد ، فأخذه خادماً له . ويعود بطلنا إلى الظهور على المسرح في « زواج فيجارو » ، وقد صمم على الزواج من « سوزان » خادمة الكونت ، وكانت الوقاحة في ذلك الحين قد بلغت بالأشراف مبلغاً ما كان فيجارو ليستطيع معه صبراً . كانوا يدعون لأنفسهم حق قضاء أول ليلة مع عرائس أتباعهم ، ومن يريدون من خدمهم ؛ وكانت سوزان من الجمال بحيث أغرت الكونت باستعمال هذا الحق . وجن جنون فيجارو ، فلاقى وقاحة الكونت بوقاحة ، وثار كل ما في نفسه من حرارة ، وأحس بالطعنة توجه إلى صميم قلبه وقد اكتملت قواه بمرور الأيام ، فماله لا يستخدم السخرية التي لم تحن يوماً ما ؟ وتحركت بنفس زوجة الكونت تلك القوة الهائلة ، قوة الغيرة التي تكسب النساء جرأة ما لها من دافع ؛ واتفقت الزوجة مع خادمتها على أن تنسكرا ، كل في زى الأخرى ، وأن تذهب الزوجة في زى سوزان للقاء الكونت في المكان والزمن المتفق عليهما ؛ وفيجارو في أثناء ذلك لا يني عن السخرية والضحك وتديير الخطط ، حتى يوقظ شكوك الكونت .

الكونت - لماذا يلوح على كل ما تفعل شيء من الالتواء ؟

فيجارو - لأن من يلتمس عيوباً عند الغير يستطيع دائماً أن يجد ما يريد .

الكونت - وسمعتك التي لا تساوى شيئاً ؟

فيجارو - ولكنى أساوى أكثر من سمعتى ؟ وهل يعرف مولاي كثيرين من

الأشراف ممن يستطيعون أن يدعوا ما أدعى الآن ؟

الكونت - كثيراً ما رأيتك تسير نحو النجاح في الحياة ، ولكنك لا تسير أبداً في

طريق مستقيم !

فيجارو - وما ذنبى ، والطرق دائماً مكتظة ؟ ! هذا يعدو ، وذلك يدفع ، يسقط من

يسقط ويصل من يصل ، إننى لفى غنى عن هذا الزحام .

الكونت - بشيء من الذكاء والخلق تستطيع أن « تترقى في الدواوين » .

فيجارو - شيء من الذكاء لأترقى ؟ لا شك يا مولاي أنك تسخر بكلامك هذا من

ذكائى . إنما الترقى بالغباوة والزحف .

وهكذا يظل فيجارو يحاور الكونت ويداوره ، كإبحاور ويداور كل من يلقي حتى يكون

يوم زواجه ، ويخيل إليه وقتاً ما أن عروسه قد ذهبت للقاء الكونت ، فتختفى الابتسامة

من شفثيه ويتقطب جبينه ، وقلوب الحاضرين تحوطه جميعاً بحرارتها وعطفها .

ها نحن تحت أشجار القسطل فى ظلام الليل ؛ وها هو فيجارو وحيداً مجهداً ، يقص

علينا آلامه ويشكو ظلم الحياة بعد أن نفذ صبره ، وأصابت السهام شغاف قلبه ؛ ها هو فيجارو

يصيح غيرة على عروسه التى يحب .

« لا . لا ياسيدى الكونت ، ألا أنك سيد كبير تحسب أنك عبقرية فذة ؟ المولد والثراء

والوجاهة الاجتماعية - كل هذا يغرى بالكبرياء . ولكن ماذا فعلت لتنال كل تلك

الخيرات ؟ لقد قاسيت آلام الولادة . أليس ذلك كل ما فعلت ؟ وأما أنا فياوبل القضاء فيما

فعل بى ! ولدت لأب لا أعرفه ، واختطفنى لصوص نشأت على ما ألفوا من خلق حتى سئمت

الحياة معهم ، وحاولت أن أجدرى مهنة شريفة ، وطرقت كل باب وكل الأبواب موصدة

أمامى . لم يستطع الناس احتقار الذكاء ، فانتقموا لعجزهم بالإساءة إلى من وهب ذلك

الذكاء وزج بى فى السجن حتى ملوا إطعام رجل مغمور مثلى ، فألقوا بى

إلى الشارع ، وكاد اليأس يأتى على . ثم وجدت مركزاً خالياً ، كان المطلوب كاتب حسابات

فتقدمت إليه ، ولكنهم أعطوه لرقاص . فلم يبق لى إلا أن أسرق ، ولكن كيف السبيل

وكل من حولى يسرق ما استطاع ؟ ولكنهم يطلبون لى أن أكون أميناً ، وإذاً فليس لى أن

أموت جوعاً وأخيراً أخذت حقيقتي ومواسي ، وخلفت الدخان ورأى يتغذى به الحق ، وأما الخجل فقد طرحته في منتصف الطريق ، لأنه أثقل من أن يحمله من يمشى على قدميه ، وسرت أحلق من بلد إلى بلد ، وقد استطعت أخيراً أن أتخلص من هموم الحياة المادية . لقد دفعت إلى الحياة بغير علم مني ، وسأغادرها دون أن أريد ، ولكنني نثرت على جوانب ما سلكت من سبلها الوعرة كل ما استطاع مرحى من أزهار .

وحزن الحاضرون لحزن فيجارو ، ولكن الموقف لا يلبث أن ينجلي ، فإذا زوجة الكونت هي التي ذهبت للقاء زوجها . وأما سوزان عروس فيجارو فتخف إلى زوجها ، والكل مغتبط بانتقام ذكاء فيجارو من وقاحة الكونت .

وتصفو النفوس ، ويظل فيجارو في خدمة الكونت هو وسوزان ، وتتقدم بفيجارو السن ، ويخلص لعائلة سيده في « الأم الجانية » وينجى تلك العائلة من العار ؟ ولكنه لم يعد فيجارو كما عهدناه ، لم يعد رمز ذلك الشعب الأبى الذي ثار على ظلم وأبى أن يستسلم لوقاحة أولئك الأشراف المجرمين ؛ لم يعد ذلك الشجاع الساخر الذي يجالد الألم ويصمد لكل بؤس ؛ لم يعد ندّ مونتسكيو وروسو وديدرو وفولتير وغيرهم ، ممن قوضوا بالسخرية اللاذعة نظاماً كان لا بد من زواله ، ليستطيع من وهبهم الله حرارة في قلوبهم ، وذكاء في رؤوسهم من أبناء الشعب ، أن يعيشوا في جو حر أبى لا تستقيم الحياة بدونه .

ولهذا تقف من تصوير فيجارو عند هذا الحد لنتركه في ذهن القارئ مثلاً حياً لمبلغ ما يستطيع أن يسمو إليه الفرد من عزة نفس مهما اتضعت به حماقات الهيئة الاجتماعية الفاسدة التي حكم القضاء أن يعيش فيها .

فيجارو أنموذج بشري خالده لأبناء الشعب الذين لا يطاق من كبريائهم ظلم ولا يعوزهم سلاح ؛ فإن لم يكن العنف فلتكن السخرية .

فيجارو رمز ثورة مجيدة ، حررت البشر من قيوده ، وفتحت أمامهم آفاقاً من الحرية واحترام الإنسان لأخيه الإنسان ، لا تزال إلى اليوم نلمح في جوانبها أجمل الأحلام .

لقد فعل فيجارو في الثورة الفرنسية ما لم يفعله الحديد والنار ، وتلك أسلحة الأيدي أما فيجارو فكان ولا يزال سلاح النفوس .

فيجارو روح خالدة لأنها كقوى الطبيعة التي لا تدفع . فيجارو من روح الله لأنه رمز الشعب ، ذلك الشعب الخامل الذكر المهضوم الحق ، ذلك الشعب الذي لا يريد أن يستجدي أحداً ، وإنما يطالب بحقوق لا بد أن ينالها يوماً ما ، ذلك الشعب الذي يشكو من نظام فاسد لا بد أن يقيم على أنقاضه نظاماً أصح .

دون كيشوت

Don Quichote

يحكى أنه كان بيلاد اليونان عملاق جبار اسمه « أنتيه » لم يستطع بطل من الأبطال أن يثبت له في نزال ، حتى ضجت الإنسانية من بطشه ، وحتى ضرع البطل المشهور هرقل إلى أبيه زيس كبير الآلهة أن يدلّه على وسيلة يقهر بها ذلك المارد الخفيف ؛ واستجاب زيس لضراعة ولده ، فكشف له عن مصدر قوة « أنتيه » ؛ قال : « أى ولدى هرقل ! إن أنتيه ابن لجيه (الأرض) ، فما دامت قدماء مستوثقتين منها ، فلن يقهره أحد ، لأنها تمدّه بقوتها ؛ فما عليك إن أردت قتله إلا أن ترفعه عن الأرض ثم تجهز عليه » . ورفع هرقل « أنتيه » بيد ، وطاح برأسه باليد الأخرى ، فتخلصت الإنسانية من شروره . وهكذا نحن في الحياة ، لا بد لمن يريد أن يظفر منها بما يسميه جمهرة البشر نجاحاً وقوة أن يستوثق من الأرض بقدم ، وأن يلبس الواقع عن قرب . وأما المثاليون الذين يرفضون أن تدنس الأرض أقدامهم ، فمثلهم لنكد الطالع كمثل أنتيه وقد رفع إلى الفضاء ، ما تلبث السيوف أن تذهب برؤوسهم .

عن مغزى تلك الأسطورة القاسية تمخضت حياة سرفنتيس الكاتب الأسباني الذائع الصيت ، خالق دون كيشوت (١٥٤٦ - ١٦١٦) . فقد امتلأ خياله منذ طفولته ، كما امتلأ خيال دون كيشوت بكل ما قرأ في قصص الفروسية ، حتى لم تعد أحلامه إلا سحراً ومعارك ، وتحدياً وقتالاً ، وجروحاً وصيحات غرام وعذاب ، وما إلى ذلك من خوارق الأمور ، وتمكنت تلك الأحلام من نفسه حتى نزلت منها منزلة الحقائق الثابتة ، وحتى لم يعد تاريخ العالم في نظره سوى سلسلة من تلك المغامرات . ولكم قعقت أسلحة « رولان » بمفاوز الجبال ، ولكم نشرت قلاع « بربروس » الرعب على صفحات المياه ! فما له لا يغامر كما غامروا ، وما له لا يلتمس المجد بحد السيف كما التمس من قبل أبطال ؟

وشاءت الأقدار أن يفشل سرفنتيس في كل مراحل حياته ؛ حارب في البر والبحر من أجل أسبانيا ومن أجل المسيحية . حارب بإيطاليا وتونس والبرتغال . وفي سنة ١٥٧١ شهد تلك المعركة الدامية التي شنها المسيحيون ضد الأتراك في « لپانت » بمضيق كورنثا بأرض اليونان ، وخرج من القتال وبصدره طعنتان دامتان ، وذراعه اليسرى مشدودة إلى عنقه ؛ وأقعده

الحمى سبعة أشهر بصقليا ، حتى إذا أبل من مرضه ، واستقل سفينة ليعود إلى وطنه ، سقط بين أيدي قراصنة البحر يقودونه إلى الجزائر حيث يظل أسيراً أربعة أعوام . وأخيراً ساقته إليه الأقدار من بنى وطنه من افتداه بثمن غال . وعاد إلى أسبانيا ، ولكن البؤس لم يفارقه . فكم من محاكمة ! وكم من أيام قضاها بالسجن لذنوبه ولغير ذنب ! وحتى مجد القلم لم يستطع أن يناله ، فرواياته التمثيلية لم تصب ما أمل من نجاح ، وشعره الغنائى لم يلقى آذاناً مصغية . لقد كان من حق سرفنتيس أن يتنكر للحياة ، وأن يعود من أحلام صباه ليستوثق من الأرض بقدم ، وقد ألفت محن الأيام في نفسه بذور الشك ، فاستحالت آلامه سخرية من آماله التي طوحت به في كل مذهب ، ولكنها سخرية لا تزال تحمل ما كان بتلك الآمال من عذوبة . ومن منا لا يحس في نفسه بتلك الحقيقة الإنسانية اللاذعة ، وهي أننا مهما تنكرنا لأحلام شبابتنا ، ومهما سخرنا مما كان فيها من طيش ، لا نملك إلا أن نحنو عليها ، ونرفق بها ، كما نحنو ونرفق ببعض نفوسنا .

دون كيشوت رمز لأحلام الشباب ، وأى سحر أفعل في النفس من تلك الأحلام ؟ لقد تذهب أحداث الحياة بتلك الآمال العذاب التي يقوم عليها صباها كما كانت تقوم العذارى على النيران المقدسة بمعابد الآلهة يمسكن ضرامها عن أن يخمد . ولقد تنقطع أوتار القيثارة ، فلا تعود تملأ نفوسنا بنغماتها الساحرة ، ولكن النار لا بد مخلقة رماداً مقدساً ، ولا بد للأحلام من رجوع في النفس نحن إليه كلما عادت بها الذكري من ثنايا الماضي الجميل .

وهل أدل على نبيل أحلام الشباب وسحر جمالها من أن تتحطم في نفس صاحبها فيسخر منها ، وإذا بتلك السخرية الرفيعة الحزينة تأتي بأروع تحقيق لتلك الأحلام ؟ لقد كان سرفنتيس يعني المجد بمجد السيف أو بسنان القلم ، فخافته الأقدار ، وخيل إليه أن تلك الآمال لم تكن إلا نزقاً مضحكاً ، فاتخذ من دون كيشوت رمزاً لشبابه ، وقص ما كان له من مغامرات جنونية ، فأصاب دون كيشوت الخلود ، وأصبح اسم سرفنتيس على ألسنة الإنسانية أننى ذهبت : يقرأه الأطفال فيلهون بما فيه من قصص ممتع ، ويقرأه الرجال فتفتت شفاههم وتنقبض قلوبهم لما خلف هذا العبث الظاهر من مأس ؛ وحتى الشيوخ تراهم يجمعون الأطفال من حولهم ليقصوا عليهم نبأ ذلك الفارس الجوال الذي لن يفرغ البشر من فهمه وتخريج أفعاله وأقواله كل مخرج . وقد بلغ من غنى تلك الشخصية أن أصبح دون كيشوت رمزاً لكل معنى : فمن قائل إن هو إلا مجنون يخيل إليه خيله أنه موكل بآثام البشر يحاول لها إصلاحاً ، فتردد إليه ضرباته إن لم يضرب في غير مضرب . ومن قائل إن هو إلا مثالى عنيد

لا يزال يصطدم بحقائق الحياة المرة حتى يسلمه الفشل إلى الفناء . وأما أولئك الذين يستطيعون فهمه على وجهه فهم الشباب الذين يحسون بفيض من الحياة أنه ليس من الضروري أن ننجح لنجاهد في سبيل مثل أعلى نؤمن به ونفنى دونه ، لأن الجهاد غاية نبيلة لذاتها ، ومتى احتاج النبل إلى ما يعززه من نتائج ؟ وأما سرفنتيس فيكفيه مجداً ألا يرى اليوم طفل أو شاب أو شيخ حصاناً هزيلة محطاً إلا صاح : آه ! روسنانت . وروسنانت حصان دون كيشوت الذى رفعه بطلنا من مرتبة خيل الفلاحة إلى درجة جياذ الفرسان عندما انعقد عزمه — أو جنونه إن أردت — على أن يجوب بقاع الأرض ليصلح مابها من شرور .

وذلك أن دون كيشوت لم يكن في بادىء حياته ذلك الفارس الجوال الذى خلفه سرفنتيس في عقولنا . لقد نشأ دون كيشوت كما نشأ سرفنتيس بمقاطعة المانش بأسبانيا . نشأ فلاحاً متواضعاً إلى أن حفزه قراءة قصص الفروسية إلى أن يحى عهد هؤلاء الأبطال . ولقد كانت للفروسية إذ ذاك مواضعها ، فلا بد للفارس من أسلحة ، ولا بد له من جواد كريم ، حتى إذا اجتمع له طلب إلى أحد الفرسان القدماء أن يقيمه فارساً في حفل سنقص مراحلهم عما قريب . والفارس لا يحيا لنفسه ، ولا يجد ما يحفزه إلى البطولة خيراً من فتاة يجعلها مستقر حماسه ومعبد أفكاره ؛ فكيف السبيل إلى كل ذلك ؟ الأمر هين : بحث دون كيشوت في زوايا منزله المتواضع ، فعثر لحسن الطالع على أسلحة قديمة بمخزن غلاله ، فاستلها منه ، وأصلح مابها من عيوب ، وأزال ما علاها من صدا . وأما الجواد فأمره أهون ؛ وقد بلغت حكمة هذا الفارس المجنون أن فطنت إلى أن حقيقة الأشياء كثيراً ما تقف عند مسمياتها ، وإذا فليعط حصانه الهزيل اسماً جميلاً نبيلاً ، فإذا به « روسنانت » الجواد الكريم ، وأى جواد حمل اسماً أجمل من هذا ، روسنانت ؟ وهب أن الاسم لا يلاقى المسمى ، فما على دون كيشوت من ذلك ! وأغلب قيم الحياة مواضع لا تفهم من حقائقها شيئاً ! وأما الفتاة وما يجب أن يتوفر لها من نبل في المحتد وسحر في الجمال فالأمر عنده لا يعدو مجرد إيمان من يحب بما تخيل إليه نفسه العطوف من قيم بحبوبته ، وإذا فليتخذ دون كيشوت له فتاة رقيقة ساذجة لم يرها في حياته قط ، وليعطها اسماً من أسماء الأميرات ، وليشد بجملها ونبلها أينما حل . لتكن فتاته « دولسينيه دى توپوزو » ، ولاح له أن في هذا الاسم من جمال الجرس وندرة الوقع وجلال المعنى ما يتفق مع اسمه هو « دون كيشوت فارس المانش » .

ها هو دون كيشوت مسلحاً على ظهر روسنانت جواده الكريم ، وها هو يستأنف شوطه في الحياة ، ولتكن أولى مغامراته حفل تنصيبه فارساً . سار في يومه الأول حتى انتهى

إلى فندق بالريف ، خيل إليه أنه قصر منيف ؛ فأتجه إلى صاحبه ، وأخذ يخاطبه كشریف يخاطب شريفاً ؛ وكان صاحب الفندق من الخبث — رغم بلادة حسه — بحيث قبل منه أن يقيمه فارساً ، وأدخله إلى فناء فندقه ، حيث مضى المسكين دون كيشوت ليله قائماً إلى جوار أسلحته التي عقدها في حزمة إلى حافة برّ هنالك . حتى إذا أتى الصباح أتاه صاحب الفندق ، ويده « دفتر حساباته » ، وتظاهر بأن يقرأ فيه صيغة الفروسية ، ثم ضربه بمسطح سيفه ، وصاح به أن اذهب فأنت فارس .

خرج دون كيشوت من الفندق فارساً أصيلاً ، وبقلبه إيمان ثابت بما خلقته من أجله الأقدار ، وهو إصلاح ما في العالم من شرور ، ولم يكد يخطو عدة خطوات حتى رأى فلاحاً قد شد خادمه إلى جذع شجرة ، وأخذ يوجعه ضرباً لأنه طالب بأجره . أثار هذا المنظر شهامة دون كيشوت ، فخف إلى الرجل وأرغمه على أن يفك وثاق الخادم ، وأخذ عليه عهداً ألا يعود إلى ما ارتكب من ظلم . ولكنه لم يكد يمتطى « روسنانت » ، ويواصل سيره حتى عاد الفلاح فشد وثاق الخادم وعاد الظلم إلى مجراه . وهذا مثل مما أوهم به دون كيشوت نفسه من إمكان رفع الظلم عن المظلومين .

وباليت الأمر قد وقف عند هذا الحد ، ولم يمتد الأذى إلى شخص دون كيشوت نفسه ؛ فلكم جرت عليه أحلامه شراً مستطيراً . لقد كان من واجبه — على الأقل في نظره هو — أن يدافع عن فتاته ، وأن يحمل كل من يلقى من فرسان على الإقرار بأنها أجمل وأنبل من تقل الأرض ، وإلا فكيف يقبل أن يكون في الوجود فتاة خيراً من فتاته ؟ وفعل لم يلبث أن لقي جماعة من التجار في طريقه ومن خلفهم خدمهم ، فحسبهم لجنونه فرساناً جوالين مثله ، فاستوقفهم ، وتحداهم أن يدلوه على فتاة أجمل من « دولسينيه » . فقال أحدهم : « أيها الفارس الكريم ! لسنا نعرف دولسينيه فتاتك تلك ، أرنا إياها فإن وجدناها على ما تزعم من جمال حكمنا لك بما تريد » . فأجاب دون كيشوت : « وأى فضل يكون لكم ، وكل ما ستفعلونه عندئذ سيكون الاعتراف بالحقيقة الراهنة ؟ إنما المهم هو أن تشهدوا بهذه الحقيقة دون رؤيتها وأن تعلنوا تلك الحقيقة ، وأن تقسموا بإيمانكم بها ، وأن تدافعوا عنها ضد كل إنسان » . هكذا أراد دون كيشوت ، ولكنه لم يستطع حمل هؤلاء الرجال على ما أراد ؛ فهجم عليهم « بروسنانت » ، وزلت قدم الجواد فسقط الفارس على الأرض ، وأشبعه أحد الخدم ضرباً ، وبقي دون كيشوت على الأرض متعثراً بأسلحته لا يقوى على النهوض ، حتى خف إليه أحد

الفلاحين من معارفه ، فأنهضه وقاده في حالة يرثى لها إلى منزله ، حيث لزم الفراش أياماً يداوى جراحه .

رأته مريته و بنت أخته وأصدقائه القسيس والحلاق على هذه الحالة ، فقرروا لساعتهم أنه لابد من إحراق قصص الفروسية الموجودة بمكتبة دون كيشوت ، لأنها هي التي أضلت عقله وأصابته بهذا المرض العضال ، وهم يظنون أنهم بعملهم هذا سيشفون دون كيشوت من هذا الداء شفاءً لا نكسة بعده ؛ ولكن أنى لهم بأن يلزموا هذا الفارس الجامح حياة مغلقة الآفاق مبتذلة الأحداث ؟ لا . لابد لدون كيشوت من الرحيل من جديد ؛ ولكنه سيحتاج للأمر هذه المرة فيأخذ معه مالاً وتابعاً يسير وراءه أينما يذهب . واختار دون كيشوت تابعاً له فلاحاً من جيرانه لا يقل عن البطل شهرة . ومن يجهل « سانكو پانشا » ؟ وقبل سانكو أن يصاحب فارسنا لصداقته له ولأنه كان رجلاً طامعة بطبعه ، ثم لأن دون كيشوت وعده بأن يعطيه جزيرة ليحكمها بمجرد أن يكون البطل الأمبراطورية التي يأمل أن يخضعها لسلطانته . واستأنف دون كيشوت السير ومن خلفه سانكو ، وبين الرجلين من التناقض ما بين الجنون والعقل في عرفنا . فعند ما يفرق دون كيشوت في أحلامه ، نرى سانكو يملأ بطنه أو يربط حلقه . وبينما يسهر دون كيشوت الليل الطويل يناجي دولسينيه ، نسمع سانكو يغط ما استطاع غطيماً ؛ ولكنه لا يخلو الأمر ، إذا ما سقط دون كيشوت عن ظهر روسنانت وأشبع ضرباً ، من أن تصيب سانكو بعض لكزات ، إذ أن محاولاته الفرار لم تكن دائماً منتجة ، فكثيراً ما كان يلحق به ، وربما تخلف عن سيده قليلاً فسقط بين أيدي من لا يرحم له موجهة .

ولكم كان بودى لو استطعت أن أقص على القارى شيئاً من حوارهما ، ليستبين موضع الحكمة من كلام هذا المجنون ، وموضع الجنون من كلام هذا العاقل ، أو العكس ؛ ولكن أنى لي بذلك ؟ وأى جدوى من سرد ما س تضحك منها الشفاء وفي القلوب أسى عميق ؟ ثم من منا لا يذكر طواحين الهواء التي حسبها دون كيشوت عماليق فانقض عليها بجواده فألقته أذرعهها إلى الأرض محطم الأضلاع . ألا يرى مى القارى كيف بلغ من بؤس هذه النفس الخيرة أن أخذت تضرب في غير مضرب ؟ وكـم يكون أسف القارى لو أخبرته أنه اتفق يوماً لدون كيشوت أن قاتل دون مسجونين حتى أطلق أيديهم من الأغلال ، ثم طلب إليهم أن يذهبوا — اعترافاً بفضله — إلى « دولسينيه » ليقدموا إليها « واجبات الاحترام » ، فرفضوا ، بل وضربوا دون كيشوت ضرباً مبرحاً .

حدث كل هذا لدون كيشوت وأمر منه ؛ فكم عجز عن رفع ظلم لفساد نفوس البشر وكم لاقى عن شهامته أسوأ الجزاء ، بل كم أضل القضاء ضرباته فضاعت عبثا — حدث كل هذا مما لا أريد أن أحزن به القارئ ؟ ولكنى لا أملك أن أمسك القلم عن ذكر ما كان من نزول دون كيشوت وسانكو بأحد الأشراف الحقيقيين ، وكيف أن هذا الشريف أعطى سانكو بالفعل ضيعة من ضياعه ليحكمها موها إياه أنها الجزيرة التى وعده بها سيده ؛ وبودى لو أمعن القارئ فى النصائح الثمينة التى زود بها دون كيشوت إذ ذاك سانكو ، فقد أوصاه قائلا :

« أى بنى ! أوصيك بتقوى الله ، فتقواه رأس الحكمة ، وما دمت حكيما يصحبك التوفيق فى كل أمر . ثم اذكر دائما نشأتك الأولى لى تفهم نفسك على حقيقتها ، وهذا الفهم هو أشق وأنبى ما يجب أن تتطلع إليه . احذر نزوات نفسك ، ولتحرك فيك دموع الضعفاء رحمة لا تقل عما تحرك شكوى الأقوياء من عدل . حاول أن تعثر على الحقيقة فى ثنايا ما يعذك به الأغنياء من وعود وما يقدمون لك من عطايا ، قدر حرصك على التماسها فى زفرات الفقراء وإلحاحهم الممل .

« اذكر دائما أن طبيعة البشر فاسدة ، وأن الكثير من آثامهم إنما مرده هذا الفساد الأصيل ، فعندئذ لن تقسو على مجرم . »

ياله من جنون ذلك العقل الذى يفوه بتلك الحكم !

وأما « سانكو » فلم يطل حكمه . وكيف له — وهو الرجل الواقعى العاقل — أن يزعج بنفسه فيما لم تهيبه له الأقدار ؟ لطالما طلب إلى دون كيشوت أن يحد من طموحه ، وأن يتخلى عن أوهامه ؛ فكيف له الآن أن يقيم نفسه — وهو الفلاح البسيط — حاكما على العباد ؟ أليس من الخير أن يقنع بما خلق له . أليس من العقل أن يتخلى عن جزيرته الموهومة ليعود إلى جوار سيده ؟ أليس سانكو على النقيض من دون كيشوت ؟ أليس هو العقل نفسه إن صح أن دون كيشوت هو الجنون المطبق ؟ وبالفعل تخلى سانكو عن جزيرته الموهومة ليعود إلى مصاحبة دون كيشوت . ومن عجب أن يحرص العقل على مصاحبة الجنون كل هذا الحرص !

واستمر دون كيشوت فى مغامراته ، وكل فشل يغريه بمغامرة جديدة ، وعزمه ثابت لا ينال منه شيء ، حتى كان يوم انهزم فيه بمركة دارت بينه وبين فارس آخر ، وعز عليه أن ينهزم كرجل ضد رجل ، ونالت الأحزان من نفسه فخر مريضاً ، ولازمته الحمى عاما

كاملاً ، خرج منه وقد عاد إليه عقله . وبودنا لو امتدت به الحياة ليقص علينا ما هداه إليه جنونه من دروس . ولكن الموت لم يلبث أن واثاه ، وكأنه قد ناء بحمل عقله ، أو كأنه من أولئك الذين يصدق عليهم قول الشاعر الفارسي : « نحن أمواج إن تسترح تمت » .

مات دون كيشوت بعد كفاح تعزى بنبل غايته عن كل المآسى ، وكأنى به لم يستطع عزاء عن تلك الأحلام الجميلة التي تهدمت تهدمها حياته . مات فتلقى الموت كما يتلقى محب ابتسام حبيبته أو شهيدٌ وجه ربه . مات بعد أن علم أن القتال خير البشر قتال مع طواحين هواء . مات بعد أن فشلت جهوده ، ولم تعد لديه القدرة على استئناف حياة بليدة راتبة كالتى يحياها ملايين البشر من الخاملين .

مات هذا المجنون . ولعله « كالسست » موليير و « مغفل » دوستيوفسكى من أولئك الذين لانضحك منهم ولا ترميهم بالجنون إلا لقصور فى عقولنا وفساد فى طبائعنا . وهذا العالم الجميل الذى صبت إليه تلك النفوس النادرة ، لعله العالم الحقيقى ، العالم الذى يجب أن يحيا فيه البشر إن أرادوا رفع قلوبهم إلى المثل الأعلى .

مات دون كيشوت فى كتاب سرفنتيس ، ولكنه بقى فى عقول جميع الأجيال التى عبرت الحياة ، أو التى ستعبرها ، رمزاً لما فى نفوس الشباب الخيرة من التماس الخير والفناء فى سبيله ، رمزاً لما قد تقود حماسة القلوب إليه ، مما يسميه الحقى جنوناً . مات وظلت حياته درساً خالداً لما فى الجهاد فى سبيل المثل الأعلى من نبل يُكتفى به عن كل النتائج .

فوست

Faust

(١)

« تسألوننى : أى فكرة أردت أن ألبسها فوست ؛ وكيف لى أن أعرفها ثم أنسى لى
بالعبارة عنها ؟ قد تكون جولة بين الأرض والسماء . هى خطوات أكثر منها فكرة ، وإن
يكن فى فقدان إبليس لرهانه ونجاة ذلك الرجل الذى مازال وهو فى حمأة الرذائل يهفو إلى
الخير حتى نجت روحه من الهلاك ما ينير الكثير من وقائع حياته ؛ ولكن هذه ليست
الفكرة التى تستقر فى قلب القصيدة ، بل ولا فى أى جزء من أجزائها تأخذه على انفراد .
أى نجاح كنت أصيب لو أننى حاولت أن تنتظم تلك الحياة الفنية النزعات المتنوعة الأحداث
فكرة واحدة كما يجتمع العقد إلى نظامه ! ولكنه ليس لى كشاعر أن أجسم فكرة مجردة .
لقد أودعت نفسى كل ما تلقيت من إحساسات ، إحساسات عديدة حية متنوعة ، واثانى بها
خيال دائم اليقظة ، فتناولتها كشاعر بالصياغة والصقل ؛ ثم أسلمتها القارئ صوراً نابضة
الألوان أرجو أن تثير فيه مثل ما أحسست » .

هكذا يحدث جيته صديقه إيكerman عن فوست ؛ وعلى ضوء هذا الحديث نستطيع أن
نفذ بعض الشيء إلى أسرار تلك الشخصية العجيبة التى رافقت جيته خمسين عاماً من حياته ،
يصور بعض نواحيها حيناً ، ثم يتركها ليعاودها بعد زمن ، وهو فى كل يوم يفيد جديداً
يضيفه على رجليه الذى اتخذ منه رمزاً لمأساة النفس البشرية ؛ تجاليد الحياة لتنتزع منها سرها
الكامن ، فتطمئن إلى يقين وتفلت من حيرة أبدية .

على أن جيته لم يخلق فوست من العدم ، فقد ألفت القرون الوسطى تلك الشخصية :
شخصية الرجل يهب إبليس روحه على أن يكشف له عما يجهل من سر وأن يمكنه مما تصبو
إليه نفسه من لذة ، فينال من الحياة ما يعز على عامة الناس ؛ ولكم آمن رجال ذلك العهد
بالسحرة وعصيمهم وحيلهم مما تغص به آدابهم ؛ بل لقد عاش بالفعل فى القرن السادس عشر
« دكتور » اسمه « فوست » اجتمعت إليه كل خصائص السحرة التى تحدثنا عنها آداب
القرون الوسطى . ونحن بعد لا ندرى أكان هذا الرجل نصاباً أم كان ممن يصدر عن

فيض إلهي ؛ ولكننا نعلم أنه أنفق عمره ضارباً في بقاع الأرض يحتمل على الحياة بخداع سذج العقول ؛ ولكم سما صيته بين طلبة الجامعات بألمانيا ، ولم لا ؟ ألم يكن مثلهم ضليعاً في الآداب اليونانية واللاتينية القديمة ؟ ثم ألم يبلغ من مهارته يوماً أن بعث من قبرها أمام أبصارهم الذاهلة تلك الحسناء الفتاة « هيلانه » التي جعل هوميروس من سحر جمالها سبيلاً لحرب ضروس بين الشرق والغرب ؟ لقد كان دكتورنا بلا ريب على صلة وثيقة بإبليس — بهذا ذهبت الأسطورة وهو حي ، فما بالك بعد موته ! . تناولها خيال الشعب بالتنمية حتى كان مسيحي متدين لعله قسيس ، اتخذ من تلك الحياة العجيبة موضعاً للعبرة وعرضها في كتاب — (كتاب الشعب) — يصور فيه فوست رجلاً حبه الطبيعة بمواهب فذة ، ولم تستطع المسيحية التي نشأ بين أحضانها أن تمسكه عن الغرور ، فهو في الخطيئة . تطاولت نفسه إلى معرفة كل سر ، والمتع بكل لذة ؛ ولم يجد سبيلاً إلى تحقيق هذا الحلم غير الاتفاق مع الشيطان على أن يهبه روحه عند الموت ، وعلى الشيطان أن يرسل إليه أحد رجاله (إبليس) يقوده خلال ما يبني من لذة محرمة أو معرفة منعت عنا — نعم إن الدكتور لم يفقد إيمانه ، وكانت نفسه لا تزال تحن إلى رحمة الله . ولكم مناء ذلك الإيمان أن يخادع يوماً إبليس فيفلت من قبضته ، وقد فاز منه بما يريد . ولكنه لم يستطع ، فقد نصب له إبليس من أشراك الرذيلة ما تعثرت به خطاه وعز معه الخلاص .

وتناول الكتاب تلك الحياة دون أن يغير أحد من أفكارها كما صاغها « كتاب الشعب » ، ومثلت تلك الحياة على مسارح العرائس ، حيث كان الممثلون شخوصاً من الخشب على نحو ما نرى في « الأرجوز » ، حتى جاء الكاتب الإنجليزي الممتاز « مارلو » Marlowe « معاصر شكسبير ونده الفذ ، فجعل من فوست ثائراً على ربه ، ثائراً على قضائه ، ثائراً يكسب عطف من يستمع إليه ، وحسب الناس أن مارلو قد خلع على فوست وجوداً لن يفلت منه أبد الدهر . وما علموا أن جيته سيتناول هذا الشبح فينفخ فيه روحاً جديدة ، روحاً تجعل من الشبح رمزاً لكل عبقرى يضيق بما في بطون الكتب من معرفة زائفة فتصبو نفسه إلى الحياة ، وإلى المعرفة المباشرة ، يستقيها من قلوب البشر ، أو من حفيف الأشجار ؛ وإن يكن في نزعتة هذه ما يباعد بينه وبين البشر ، فتثقله وحدة النفس ، ويقعد به ضعفنا البشري عما يريد فيتعاقد مع الشيطان كما تعاقد أسلافه . ولكنه اليوم لم يعد كما تصوره خيال الشعب : ذلك الرجل الذي يهوى مع إبليس إلى نار جهنم ، فقد جعل منه « لسنج » رمزاً للمعرفة السكاملة ؛ وقد ارتفع به جيته إلى سمو الرجل الممتاز الذي يسعى بكل قواه وراء المعرفة والحياة ، وقد

أخذ منه شاعرنا مستقراً تجتمع إليه مسرات البشر وأحزانهم .

وفي الحق أن فوست ليس نفساً مبتذلة ، وإلا لما كان موضع نزاع بين إبليس والله (تعالى عن ذلك) . وهل يقتتل أحد على توافه الناس أو الأشياء ؟ وفطن إبليس إلى أن نفس فوست بها من قوة الحياة ما يدفعها إلى التماس كل سر والتمتع بكل لذة ، فأحس فيه فريسة لشربه ، وود لو فاز به ؛ ولكن كيف السبيل والله مستقر بضمير فوست ؟ وهل النفوس الخيرة مهما أسفت إلا ملائكة هوت ، فما تزال تذكر السماء . ولكم تردت نفوس في الخطايا ثم أنار لها الندم سبيل الخلاص ! اللهم إن هذا حق آمن به فوست واطمأن إليه ، فتعاقد مع إبليس بمداد من دمه على أن يهبه روحه يذهب بها أينما شاء ، إن رضيت نفسه الرضاء كله بما يمكنه منه إبليس من لذات .

ها هو فوست في غرفة درسه يحاور نفسه الثائرة — أو ما يسميه الناس « دكتوراً » ؟ أو ليس يعلم أكثر مما يعلم الغير ؟ ولكنه قد انتهى إلى حدود المعرفة ؛ ونظر فوجد معرفته جوفاء لا تورث يقيناً ولا تجعله خيراً مما كان . ومتى كانت المعرفة متاعاً يسلمه شخص إلى شخص حتى نستطيع أن نلتمسها في بطون الكتب ؟ وكيف لروح قوية كروح فوست أن تنفي بين جدران حجرة ضيقة وهي أوسع من أن يحتويها عالم الأرض على رحبته ؟ وكيف لحواسه أن تهدأ وقد خلقت حادة قوية لا يشبعها غير الإحساس المباشر يرسله خلالها ندى الصباح وبريق نجوم الليل ؟ وهبه أصاب معرفة ما ، أليس في ملابساتها ما يذهب بما لها من سلطان مطلق ؟ وهبه خطا نحو ما نألف من سعادة خطوة ، أليس من خلف خطوته هذه هوة سحيقة يتردى فيها فيبتلع الزمن ما لم يكذب ينعم به ؟ وهبه أصاب لذة ما ، أليس من وراءها ندم لا ذع يذيقنا مر العذاب ؟ وإذا فليلتمس فوست من إبليس عوناً على أن يصل إلى معرفة أسرار الحياة والوجود معرفة مباشرة كلية مطلقة ، وأن يصيب من اللذات ما يترك في النفس رضى أبدياً ونشوة لا تزول . هذا ما ينبغي فوست ، ولكن ترى أيستطيع إبليس أن يقدم إلى فوست ما يريد ؟

إبليس هو روح الشك والنكران — روح هدامة — روح الشر ؛ فكيف له أن يهدي فوست إلى يقين أو أن يدلّه على لذة تدوم ولا تورث ندماً ؟ إبليس هو وحي غرائزنا الوضيعة ، يكمن في أنحاء نفوسنا المظلمة ينير ما استقر فيها من عناصر الشر ويلتمس لها أهدافاً يغرينا بها . ها هو يتقدم إلى فوست وقد ارتدى ثوباً أحمر يطرزه الذهب ، وفوق كتفيه معطف من الحرير الثقيل ، وبقبعته ريشة ديك ، وسيفه الحاد السنان معلق بخصرته ؛

وها هو ينصح إلى فوست أن يرتدى رداء كрдائه ، وأن يترك غرفته مخلياً بها تلك الوسائس التي أتلقت عليه أيامه ، ليدلف إلى الوجود ملتمساً أسرار الحياة .

« وأى ثوب يستطيع أن يغير من شعورى بضيق الحياة ، وقد جاوزت سن المرح دون أن أبلغ سن اليأس من اللذات ؟ وماذا يستطيع العالم أن يمنحني ، ودقات الزمن تصيح بأذاننا صيحات أبدية يح بها صوت الوجود في أغنية لا تنقطع أن « تنح ، نعم ، تنح » ؟ أستيقظ مع الصباح فتغلى نفسي غيظاً ، وألقى ضوء النهار بدموع مريرة لعلى أن أى نهار لن يحقق شيئاً مما أملت ، بل إنه لمفسد على ما أتوقع من سرور ، وفي ضوءه تتناولني الألسنة بالنقد اللاذع المرير ، قتل في نفسي كل ثوب للخلق بما تأتيني به من أحزان الحياة البغيضة . ثم إذا جن الليل ذهبت إلى فراشى وفي النفس لوعة مقضنة ؛ هنالك لا أنعم براحة ، وفي أضغاث الأحلام ما يملأني رعباً . ترى الإله الذى يسكن عقلى لا يمسك عن إثارة ما استقر بأعماق نفسي ، وقد بسط سلطانه على كل ما أملك من قوى ، بينما هو أعجز من أن يثير شيئاً من هذا العالم الخارجى ، شيئاً أشبع به ما يثير في نفسي ؛ ولهذا كانت الحياة عبئاً يثقلني ، وكان الموت أحب إلى نفسي من هذه الحياة البغيضة » .

ولكن إبليس لم ييأس من فوست ، لعلمه أنه بشر ينتابه اليأس والأمل طوراً بعد طور ، وهو بعد على ثقة من أنه يستطيع أن يغير من لون نفسه ما انتزع تلك النفس من وحدتها وصرفها عن التفكير في حقيقتها ؛ ولقد نجح إبليس فيما أراد ، وقبل فوست أن يصاحب إبليس « على أن يسلمه روحه إن استطاع أن يسلمه إبليس إلى الدعة يركن إليها ، فيطمئن ويرضى عن نفسه بما يخادعه به من لذات ويتملق عنده من غرائز » . وفي الحق إنه لاتفاق عجيب ما يزال الناس حتى اليوم يستوضحون معناه . ترى أموضع النزاع هو : إلى من ستصير روح فوست ؟ أ إلى خالقها تسمو إليه ما تعلقت بأشعة المثل العليا ، أم إلى جهنم يقوده إليها إبليس بخطا حثيثة ملتوية ؟ أم هو مصير الإنسانية قاطبة تتنازعها قوى الخير والشر ؟ أم هو لا هذا ولا ذاك ، بل نزاع بين ملكات النفس المختلفة — ملكات تسمو بنا إلى أعلى ، وأخرى تهبط بنا إلى أسفل . ومن يدرينا ؟ قد يكون الأمر مجرد جولة — كما يقول جيته نفسه — يحمل الشاعر فوست عليها بين الأرض والسماء ليرى ماذا تخلف خطاه من أثر ، وقد انعقد عزمه على أن يجوب خلال الطبيعة التي خلقنا بين أحضانها وفي حناياها كل سر دفين . « أأست ترى إلى الأشياء كيف تفكر خلالنا وكيف نفكر خلالها ، وإن تكن وحدة تفكيرها أدق من أن تكون قضايا وأكثر ما تكون نغماً أو لوناً » ، وقد انعقد عزمه

على أن يجوب خلال النفوس البشرية ؛ ولكم أودعها الله من سر لا تسلمه إلا لما يشابهها من نفوس ! ولكم تجرى أصدق الحقائق على ألسنة أبسط النفوس ! ولكم يفيض النبل من أشد القلوب سداجة ! ولسوف نرى كيف أن لذات الحياة المادية لم تورث فوست غير ندم سما بنفسه ؛ ولسوف نرى نشوة الخيال لا تدوم إلا إلى حين ، ثم تولى تاركة في النفس فراغا مؤلماً ؛ ولسوف نرى أن العمل نفسه قد تخدعنا ضوضاءه وإن لم يخلف أثراً يبقی ؛ ولسوف تنجلي مأساة فوست عن سبيل النجاة ، وما سبيلها إلا أن نحيا بقلوبنا ، وأن نضع لعقولنا حدوداً تلزمها دائرة لا تعدوها .

وما لنا نستوضح هذا السر ، وفي خطوات فوست وإبليس ما هو أوضح دلالة من كل تفكير ؟ أليس من الخير أن نصاحبهما لنرى ما هما منتهيان إليه ، ثم نحكم بعد ذلك على ما تعاقدنا عليه ؟

ها هو فوست وإبليس يسدان رحلتها الطويلة الشاقة بزيارة لحانة بليزج — هناك حاول إبليس أن يغري فوست بالتماس اللذات وسط جماعة الطلبة وهم يلهون في صخب وضيع ، وكؤوسهم بين أيديهم يعبونها عبا ، وحناجرهم تردد أقبح الغناء وأتفه : « نحن وحوش اللذة — نحن خنازير الوري » . وسمع فوست هذا القرار فصدمت نفسه ولم يجد ما يقول إلا رجاء إبليس أن ينصرف به عن هذا المكان ؛ وكيف لنفس حامية كنفس فوست أن تستريح للذات الحانات الحقيرة ؟

وحسب إبليس أن فوست لم يسترح إلى تلك اللذات لأنه قد جاوز السن التي كان يستطيع أن يلهو فيها مع الطلبة ، فقاده إلى ساحة أعطته شراباً يردّه إلى بدء الشباب ويوقظ في نفسه لذات الحواس ؛ ولأن صدمت نفسه عن لذات الشراب وصخب الشباب فليُعدّ له إبليس هذه المرة أشراكاً أحكم حلقات ، وليغره بما هو أعلق بكل نفس ، ليدفعه إلى الحب . وفيما هما في الطريق مرت بهما فتاة جميلة طاهرة النفس ، تطلعت إليها رغبة فوست الظمأى إلى الجمال ؛ واحتال إبليس حتى أوصله إليها ، وحسب أنه قد نجح في الهوى بنفس فوست إلى ما أراد من سقوط ، ولكنه لم يظن إلى أن جمال تلك الفتاة ونبل نفسها خليقان بأن يسموا بفوست عن كل إسفاف . ولم لا ، وقد خبر جيته نفسه تلك التجربة الرائعة عندما أحب — وهو في الرابعة عشرة من عمره بفرنكفورت — فتاة تشبه مرجريت هذه شبه قطرات الندى بعضها لبعض ؟ ودخل فوست إلى غرفة مرجريت ، وكان الوقت أصيل الغروب ، فارتفع قلبه إلى المثل الأعلى ، وانطلق لسانه بأجمل الشعر : « مرحباً بك

أيها الشفق العذب ! أيها الضياء البليل يرسل أشعته الذهبية تنير هذا المعبد المقدس !
وأنت أيها الغرام المبرح ! دونك قلبي أمسكه بعذابك العذب عن أن يأتي عليه الفناء وسط
ندى الآمال . ياله من هدوء وديع ! ياله من استقرار راتب ! ياله من رضى نفسى جميل ،
ذلك الذى يعمر تلك الدار ! أى غنى يملأ هذا الفقر البادى ؟ وأى سعادة تملأ هذا
السجن المظلم ؟ » .

ووجدت نفس فوست راحة من حيرتها الأبدية ، وأحست نفس فوست برضى
لم تستشعره أبد السنين ، وكاد رجلنا يفلت من أيدي إبليس ، وكاد رجلنا يطمئن إلى الحياة
مخلفاً وراءه عهداً مظالم لم يعرف فيه غير القلق وشقاء النفس . أليست مرجريت بطهارة
نفسها ، وجمال روحها ، وفتنة وجهها — خيراً من فوست بعلمه الذى أنزل بنفسه الخراب
وساقها إلى تطلع أبدى لن يلقى من وراءه خيراً ؟ ولكن إبليس له بالمرصاد ، ما يزال
يغريه بالشر حتى يقع ما لا بد منه . حملت مرجريت ، وسقت أمها السم على غير علم منها ،
وهى تحسب أنه منوم بسيط سيمكنها من أن تخلو بحبيبها كما أوهمها إبليس . وظهر حملها
وئارت ثائرة أخيها لهذا العار الأبدى ، فأغرى إبليس فوست بقتله فى نزال دبره ذلك
اللعين . ووضعت مرجريت حملها ، وضعت نفسها عن مجابهة الناس بعارها ، فألقت بولدها
إلى اليم . وحزن فوست حزناً عميقاً ، وقد أخذ الندم يحز فى نفسه حزاً ، وإبليس لا يمهله
لحظة ، دائب الوسوسة فى أذنيه . ولكم ضاقت بفوست الحياة ! ولكم ود لو يعينه
إبليس على أن يقوض ما بقى من أركانها ليفلت من هذا الشقاء المقيم : شقاء النفس الخيرة
تساق إلى الشر سوقاً فلا تعود منه إلا بأمر الآلام .

وألقى بمرجريت إلى ظلام السجن ، وئارت ثائرة فوست ، وود لو تسحق قدرة الله
إبليس اللعين . وحاول إبليس أن يمد من غواية فوست بمعسول القول فلم يستطع ، ولهذا
لم يبدأ من أن يأخذها إلى قمة جبل بروكن حيث تعقد الجن عيدها السنوى ، وهناك أغرى
به فتاة حسناء ، لعله ينسيه ألم الندم الذى أوشتك أن يطهر نفسه من كل شر ، ولعله يعود به
إلى السقوط ؛ ولكن هيهات ، فهى مرجريت تلوح وسط هذا الصخب فيما يشبه أحلام
اليقظة ، فيغادر فوست العيد عادياً ملء أرجله إلى حيث تقيم مرجريت وسط غياهب السجن .
وأرغم فوست إبليس على أن يقوده إلى حيث هى . ووصل فوست إلى مرجريت ، وحاول
عبثاً أن ينجو بها من السجن . ولكن إلى أين تذهب وقد أصبح العالم لها سجنًا أضيق من
سجنها ؟ لا ! لقد فات الوقت . وصاح إبليس مغتبطاً : لقد كتب لها الهلاك . وصاحت

أصوات من السماء : بل كتبت لها النجاة . وقاد إبليس فوست إلى خارج السجن ومن جوفه صوت يصيح متهافتاً : هنرى ! هنرى ! وخرج هنرى فوست إلى فضاء الأرض وقد ضاق به الفضاء بما رحب ، وأخذ منه الإعياء كل مأخذ ، فألقى بنفسه على حشائش الأرض ينتظر قضاء الله فيه . ترى ماذا ستفعل به رحمة الله ؟

أراد فوست أن يمس الحياة عن قرب ، فلم يجد في الحياة غير مرارة الندم . أراد فوست أن يلتمس من الطبيعة أمرارها ، فضاق به فضاء الأرض . ولكن أليست هناك رحمة الله تملأ الوجود ، وقد حلت بكل شيء ، ونفذت إلى كل نفس ؟ من يدرينا ؟ لعل الله غافر لهذا العبد النادم ما أتى من سيئات لم يقصد إليها ، ولعله ملهمه نسيان ما كان . ولئن كانت لذات الحياة المحسة لم تعقب خيراً ، فلعل في نشوة الخيال ما يغنى . ولئن ضاقت بفوست الأرض ، فهناك ما خلف الأرض ، هناك لا شك عوالم غير عالمنا . ليحاول فوست أن ينفذ إليها ، ولننظر ما هو مصيب منها . لقد عافت نفسه اللذات الحقيرة ، وشقيت نفسه بحب حسى . فليطلب إذلاً لذة المجد ، وليصرف قلبه إلى مثال الجمال يحبه بروحه . ليصرفه إلى هيلانة رمز الجمال ، وليسخر إبليس في بعثها إلى الحياة ، ولننظر بعد ذلك ما سوف يكون من أمره .

(٢)

تركنا فوست وقد جره إبليس إلى مغامرة غرام ، خرج منها ونفسه يحطمها الندم . ومن عجب أن تكون نجاته على يد ضحيته ! ومن عجب أن تلاقى نفس مرجريت السيئة بالحسنة ولكنها نفس خيرة — هى من معدن نفس فوست — نعم من معدنها ، وإن تكن تفضلها بما احتفظت به من سذاجة وطهر ؛ ولئن سقطت مرجريت فما كان ذلك لشر في طبعها ، ولا لإسفاف في غرائزها . وهل كانت مرجريت إلا زهرة تفتحت لندى الحب عن طيبة قلب ، وحسبته خيراً صراحاً ؟ وهل أدل على نبلها من أن تخف إلى فوست وهو بين الجن والسمرة ، وقد أوشك أن يهوى هوى لا نهوض بعده ، فتدعوه بحزنها البادى ونفسها الكسيرة إلى أن يخف إلى السجن يتلقى عنها قبل أن تحتضر درساً لن ينساه أبد السنين ؟ ماتت مرجريت وتركت فوست طريقاً على الحشائش بين أحضان الطبيعة التى طالما حن إليها ؛ ولكن أننى له أن بنعم من الطبيعة بجمال وقد تملكه الندم يهمس فى أذنيه : « إن من أتملكه لا يحس للعالم بوجود — تراكم من حوله الظلمات — للشمس أن تشرق أو أن

تغيب ، ولحواسه أن تظل يقظة مفتحة الأبواب ؛ وأما نفسه فهيها أن يتبدد منها ما يعلها من ظلام — تحوطه كنوز الأرض ، وهو عاجز عن أن يفيد منها شيئاً . تشقيه السعادة قدر ما يشقيه البؤس . يتصور جوعاً ومن حوله خيرات الأرض جميعاً ، يرجئ إلى غد كل لذة وكل ألم ؛ وأننى له أن ينعم بشيء وقد علقت حياته بانتظار المستقبل الذى لا يأتى ؟ إن هم بأمر لم يدر أيتابع السير فيه أم يعود أدراجه ، يخونه العزم وهو فى منتصف الطريق ، فيتردد ويتعثر فى خطاه ، تزل به القدم شيئاً فشيئاً ، وتختلط أمام بصره الأشياء ؛ هو حمل على نفسه وحمل على الآخرين — لاهو بالحى ولا هو بالميت ، وقد عز عليه حتى اليأس أو الاستسلام ، فهو دائم الحيرة ، مترامخ العزم ؛ ينتابه كسل مؤلم ونفور من كل نشاط ، نومه هياج ، وصحوه عذاب ، وقلبه نهب للرق والأسر ، وهو فى كل ذلك ملصق بالأرض ينتظر أن تنشق أفواه جهنم لتبتله .

ولكن أليس هذا الندم شفيعاً له لدى رحمة الله ؟ أليس دليلاً على أنه لا يزال هناك بريق من ضوء الله ينير حطام نفسه ؟ أليس دليلاً على أنه لا تزال هناك شرارة مقدسة تلمع وسط هذا الرماد الفانى ؟ نعم لقد فشلت حياته التى عاشها حتى اليوم ؛ ولكن ما أصاب من لذة أو شقاء لم يعدم أن يثير مكنون ضميره ، كما تثير الرياح المتضادة أمواج البحار ، وما دامت روح الشر لم تملك روحه ، فلا شك أن سبيل الخلاص لا يزال مفتوحاً أمامه .

وأنته أرواح الطبيعة ترنحه حتى نام ، ثم وسدته أكاليل الورود وحملته إلى نهر النسيان ، حيث عادت الحياة إلى جسمه المحطم ، ثم فتحت عينيه على ضوء النهار المقدس . ولكنه لم يكد يعود إلى الوجود حتى وجد إبليس أمامه . وهل روح أشد عناداً من روح الشر ؟ وهل إبليس من الغفلة بحيث لا يفتن إلى أن الفوز بنفس ممتازة كنفس فوست لا يعدله فوز ؟ ليكن لإبليس ما يريد من ملازمة فوست . وأما بطلنا فهيها أن يعود إلى تلك الغواية التى لا تزال ترتعد لها فرائضه . لقد التمس اللذة الحسية فلم يجد غير الدارة ؛ وفيه هذا العناء ؟ ألسنا نستطيع أن نحيا بالخيال ما تنطلق إليه رغباتنا ؟ أو ما ترى إلى الناس يذهبون إلى المسرح فيخيل إليهم أنهم قد عاشوا فيما يرون من أحداث وهمية ، وبذلك يدخرون من طاقتهم الفعلية ويضيفون إلى حياتهم ألواناً أخرى من الحياة ! أو ما يذكر بعضنا كيف أن رغبات النفس قد تبلغ من القوة حداً إذا تحققت معه ، لا ندري عندئذ أحلاماً نرى أو ماضياً نذكر ؟ ثم أليست السعادة والشقاء معانى ذهنية أكثر منها حقائق واقعة ؟ وإذا فليلتمس فوست لذات الخيال بعد أن خدعته لذات الواقع ، وليسخر إبليس فيما يريد ؛ وليكن أول ما يريد مجد الشهرة والغنى .

وقاده إبليس إلى بلاط الأمبراطور ، فإذا بالأمبراطورية فاسدة ، وإذا بالأمبراطور عاجز عن إصلاحها . واتفق أن كان مضحك الأمبراطور في شبه موت من شدة السكر ، فقبل الأمبراطور إبليس ليحل محله ، وأصبح فوست ساحر القصر الأمبراطوري ؛ وهنا تقع مهزلة ملأى بالعبر — رأى المضحك الجديد أن موضع الداء بالأمبراطورية هو نضوب المال ، فأكد للأمبراطور أن جوف أرضه مليء بالكنوز الدفينة ، وأنه ليس من الضروري أن ينقب عنها ، بل يكفي أن يحمل الشعب على الافتناع بوجودها ؛ وفي إيمان الشعب ثروة لا يحف لها معين ، وتحققت تلك الأضحوكة ؛ وانتهز إبليس فرصة انهماك الأمبراطور ذات مساء في لجب اللذات ، فحملة على التوقيع على ورقة بنكنوت يضمنها ما في جوف الأرض من كنوز ، وطبع من تلك الورقة عدداً لا حصر له ؛ وجرت تلك الأوراق في التداول ، والكل مؤمن بقوة ضمانتها ، فاغتنى الأمبراطور واغتنت الأمبراطورية . ولكم من أناس يبنون مجدهم فوق أكدوبة كهذه ! ولكم من أناس يجمعون المال ، والفضل كله لحق البشر !

وتساقطت عن الأمبراطور همومه ، وتكاثرت من حوله الخيرات ؛ وكان على إبليس وفوست أن يفتنوا في طرق تسليته وإدخال السرور على نفسه ؛ فأخذ فوست مفتاحه السحري ينظم بفضل عيدا من أعياد الأدب ؛ وهل أمتع للأدباء من أن يبعثوا إلى الوجود هيلانة وباريس ؟ وسر فوست بما أتى ، ولكنه لم يكدرى هيلانة حتى هاله جمالها النادر ، وأحس نحوها بحب قوى ، وبلغ هذا الحب المثالي من نفسه مبلغاً أخذ بكل حواسه ، فجعله يستشعر نحو باريس غير شديدة أنسته الدور الذي يلعب كساحر ، فأدار مفتاحه نحو هذا الراعي الجميل ، وما هي إلا حركة بسيطة حتى اختفى السكل ، وبقي فوست يتحرق لوعة على هذا الجمال الذي لم يستطع أن ينعم به ، وإن ترك في نفسه أثراً لن يمحي . ألم يصح عند رؤيتها : « أو ما تزال عيناى تبصران ؟ ألسن نبع الجمال فياضاً يتدفق في أعماق نفسى ؟ ما أحلاك جزاءً لما بذلت من جهد ! وهل كان العالم قبل أن أراك إلا عدماً أو لغزاً معمى ؟ وأما اليوم فقد أعطاه جمالك معنى ترغبه النفس وتطمئن إليه الحواس واثقة من بقاءه ؟ ألا فلتغادرني أنفاس الحياة إن قبلت أن أحيا بدونك . أنت الحافز على كل نشاط ، أنت الباعث لكل عاطفة قوية ، إليك كل ما أملك من عطف وحب وعبادة وجنون » .

إذاً لقد وجد فوست غايته في الحياة . وأي غاية أنبل من هيلانة ، مثال الجمال المطلق ؟ وعلى إبليس أن يبلغه ما يريد ، ولكنه لن يقنع هذه المرة من هيلانة بذلك الشبح الذي لا يكاد يرنو إليه البصر حتى يختفى كضباب الصباح تبدده أول أشعة النهار . إنه يريد هيلانة

الحقيقية — هيلانة أسبرطة وطروادة — هيلانة في زهرة الشباب — هيلانة ابتسامة تسحر وجمال يسبي . نعم هذا ما يريده فوست ؛ وقد جعلت منه لحة الجمال رمزاً لخيار البشر يلتمسون الحق والجمال بالعلم والحب ، وما تهدأ لهم نائرة حتى يصلوا إلى ما يريدون ؛ وهنا تتسع عبقرية جيته حتى تشمل كل ما في الوجود بل وما خلف الوجود ؛ حتى إن إبليس نفسه ليخشى أن تسوق فوست قدماه « إلى ذلك الفراغ اللانهائي الذي لن يرى فيه شيئاً ، ولن يسمع حتى وقع أقدامه ، ولن يجد ما يركن إليه طلباً للراحة » . وتختلط على القارئ السبل ويحار في أمره ؛ ولكن ما دام فوست يريد من إبليس أن يأتيه هيلانة الأغريقية ، أليس من الطبيعي أن ينقلنا الشاعر إلى تلك البلاد ، بل إلى أسبرطة نفسها موطن تلك الحسناء ؟ وما دام إبليس سيعيد الحياة إلى هيلانة أليس في ذلك ما يذكّر جيته بتلك المعضلة التي لازمت تفكيره طول حياته ، معضلة أصل الحياة ؟ ولم لا يستعرض إذاً ما وصل إليه العلم في عصره من فروض ؟ ولم لا يقص علينا ذلك النبأ العجيب نبأ فجنر تلميذ فوست الأمين ، وقد خلق إنساناً صغيراً في أنبوبة اختبار بفضل ما يعلم من قوانين الكيمياء . وها نحن نرى أبطالنا الثلاثة يسيرون معاً إلى بلاد اليونان : الإنسان الصغير باحثاً عن مصدر الحياة ، وفوست جرياً وراء هيلانة ، وإبليس متربصاً لتلك النفس الكبيرة التي يريد كسبها ، وجيته يخلق فوق الجميع بتلك العبقرية الفذة التي أحاطت بكل شيء ، فأنطقت آلهة الأساطير وأنصاف الآلهة وأرواح البحر والبر والسماء .

ولقي فوست في طريقه « شيرون » الحكيم فأخبره أنه يبحث عن هيلانة ، وأنه لن يستطيع الحياة بدونها ؛ فظنه شيرون لأول وهلة مجنوناً ، وأخذته به رحمة ، فأراد أن يلتمس لجنونه علاجاً ، ولكن فوست يرفض هذا العلاج بإباء ، ويخبره أنه لا يريد إن يحيا حياة مبتذلة كما يحيا غيره من الناس ، وإلا كان جديراً بكل احتقار ؛ ويقوده شيرون إلى « مانتو » بنت إله الطب إسكيلاب ، وعند مانتو كل علم بأسرار النفوس . ودار بين مانتو وفوست حوار أحست خلاله تلك الإلهة الخبيرة بأن فوست ليس مجنوناً ، وإنما هو رجل ألهب المثل الأعلى قلبه ، واستحوذ على مشاعره ، حتى ليحسبه الحق معتوهاً وما هو بمعنوه ، وسكنت مانتو من جأشه بتلك الكلمة الرائعة : « إنني أحب من يطلب المستحيل » وقادته إلى « پرسيفون » إلهة العالم الآخر ، ورقّت له تلك الأخيرة ، فردت إليه هيلانة مشرقة الجمال . وأقام إبليس لهيلانة وفوست قصرًا رائعاً بأعلى جبال الپلپونيزيا ، حيث عاش فوست مع هيلانة أروع أحلام حياته ؛ إلا أن جبهما لم يكن حباً مبتذلاً ، بل كان مغامرة لا مثيل

لأصالتها . وكادت تم لفوست السعادة لولا أن ولدها « إثيردين » — رمز الشعر — ذلك
العنصر الناري الذي لا تهدأ له حركة ، لم يستقر له قرار ، فأخذ يجوب الآفاق حتى سقط في
مخالب الفناء داعياً أمه إلى اللحاق به ، ولحقت هيلانة بولدها في العالم الآخر ، وبقي فوست
وحيداً وفي نفسه حسرة مالهبا انقضاء . فيا عجبا ! حتى هذه الحياة الشعرية لا تسكن إلى
بقاء ! أهكذا كتب على البشر ألا تطمئن بهم حال حتى ولو كانت من نسج الخيال ؟

والآن ترى ماذا يفعل فوست بنفسه وقد خانت له ذات الخيال كما خانت له ذات الحواس ،
وقد أورثه الحب مرارة الندم كما أفلت الجمال من بين يديه ؟ لم يعد له إلا أن يصرف نشاطه إلى
ميدان العمل يأتي فيه بما لم يأت بمثله أحد من قبل ، فينال إعجاب الناس به ورضا نفسه عما
وفق إليه . وأى دواء لنفس حائرة كنفسه خير من أن يشغل ملكاته عن التفكير في
نفسه وفي الحياة .

ونظر فوست فرأى البحر يغمر الأرض فيشل إنتاجها ، وحدثته نفسه عن مبلغ ما يصيب
من مجد لو أنه استطاع أن يرد البحر عن شواطئه ، وأن ينزع منه بقاعاً بخصبها بالأشجار
الدانية القطوف والأزهار الباسمة الألوان والرجال الناعمين بالحياة . وأى عمل أعظم من أن
يضع للبحر حدوداً لا يعدوها ؟ بهذا جرت الأحلام في نفس فوست ، فأتجه إلى إبليس يطلب
إليه تحقيق تلك الأحلام ؛ وصعد إبليس بالأمر وهو على ثقة من أن فوست سيرضى بمجد
باطل يفقد معه رهانه ، واتفق عندئذ أن كانت الأمبراطورية في ثورة ضد الأمبراطور ، وقد
نصب أحد الأعداء نفسه أمبراطوراً جديداً ، فأعد إبليس لفوست من أسباب سحره
ما استطاع معه أن يقهر الأمبراطور الجديد ويثبت الأمبراطور القديم في عرشه . وشاء
عرفان الجليل أن يحمل هذا الأخير على أن يكافئ فوست بمنحه الأراضي المجاورة لساحل
البحر ؛ وبذا أصبحت أحلام فوست سهلة التحقيق . أليس في استطاعة إبليس أن يأتي
فوست بقوى غير مرئية تدفع البحر عن شاطئه وتقيم أمامه حواجز متينة ترد أمواج
المياه ؟ وزرعت الأرض المنزعة من المياه ، ونما زرعها ، وانتشرت بينه مساكن الزراع .
والآن — ترى أَرْضِيَتْ نفس فوست ؟ كلا . فهناك شيخان لا يثقان بما آتاه فوست من
معجزات ، وللشيخين (رجل وزوجة) منزل بأعلى الشاطئ ، وهما يرفضان النزول عنه
والسكن بالأرض الوطيئة التي انتزعها فوست من اليم . وبقي منزلها قائماً يسخر من فوست
ومن معجزات فوست . وبنفسه رغبة في شراء هذا المنزل ليضيفه إلى قصره الذي بناه ،
والشيخان يصران على التمسك به ، فكيف السبيل ؟ وأحس إبليس بما يدور في نفس فوست .

ومن أدرى منه برغبات النفوس ؟ فأخذ يحرك من غرائزه ويهيج من كبريائه حتى استفحل الأمر ونفذ الصبر ، فتقدم له عندئذ راجياً أن يكل إليه أمر مفاوضتهما بالحسنى ، على أن يكون له الحق في استعمال ما يرى من وسائل الإكراه إن فشلت المفاوضة ؛ وأبى الشيخان الاستماع إلى حديثه ، فأمر إبليس رجاله بإحراق المنزل ، وأكلت النار المنزل كما أكلت الشيخين بداخله . فنى الشيخان وما إلى هذا قصد فوست ؛ ولكن ما فعله إبليس لم يكن إلا استجابة لرغبات نفسه الدفينة ؛ ولهذا نراه يلعن إبليس ويستنكف فعلته . ولكنه يحس في أعماق ضميره أنه مسئول عن هذا الجرم ؛ ولذلك يعقد العزم على أن يفارق إبليس ، وأن يحيا حياة بشرية عادية دون الاستعانة بوسائل الشيطان ؛ ولكن أنى له ، وقد جاوز الخمسين في صحبة إبليس ، أن ينهض بأعباء حياته التي أنفقها بعيداً عن حياة البشر وسط عالم مسحور حتى أصبح عاجزاً عن فهم الواقع ، وامتلأ وجوده بالأشباح ؟! ومع ذلك فما تزال إرادته قوية كما كانت ، وما يزال نشاطه موفوراً . وإذن فليحاول حياة البشر :

« لقد أنفقت حياتي أجوب خلال الأرض ، أقتنص ما تصبو إليه نفسي وأطرح ما لا يرضيني ، مولياً ظهري لما يفلت من بين يدي . لكم تحركت بنفسي رغبات ، ولكم أشبعت تلك الرغبات ، ولكني ما أكاد أفرغ من واحدة حتى تثور بنفسي أخرى . وهكذا واصلت شوطي في الحياة بقوة لا تدفع وبخطى بدأتها حثيثة ، ثم ها هي اليوم تهدأ وتعتدل . لقد أحطت بآفاق الأرض علماً ، وأما ما خلف تلك الآفاق فدونه حجب مسدلة . ما أحق من يرفع إلى السماء بصراً يعشيه ضيائها ، وقد خيلت إليه أوهامه أن وراء السحب أحياء تشاكله . لقد خلق الإنسان فوق تلك الأرض ، فليكتف إذن بالنظر إلى ما حوله ، وإن فيه لعبرة لذوى الألباب . ثم فيم الضرب الأبدية ؟ أو ما يكفيننا أن نمسك بمانع ؟ ! أو ما يكفيننا أن نسير على ضوء الحياة ؟ وإذا لاحظت لنا بعرض الطريق أشباح فلندعها وشأنها ، وإن أصبنا سعادة أو شقاء فلنقبله ، ولنواصل السير دون أن يطمئن بنا أبداً رضا . »

على هذا وطد فوست العزم وقد أعلن أنه سيقبل الحياة كما هي دون أن يرضى عنها . فهل تراه بذلك مفلتاً من قبضة إبليس ؟ كلا . فإبليس له بالمرصاد ، وما دامت الحيرة قد عادت إلى نفس فوست ، وما دام القلق قد تملك نفسه البشرية يقلق راحتها ، فقد عادت الهموم تغزوه من جديد ، وتعمى بصره ؛ وها هو إبليس ينتهز فرصة عماء ليخدعه من جديد ، وقد أمر فوست رجاله أن يبكروا في الصباح إلى حمل معاولهم ومهاجمة البحر يردونه عن الأرض دفعة أخرى . وأثار إبليس من حول فوست — بوسائله السحرية — ضجيجاً يشبه ضجيج

الفعلية ؛ وحسب فوست أن الأمور تسير على هواه ، وأنه مستطيع بوسائل البشر ما لم يكن يستطيع من قبل بغير وساطة الشياطين ؛ وما علم أن ما حوله من ضجيج لم يكن إلا خداعاً من شياطين إبليس ، وأن المعاول لم تكن تعمل لترد البحر ، بل لتهيء له قبره الأخير . وبلغ من بؤس الرجل أن صاح برضاه عما أتى ، ففقد رهانه ، وسقط بين يدي إبليس يقوده إلى جهنم وفوق شفتيه ابتسامة الرضا :

« ها هي ذى جنان الأرض تشرق ! للبحر أن تزخر أمواجه وأن تأكل مياهه ما أقنا من حواجز ، فنحن البشر له بالمرصاد ، ما نلبث أن نرد عدوانه ، ونقيم حاجزاً مقام حاجز ؛ على هذا كرسيت حياتي . وأي حكمة يمكن أن تتمخض عنها الحياة خير من تلك الحكمة التي تسوقنا إلى وقف حياتنا على هزيمة البحر كل يوم ، فنستحق بذلك الحياة ونستحق الحرية ؟ وهكذا ينصرم الشباب كما تنصرم الكهولة وتنصرم الشيخوخة وسط صراع مستمر يحكم حلقاتها . آه ! لكم وددت أن أرى مَنْ حولى مِنْ بشر فوق أرض حرة بين قوم أحرار ، إذن لصحت بالزمن أن قف جريانك لأنعم بتلك اللحظة السعيدة . ولو أنني استطعت ذلك ، خلقت حياتي على أديم هذه الأرض أثراً لن تمحوه أبدية السنين . إن نفسي لتحس بتلك السعادة الفياضة ، وإنه ليحلولي في هذه اللحظة أن أمتنع بما أنا فيه من نعيم » . وهل بعد هذا من رضا ؟ وهل بعد هذا يستطيع فوست أن يفلت من إبليس ؟ ولكن هل سعادة فوست هذه إلا وهم باطل ؟ وهل رضاه إلا خدعة من عمل الشيطان ؟ ياللعجب ! حتى ثمار جهدنا لتلقاه منا الأحضان فإذا به هواء ؟ ؟ وحتى راحة النفس نلتمسها في الدأب المتواصل فلا يورث الدأب إلا خداعاً !

وهوت روح فوست مع إبليس ، ولكنها روح خيرة ، فما لرحمة الله أن تتخلى عنها ، وإلا كانت الهزيمة ! وما إلى مثل هذا يستطيع جيته أن يطمئن ، وإنه لمهيء لبطله سبيل الخلاص ، ولمعلمه عندئذ كيف يستطيع أن يعالج الحياة .

(٣)

هوى فوست بين يدي إبليس إذ أعلن رضاه عما خيل له هذا اللعين من مجد باطل ، ولكن كم كانت دهشة إبليس عند ما نظر فوجد روح فوست ما تزال مستقرة بالجملة تأتي أن تغادرها أو تتفكك ذرات ؛ فاحتاط للأمر وطلب إلى رجاله أن يقصوا أجنحتها حتى لا تغافله فتصعد إلى خالقها . ولو أنها استطاعت لتفتحت لها أبواب السماء ؛ أما وقد عجزت فما هي

ملائكة الرحمة تأتيها منسدة : « نحن رسل الرحمة نحمل الحياة إلى البؤساء الذين ما تزال قلوبهم تتجه بالدعاء إلى رحمة الله . هيا . . هيا نمس بأجنحتنا هذا الطين البارد ، فتدب فيه الحياة ، هيا نملأ الفضاء بحماسة قلوبنا ، هيا نسكب رحمة الله في قلوب البشر . »

وسمع إبليس نداءهم ، فهزه الخوف من أن تنقذ تلك الملائكة فوست . ولكن متى كان للملائكة أن ترهب إبليس ومن خلفها قدرة الله ؟ ها هي تساقط الورود فوق جثة فوست كما يتساقط الندى على رقيق الحشائش . وأمر إبليس رجاله أن ينفثوا على الملائكة والورود لهباً يبدد شملها ويذهب بنصرتها ؛ وعادت الملائكة تحمل الحب والضوء ، وضاعف إبليس من ناره ، ولكنه باء بالهزيمة ، وقد مسه الحب ، الذي نثرته الملائكة في الفضاء ، بلهب كوى منه الأديم .

واختلطت الملائكة فوست تسمو به إلى رحاب الله ، وما زالت تقوده في مقامات الجنة حتى لقي مرجريت ، فقادته ابتسامتها إلى العذراء تسألها أن تمكنه من لقاء وجه ربه . وبذا انتهت حياة فوست كما ابتدأت بابتسامة من مرجريت ؛ فياعجباً ! ضحية تشفع لمن كانت فريسته ؟ ! ولكنه الحب سبيل نجاتنا ، الحب بأعم معانيه : حب البشر وحب الله . ولنذكر قول أحد القديسين . « لو أننى نظقت بكل لغات البشر بل حتى بلغات الملائكة ، وكان قولى خالياً من الحب لكنت كطبل يدوى أو نحاس يطن ؛ ولو أننى تملكست أسرار الغيب ، ونفذت إلى كل معنى خفى ، وأحطت علماً بكل شيء ، بل لو أن قلبى عمُر بإيمان ينقل الجبال ، وكنت بغير حب لما كنت شيئاً ، ولو أننى وهبت كل ما أملك طعاماً للفقراء ، ولو أننى أسلمت جسمى وقوداً للنار وكنت بغير حب لما أفدت شيئاً . الحب صبر ودعة وإحسان ، الحب لا يعرف الحقد ، لا تسمع له صخباً ولا عجلة ، ليس للكبرياء أن تغل من سلطانه ، وهو تواضع لا يعرف التعالى ، لا يسعى إلى نفع ، ولا يحس بمرارة » .

هذا الحب الذى تستطيع النفس أن تطمئن إليه فتجد الراحة ، هو ما كان ينقص فوست ، إذ أن عقله كان قد امتد إلى كل شيء ، ووسع كل معرفة ؛ وكان قد أنفق حياته بين الجدران منحنيًا فوق صحائف الكتب دون أن يورثه ذلك يقيناً أو يجعله خيراً مما كان ، فأحس بفراغ لم يدر كيف يملأه .

فوست عقل طغى على القلب فأشقى صاحبه ، فحاول أن يقيم اتزان نفسه ، وقد فقدت تلك النفس بفقدان اتزانها كل سيطرة على اتجاهاتها ، فأخذ يضرب فى كل مكان ، يلتمس غذاء لهذا القلب ، مندفعاً فى كل ناحية اندفاعاً لا يتبين معه مواقع أقدامه . وعاد من شوطه

البعيد منتعلا دمه ، فغادر عالمنا إلى العالم الآخر على أجنحة من الخيال لم تلبث أن هبطت ، فسقط إلى الأرض حيث الحيرة الأبدية والجهل الذي لا حدود له ؛ وود لو انصرف عن نفسه إلى عمل مجيد يستغرق قواه ؛ ولكنه في تلك المرحلة أيضا لم يستتب الوهم من الحقيقة التي اختلطت أمام ناظره بالأحلام ، فكيف له إذاً أن يستقر أو أن تهدأ له نفس ؟ ومن يدري ! لعل إرادة الله قد قضت على البشر أن يظلوا في حيرة أبدية وقلق لا انقضاء له ؛ ولعل في ذلك ما يتميز به الإنسان ، ألا ترى الأمهات لا يلدن إلا وسط الآلام ؟ فكيف لعقل بشرى أن يدرك سرّاً أو يكشف الغطاء عن لغز إذا لم تهزه المحن فتشخذ من قواه ؟

ولكننا نعود فنتساءل : وكيف استطاع إذاً فوست أن ينجو ؟ وكيف تفتحت له أبواب السماء ، رغم ما كان في حياته من إسراف لا شك فيه ؟ وبقيننا أن سر نجاته يرجع إلى ما تمخض عنه ذلك الإسراف من دروس . لقد علم فوست أن علماً يبذر الشكوك في النفس علم لا خير فيه ، وأدرك أن الإحساس قد يكون لنا في الحياة دليلاً أهدي من عقل دائم التعثر في خطأ . ألا ترى إلى مرجريت على سذاجتها وضيق أفقها العقلي كيف سبقت فوست إلى رحمة الله تمهد له سبل السماء ؟ إليس ذلك لأنها آمنت بحبها فغفر الله خطيئتها ؟ وهل أتت فوست ملائكة الرحمة إلا لأن حب مرجريت له لم يعدم أن مس نفسه فطهرها من شرورها وقربها من الله .

ولقد علم فوست أنه إن لم نستطع أن نحيا بنفوسنا تلك الحياة الأرضية التي قضى علينا أن نحياها ، فإنه لا ينبغي لنا أن نستعين بعناصر الشر وأوهام السحر ، وإلا تراخت قوانا وفقدت القدرة على الاعتماد على نفسها . وإنه خير لنا أن نشبع ما يثور في نفوسنا من رغبات بما منحتنا الطبيعة من قوى ، وأن نعرض عما لا نستطيع له تحقيقاً ، إذ أنه من الأسهل أن نغير من أنفسنا لنلائم العالم الخارجي عن أن نحاول تغيير ذلك العالم لكي نخضعه لرغباتنا ؛ وسعادتنا منوطة بذلك ؛ وهل استشعرت نفس راحة إلا إذا استطاعت راضية أو كارهة أن تلائم بينها وبين ما يحيط بها من أناس وأشياء ؟

ولقد علم فوست أن المرء ضعيف بنفسه قوى بربه ، وسيان بعد ذلك أكان ذلك الرب ما يعبد المسم أو المسيحى أو اليهودى ، أو كان تلك الروح الشاملة التي تحل في الوجود ، كما كان يعتقد جيته . ولقد حدثت مرجريت فوست يوماً عن الإيمان ، فسألتها : أمؤمن هو بدين المسيح ؟ فلم يحرج جواباً ، وإن أخذ يصف لها حبه في ألفاظ ترتعد إيماناً . فأجست مرجريت -- كأمراة تدرك بفطرتها أسرار النفوس -- أن قلب فوست عامر بالإيمان ، وإن

هاملت

Hamlet

(١)

هملت كصورة لفنان كبير تلاحقك نظراتها أينما اتجهت . وكأنها تسألك : « أتستطيع أن تفهم من أنا ؟ حدثني عما تظن . ولايهولك ما لطخت به يدي من دماء . وكلنا لاشك قد بلا من أحداث الحياة ما يعرف معه أن النفوس الخيرة قد تحمل على الشر ، وما أنا إلا مثل لطفيان الروح على الإرادة . ولو أنني بقيت على الفطرة كما خلقت لانتقمتم لوالدي في غير تردد ، ولكن بعد ذلك ما يكون من نصر أو هلاك ، ولغادرت الحياة غير مخلف أثر إلا أن تكون إشارة مؤرخ مثل ساكسو جراماتيكيوس Saxo Grammaticus يسوق اسمي بين من يسوق من ملوك الدانمرك ، ولعله يذكر ما كان من محاولتي الانتقام لأبي . وكم في ثنايا التاريخ من أحداث كهذه طفا القليل منها على الزمن ، وهوى الكثير ، والناس بعد لا يشغلون أنفسهم بما طفا أكثر من اشتغالهم بما هوى ؛ ولكن شكسبير قد خلقني خلقاً جديداً وأودع روحي من النفاذ ما لا أزال أشقى به . ألا تراني أسلط العقل على ما يحيش في نفسي ، أتناوله بالتحليل فلا أعود من ذلك إلا بعزم مفلول ، فأثور على محاولة الفهم والاسراف في القول ؟ وكل تحليل تحطيم ، وكل عزم لا بد متراح ما أرسلمناه ألقاضاً » .

هذه مأساتي . ولئن كانت النفوس الفطرية تشقى بأوهامها فتحسب في كل شجرة إلهاماً يرغب ويرهب ، وفي كل نسمة روحاً تحمل الخراب أو العمران ، لأنها لا تستطيع أن تدرك حقائق الأشياء فتتحرر من الوهم ، فإنني لست بدونها شقاءً ، وقد نفذت روحي إلى كل شيء ، بل نفذت إلى حقيقتها : نفس خيرة ناطت بها الأقدار إراقة الدماء انتقاماً لأب كريم ، فكيف السبيل ؟ لقد صحت يوماً عندما كشف لي شبح والدي عن الجريمة صريحة . يأس : « لقد خرج الزمن عن مجراه ، وإنها لمنحة قاسية أن يكون عليّ رده إلى ذلك المجري » فحسبت نفوس كبيرة كجيتته Goete « أن نفسي أصغر مما نيط بها ، ورأيتني كزهريّة — لاشك ثمينة — ولكنها أضيق من أن تحتوى جذور شجرة عاتية ، وما أعدت إلا لرقيق الزهور . ونمت الشجرة فخطمت الإناء » . وأضاف جيتته أنني نفس لاشك جميلة خيرة ،

ولكنها أضعف من أن تستقل بحمل كهذا ، بل أضعف من أن تستطيع طرحه عنها ، وأنى قد كلفت المستحيل ، لا المستحيل في ذاته ، بل المستحيل على طبيعى ؛ ورأى فيما كان من حيرتى وترددى بين الإقدام والإحجام مأساة نفس لا تزال تأمها حتى تضل عن قصدها ، وكلما ذكرته ذكرت حقيقتها ، فطغت هذه على ذاك ، وأخفت معالمة حتى يصير القصد سرايا ؛ وما استراحت النفس ولا هداً الفؤاد ، إلى أن ساقتنى أحداث الحياة سوقاً إلى النهوض بما نذبت له .

ولكنى مسائل نفسى : أضعف أن أتردد فى سفك الدماء قبل أن أستوثق من جريمة الجناة ؟ أضعف أن أتردد فى قتل رجل أتيت به فإذا به يعبد الله ؟ وهاك تفصيل ما كان : عدت من فيتنبرج Wittenberg التى تلقيت العلم بجامعة سنين طويلة ، إلى إلسينور Elsinore حيث علمت أن أبى قد مات منذ شهرين ؛ ونظرت فوجدت أن عمى كلوديس Claudius قد خلفه على العرش وأنه قد تزوج من والدتى جرترود Gertrude ، ورأيت فى مسرح عمى ووالدتى وتكالبهما على الحياة وعدم ذكرهما لوالدى أو الحزن لوفاته ما نفص على عيشى وألقى الاضطراب فى نفسى ، فاستشعرت وحشة غريبة ، وكأن أسراراً غامضة تحوطنى أينما اتجهت ، حتى كان يوم ظهر لى وسط ظلام الليل ، وأنا بصحبة أحد الأصدقاء ونفر من الحرس ، شبح والدى فكدت أصعق . وقد أخبرنى الشبح بما وافق إحساسى الغامض ؟ أخبرنى أن عمى قد سكب السم لوالدى وهو نائم بالحديقة ، وأن والدتى قد قبلت الأمر الواقع واستبدلت راضية رجلاً برجل ، ثم طلب إلى أن أثار له بقتل كلوديس ، وأما والدتى فقد حذرني من أن أمد إليها يداً بسوء .

صدعت بالأمر وعقدت العزم على الثأر ، ولكن كيف السبيل ؟ ومن حولى رقباء أيقاظ لم أر معهم بداً من أن أتصنع الجنون . وأوجس الملك خيفة من جنونى هذا ، فأخذ يعمل بكل ما يملك من حيلة لينفذ إلى أسرار نفسى ، وقد اتخذت من الجنون ستاراً أنثر من خلفه كل حقيقة مرة ؛ ودس المجرم على عيونه يتسقطون نجوى فؤادى أو يحتالون لإنطاق مكنون نفسى . وكما قاسيت من أن تكون أوفيليا Ophelia الحبيبة بنت پولونيس Polonius كبير أمناء الملك — من بين تلك العيون ، وفطنت إلى تلك الدسائس فأتلقت على الرقباء مكرهم ، وسخرت من حيلهم ؛ وما ضقت بهم فى شئ ، وإنما آتانى الضيق من نفسى ، وما أنا بالرجل الساذج الغفل ، حتى أركن إلى شبح رأيتة ؛ وماذا كنت أترك لبسطاء النفوس لو أن الشك لم يتسرب إلى عقلى فيحملنى على أن أضع حديث الشبح موضع النظر والتجربة ؛ ووقلبت وجوه

الرأى فلم أر خيراً من أن آتى بممثلين يمثلون أمام الملك والملكة رواية جريمتهم لأرى أثر ذلك على وجوههم . وكان ما توقعت فلم يطق الملك صبراً على رؤية جريمته ، وأسرع إلى الانسحاب والربح يملأ نفسه ، وتبعته الملكة التي أرسلت في طلبى ؛ وكان بينى وبينها حوار عنيف لم يؤلنى منه إلا أنه كان بين ولد وأمه .

دار الحوار بينى وبين أمى فى حجرة تغلق أحد جوانبها ستارة ضافية ، وبلغ من عنف الحديث أن اشتط بى الغيظ حتى لم أعد أملك نفسى ، وقد تحققت من الجريمة ولم يعد للشك مجال . وانسل إلى سمى حفيف الستارة وأحسست أن من خلفها شخصاً يتلقتظ الحديث ، فهجمت عليه بسيفى هذا ظاناً أنه الملك ، وكـم كان أسفى عند ما نظرت إليه مضرجاً بدمائه فإذا به پولونيوس ؛ وعلم الله كم كان حزنى لقتل هذا الرجل لا لأنه فى نفسه جدير بأى محبة أو تقدير وهو يد الدس التى أرسلها الملك فى أعقابى ، ولكن لأنه والد ذلك الملاك الطاهر ، والد أوفيليا التى أحبها قلبى كما أحبتنى .

أسقط فى يد الملك وزادت مخاوفه ، وقد أحس بالموت يرفرف فوق رأسه ؛ ولما كان يعلم مبلغ محبة الشعب لى وقوة الشبهة التى تلبسه ، كما كان يحرص على رضا أمى ، لم ير خيراً من أن يحتال على قتلى ، فأرسلنى برسالة إلى ملك أنجلترا مع رجلين من رجال البلاط ، وبالرسالة أمر لذلك الملك أن يقتلنى بمجرد وصولى ، فإن لم يفعل فالويل له ؛ وكان رفيقاً رحلتى يعلمان ذلك ، وأما أنا فقد أوهمنى الغادر أنه يرسلنى إلى أنجلترا حرصاً على حياتى بعد أن قتلت كبير أمنائه ؛ وكان من حسن طالعى أن توقعت غدره ، ففاقلت رفيقاً الخائنين وفضضت الرسالة لأحواسمى وأضع اسميهما محله ، وكان أن وقعت سفينتنا بين أيدي قراصنة نجوت معهم بنفسى لأعود إلى الدنماركة ، وأما الرجلان فقد وصلا إلى ملك أنجلترا حيث لقياً حتفهما .

عدت ولكن لأرى وأسمع ما ينظر له الفؤاد ، فقد جنت أوفيليا لقتل أبيها على يد حبيبها ؛ وفيما هى تجمع الزهور إلى حافة النهر تردت فيه فماتت غرقاً ؛ وفيما أنا عائد وسط المقابر حيث كان لى حديث حزين عن مصائر البشر مع الحفارين رأيت حفلاً مهيباً لم ألبث أن علمت أنه جنازة أوفيليا ، ورأيت أخاها لايرتس "Laertes" وقد ثارت ثورته وانعقد عزمه على أن ينتقم منى لأبيه ولأخته ؛ ورآها الملك فرصة سانحة ليستوثق من هلاكى ، فدبر نزلاً بينى وبين لايرتس على أن تكون حربة خصمى مسممة السنان ، وزيادة فى الحيلة أعد كأساً دس فيها السم لأشرب منها فيما لو أخطأتنى ضربات الخصم . وكان النزال ، وأصابنى لايرتس بضربة قوية ، ولكنى تماكنت نفسى وهويت عليه بكل جسمى فسقطت حرابنا ، وتناولت

مسرعاً حربته كانت حربته وطعنته بها طعنة أشد من طعنته ، وأسرعت الملكة إلى شرب نخب ولدها فسقطت صريعة ، وسقطت ، وسقط لا يرتس . ولكن منازل النبيل لم يكذب صارحنى بحقيقة المؤامرة ، وقد صفت نفوسنا على قبر أوغيليا أمام الموت والدماء المراقبة ، حتى عادت إلى قواى فنهضت وبذراعى المتخاذلة موتاً ضربت الملك ضربة يأس أتت على حياته لساعته ، ثم أسلمت أنفاسى وآل ملك الدانماركة إلى ملك السويد الغازى .

نعم ذلك ما كان من هملت ، وقد ساقته الأقدار إلى إراقة دماء أراقها بالفعل سميح في القرن الثانى عشر ، أو كان يستطيع إراقها بقلب ثابت غفل وضمير صامت لا يعرف الندم . وأما هو وقد أعاد شكسبير خلقه من جديد فى عصر البعث العلمى ، وقد تبدل الزمن فأرسلت المسيحية نور الإيمان فى القلوب ، وهزت أوتار الضمائر ، وجاءت الجامعة فزادت بعهدا الطويل نفسه ليناً ، ومدت من آفاق تفكيره ، فكيف له ألا يتردد ويناقش نفسه الحساب مرة ومرة ؟ إنه لمن الطبيعى أن تحجم نفس مهذبة كنفسه ، فى عصر النور ، عن ارتكاب جرائم ارتكبها سلفه أيام الظلمات . وإنه لمن الطبيعى أن يتخذ شكسبير من هذا التعارض بين حقيقة نفسه وشناعة جرمه موضوعاً لأكبر ما تصورت العقول من مأس ؛ ونحن لا بد متسائلون عن مبلغ ما حمله خالقه العبقري من مرارة نفسه ، وقد استوت ملكاته وسط أزمة نفسية ما زال إلى اليوم حائرين فى فهم سرها ومدادها ، وإن طالعتنا فى أكثر من مقطوعة من شعرة الغنائى (Sonnets) الذى يدور حول ذلك العام ١٦٠٤ .

وفى الحق أن هملت لم تنقصه الشجاعة ولا نقصه العزم ، وقد قبل أن ينتقم لأبيه بقلب ثابت ، ورأى فى هذا الانتقام واجباً مقدساً . ألا تراه يخف إلى لقاء أبيه وقد فرقت قلوب الرجال من حوله وتعلقوا به أن يمسك عن السير وراء الشبح عند ما لاح له طالباً أن يتبعه ؟ وكيف يتراجع وهو القائل : « سأحدث إليه إن ظهر فى صورة والدى النبيل . سأحدث إليه ولو انشقت أمانى أفواه جهنم تصيح بى أن ألزم الصمت » . وظهر الشبح ووجه إليه هملت الحديث ، وأوماً إليه الشبح بالمسير خلفه فسار ؛ وما إن حاول رفاقه أن يثنوا من عزمه حتى صاح بهم : « فيم الخوف ، والحياة عندى لا تساوى قلامة ظفر ؟ وأما عن روحى فبأى أذى يستطيع أن يصيبها وهى مثله خالدة ؟ آه — ها هو يومى إلى من جديد . وإنى لسائر فى أثره » .

نعم هملت شجاع ، وله من الشجاعة كل مظاهرها ، حتى لقد يوصى نفسه بالهدوء : « هدوءاً أيتها النفس . إن الجرائم لا بد ظاهرة إلى وضوح النهار ، ولو غطتها الأرض

قاطبة لتخفيها عن أعين الناس . هدوءاً أيها القلب . . . » .

ولكن حماسة — لسوء الطالع — لا تلبث أن تتبدد خطباً . تراه يتلقى مهمته من فم الشبح بخطبة عنيفة يخشى أن تكون قد استنفدت كل ما في قلبه من حرارة ، فيتناول قلماً وقرطاساً ليدون وصية الشبح له « بأن يذكره دائماً » حتى يراها أمام عينيه ، فيضمن بذلك أن تتبع الأفعال الأقوال :

« يا أرواح السماء ! أيها الأرض ! وأنت يا . . . ماذا أضيف ؟ أضيف جهنم ! آه ! تماسك أيها القلب . وأنت أيها الأعصاب حذار أن تدركي الشيخوخة لساعتك ! هيا ارفعي من قامتي ! أذكرك ؟ ! نعم أيها الشبح المسكين سأذكرك ما احتفظت الذاكرة لها بمكان تحت هذه الجمجمة الحائرة ! أذكرك ؟ ! نعم سأذكرك ! بل سأححو من ذاكرتي كل ما علق بها من أحاديث الهوى التافه أو قضايا الكتب ! سأححو منها كل صورة وكل ذكرى للماضى خطها شبابي أو تلقى حواسي ، غير تارك على صفحات ذهني إلا وصيتك منفردة عن كل ما يحوطها فيحط من قدرها . نعم بحق السماء . أيها المرأة الخبيثة ! أيها الوغد المجرم المقضى عليه بابتسامة نفاق لا تزل ! إلى بالواحي . إنه لمن الخير أن أدون بها أنه من الممكن أن نبتسم ونبتسم دائماً ، ولا نكون رغم ذلك غير أوغاد . إني لعل ثقة من ذلك ، على الأقل بالدائنة . (يكتب) هانتذا عمي ! والآن إلى قسمنا . (وداعاً وداعاً . أذكرك دائماً) وهأنذا آتخذ من كلمتك هذه قسمي » .

أي عنف أشد من عنف هذه النفس القوية ؟ وأي قول أحسى من هذا القول ؟ ولكنها نفس بأسة نظرت إلى أعماق نفوس البشر فلم تر إلا ظلاماً ، وارتد بصرها إلى مكنونها ، فاتخذت منه وقوداً لسخطها . ولكم ثار هملت على نفسه ، ولكم خطب ضد خطبه . ولقد آناه يوماً ممثلون يحاكون ما كان من حزن إيكيبا Hecuba ملكة طروادة لموت ولدها البطل هكتور ، ويذرفون مثل ما ذرفت من دموع ، فإذا بتلك الدموع كأنها سياط تلهب من نفس هملت : « آه . يالي من نذل مسف الفؤاد ! يال للعار ! هذا الممثل يستطيع بمجرد التصور أن يحيا حلاًماً من الإحساس ، فيرغم روحه على أن تجاري خياله ، فيتمثل له الخيال حقيقة ، حتى ليشحب لونه وتتساقط منه الدموع ، وكل ذلك لغير غاية ! أكل ذلك من أجل إيكيبا ؟ ! وأي صلة بينه وبين إيكيبا أو بينها وبينه ؟ ! وماذا كنت تراه إذاً فاعلا ، لو أن ألي كان أله ؟ ! . . . » .

« أي نذل أنا ! وكيف لا أكونه ، وها هو قلبي الهش كالطمي يغرسني هنا في مكاني

شبحاً ينتظر وحى السماء ، وقد تقاعدت عن غايته ! إن اللسان لينعقد فى فمى ، ينعقد عن التحدث عن ملك كريم سلبته يد أئيمة تاج الملك ونعمة الحياة . أجبان أنا ؟ ! . . .

« . . . إنه لمن الواضح أنى لا أحمل غير كبد حمامة ، وأن هذه الكبد قد عريت من مرارتها تجابه بها الظلم كما ينبغى أن يجابه ، وإلا لأشبع منذ زمن بعيد بطون الطيور الجارحة بجثة هذا الوغد الحقير ! أيها الوغد الملطخ بالدماء ! أيها الوغد الفاسد الطبع الفاسد النفس ! أيها الضمير الميت ! آه ! الانتقام ! آه ! أى حمار أنا ! ! يا لها من شجاعة ! شجاعة تلك التى تدفعنى أنا الإبن الذى مات أبوه العزيز قتلاً ، وصاحت به جهنم والسماء : إلى الإنتقام ، ثم ها هو يهدى من ثورة قلبه باللفظ المسرف ، يُبدد قواه لعنات كندل حقير ! ما هذا ؟ ! ما هذا ؟ ! إلى العمل ! إلى العمل ! توثبى أيتها الروح ؟ » وكيف لتلك الروح أن تتوثب وقد انحل عزمها ثورة ألفاظ ؟

واستمر هملت فى شقائه النفسى . ولستم من حدث أناره ضد نفسه . أو لم ير يوماً ملك السويد الشاب يجتاز أرض الدنمركة ليصل إلى پولونيا ، ينتزع من أهلها بضعة أميال من أرض جدباء فصاح : « أنسيان كنسيان الحيوانات ؟ أم تخرج الجبن ، جبن نفس تطيل الإمعان فيما تريد أن تأتى من عمل قبل أن تأتية فتحطمه إلى أفكار ربعها حكمة وثلاثة أرباعها جبن . وفى الحق إنى لأتساءل : فيم توقفى الآن ؟ أحاسب النفس : أينبغى أن أفعل هذا أو ذاك ؟ وفيم التساؤل والقصد واضح ولى من الإرادة والقوة ووسائل التنفيذ ما يمكنى من إنفاذ ما أريد ؟ . . . كيف أتقاعس أنا الذى قتل أبوه ودُنست أمه ، وفى ذلك ما يكفى لإثارة كل حفيظة وتحريك كل نفس ؟ وهاهم آلاف الرجال يسىرون إلى قبورهم وكأنا يسير كل إلى فراشه ، والموت معلق فوق رؤوسهم ، وكل ذلك من أجل وهم خادع ومجد باطل يلتمسونه من الاستيلاء على قطعة من الأرض تضيق عن أن تتسع لخطاهم أو أن تضم جثثهم . آه ! لتكن روحى من الآن فصاعداً دماً أو لا تكون شيئاً » .

هذا هو هملت كما يرى نفسه . وإنها لرؤية مخيفة ، وإن فى عنف قوله لأوضح دليل على ما يثير هذا القول فى قرارة نفسه من خزي . أو ما تراه يطعن بالألفاظ وقد عز الطعن بالسنان ؟ يا له من مشهد مؤلم ، ذلك الذى نراه فيه يكيّل لوالدته السباب وقد أعفاه شبح والده من أن يثار له فى شخصها ! وإنه لمغتبط بذلك الإعفاء ، وإن تكن غبطته على غير وعى منه . ومن عجب أن يتكالب على قتل أمه بقاسى اللفظ ، وقد أمره أبوه أن يترك لها الحياة ، بينما يتوانى فى قتل الملك المجرم الأصيل . ولكن عنف نفسه يلتمس له مخرجاً ،

فيتبخر ألفاظا ، حتى تكون مناسبة أخرى تحفزه إلى العمل ، ولولا تضافر الأقدار ما ارتكبت تلك النفس جرماً قط .

لقد قيل إن هملت متردد ، ولكننا نتساءل عن معنى ذلك التردد ؛ وقد استمعنا إلى أقواله فلم نجد — وهو اللبق النافذ البصيرة — يحاول أن يقنع نفسه بالعدول عما كلفه به شبح أبيه من انتقام . وإذا كان هذا شأنه فكيف لنا أن نسمة إذا بالتردد ؟ إن عزمه لثابت منعقد ، وإنه لو في مخلص لما يريد . ولكنه للمرور من العزم إلى التنفيذ ، ومن الإخلاص إلى العمل لا بد من عبور هوة سحيقة تتطلب قوة لا نحسب أنها تعوز هملت ، ولكنه مغلول الأيدي بقوة أخرى لو أنها أنته من الخارج لحطمها شظايا ، ولكن كيف السبيل إلى الخلاص ، وقيوده من نفسه ؟

(٢)

لقد كان على هملت المهذب النفس النبيل الخلق الواسع الإدراك ، أن يرتكب جريمة كانت ترتكب في عهود الجهالة الأولى ، ولقد ترتكب اليوم ، ولكن من نفس غير نفسه . ولكم تحدث إليه عمه القاتل المجرم عن قواعد الأخلاق وما يطلب إليها من أن تكون لمة الحياة الاجتماعية تمسكها عن التفكك والانهيار . وإنه ليعلم نفاق ذلك العم الذي داس تلك الأخلاق تحت أقدامه عندما كان في ذلك نفعه وهوى نفسه ؛ ولكنه رغم ذلك لا يستطيع الإفلات من تلك القيود التي درجت عليها طفولته وشبابه ، فهو ثائر خاضع لا يدرى أي سبيل يسلك . وقد ألفت إليه تربيته الأولى ، وتفكيره المتصل ، والكتب الكثيرة التي قرأها في سنى دراسته الجامعية الطويلة ، بمعاني العدل والحرص على التمكن من الحقيقة ؛ ولكن كيف له أن يصل إلى ذلك والجرائم من حوله تحاك خيوطها غدراً ، وقد تلفت النفوس بما يصطخب فيها من كذب ومكر وخداع ، حتى أصبح العدل حلماً ، وأضحت الحقيقة وهماً ؟ ولكنه رغم ذلك متسائل : ترى أصدق الشبح ؟ وهل من العدل أن تقتل نفساً بشرية لما سمعناه من ذلك الشبح الذي لم نره إلا وسط غياهب الظلام ؟ لهذا تردد هملت وأرجأ الانتقام إلى أن يستوثق من جريمة المجرم في حفلة التمثيل التي دبرها أمام أعين الملك والملكة الذاهلة المضطربة . وكان هذا إرجاءاً لتنفيذ ما اعترزم ، وما جريته في ذلك وقد خلق كألست Alceste يأبى الإباء كله أن يصدر عن غير الحق والإيمان ، فإذا أعوزه اليقين فلينتظر وليكن ما يكون . وما إن ظفر بما يبنى من ثقة حتى أسرع إلى والدته يعنفها بأمر القول . وما إن أحس بحركة

خلف الستار حتى انقض على من خلفه يقتله ، فإذا به اسوء الطالع پولونيوس Polonius لا الملك نفسه . وتأتى عبقرية شكسبير أن يقتل هملت وجها لوجه ، بل من خلف ستار ، حتى لكان تلك النفس المهذبة تسمو عن أن تريق الدماء مُسْفِرة .

ولقد تتعقد الأمور فيتوقف هملت عن إنفاذ عزمه ، لا لوحى من ضميره ، ولا لحرص على الحق والعدل ، بل لإحساس دينى عميق ، إحساس الرجل الذى يعلم أن العبد أقرب ما يكون إلى ربه وقت الصلاة ؛ ولقد رأى هملت قاتل أبيه منفرداً فى الصلاة ، وكانت فرصة سانحة للأجهاز عليه ، ولكنه لم يفعل . وهاك حججه :

« ها هو يصلى . إن باستطاعتي الآن أن أرسله إلى العالم الآخر . وإنى لفاعل ذلك . آه ! إذاً لذهب إلى الجنة ، ولكن انتقاماً عجيباً ! لنفكر فى الأمر : يقتل مجرم أبى ، ثم آتى أنا ، ولده الوحيد ، فأرسل هذا المجرم إلى الجنة ؟! يا لله !! إن هذا ليس انتقاماً ، بل مكافأة طيبة على جرم فظيع ، لقد قتل أبى بقسوة وحشية ! وقد أثقله الهضم فنام ، وتناثرت من حوله خطاياهم كما تتناثر ورود الربيع ؛ وأما عن حسابه كيف قدمه بين يدي ربه ، فذلك ما لا يعامه إلا الله ، وإن كان أكبر الظن أن حسابه جاء عسيراً ؛ ثم آتى أنا فأعتقد أنى قد انتقمته له بقتلى هذا الرجل وهو فى سبيل تطهير نفسه ، وقد أخذ يعدها لرحلتها الأخيرة أحسن إعداد ؟! لا . إلى الغمد أيها السيف حتى تحين لك ضربة أشد من هذه هولاً ، عندما يكون سكران أو نائماً أو مقامراً أو ساخطاً على خالقه ، أو معنياً بأمر لا يحمل ذرة من الفضيلة التى تنجو بصاحبها ، عندئذ يحق لك أيها السيف أن تضربه ضربة تجعله يصعد إلى السماء بأعقاب أرجله ، فهوى نفسه وقد تكاثف بها من الظلمات قدر ما يتكاثف فى جهنم » .

وفى الحق أنها لحجج غريبة معقدة . فيها رقة الإيمان ، وفيها قسوة الرغبة فى انتقام مر . وكان هذا إحجاماً آخر عن تنفيذ ما اعتزم .

كل هؤلاء مشاعر نفسية تعوق هملت عن العمل ، وفى بصيرته من الوضوح ما ينير جوانب نفسه ، ولكنه ضوء يكاد يعشى الأبصار ، هو ضوء الهذيان ، ضوء نفس قد تفتحت أمامها أبواب العالم الآخر فرأت أشباحه فاستحالت حياتها حاملاً مستمراً لا يراه أحد غيرها ، لأن أحداً لا يشاركها تلك الحياة ، فهى فريدة فى بابها . وهل أدل على ذلك من حديث أوفيليا Ophelia عنه وقد لاقاها بهو القصر : « لقد أخذنى من معصمى وضغطه ضغطاً قوياً ، ثم ارتد عني إلى الخلف طول ذراع ، ورفع يده الأخرى مفتوحة فوق حاجبيه فيما يشبه حافة القبعة ، وأخذ يحرق فى وجهى بإمعان حتى لكانه يريد أن يصورنى ، ومكث وقتاً طويلاً فى

هذا الوضع ، ثم هز ذراعى قليلا ، ورفع رأسه وخفضه ثلاث مرات متتابعات ، هكذا ، وأرسل زفرة حزينة عميقة خلّتها قد هزت كيانه وذهبت بروحه ، ثم خلى سبيلى وسار عني ورأسه ملتفت إلى ، واستمر في السير بغير حاجة إلى عنين تيران له الطريق ، وبصره معلق بي ضياؤه حتى اختفى .

وظنت أوفيليا به الجنون ، ولكننا لا نعلم بعدُ أكان مجنوناً حقاً أم هو هذيان نفس محمومة ! بل من يدرينا ؟ لعل موقفه هذا من أوفيليا كان إسرافاً في شعور حقيقى أراد منه إلى إقناعها بما يتصنع من جنون يتخذ منه وسيلة إلى الإفلات من رقابة تلك العيون التى بثها من حوله عمه الملك والتى كانت أوفيليا إحداها ، إذ أوهمها أبوها والملك أن هملت قد جن بسببها ، وأن من واجبها أن تقوم عليه ، وأن تخبر عما تلاحظه من أعراض شاذة يجب أن يسارع الكل إلى علاجها .

وفى الحق أن هملت قد وجد فى تصنع الجنون شهوة عجيبة ! لقد خيل إليه أنه يحيا حلاًماً مستمراً ، أو يلعب دوراً أخذاً ، وإن روحه لروح فنان تعشق الفن وتغنى فيه ؛ وأى متعة أجمل من أن نتصنع الجنون لنقول كل حق ونحطم كل مواضعة ، ونملأ الوجود بكل قول لاذع يكشف عما فى الأشياء والناس من قبح لا شك فيه ؟ وإن فى قول هذا المجنون لحكمة تنطق الأبله بولونيوس بقوله : « عجيب ما فى إجاباته أحياناً من عمق ! ولكم جرى الجنون بحكم يعجز العقل والعافية عن مثلها » . أى نشوة تعدل نشوة هملت ، وقد أخذ يهذى حتى لاح هذيانه حكمة ؟ ترى أيكفيننا إذاً أن نسمو فوق منطق البشر المتبذل وعدلهم الموتور وحقائقهم الزائفة لنلوح مجانين ؟

إن فى تصنع هملت للجنون لعجبا ؛ حتى ليحسب الحق ضحكاته تكشير مجنون عن أنيابه ، وهى بعدُ سخرية رجل ممتاز من حماقاتهم . أو لا ترى إلى أحد رجال البلاط وقد أخذ يحتال عليه ليعرف سر نفسه فلم يحظ منه بجواب غير هذا .

هملت — أتعرف كيف تلعب على المزمار ؟

رجل البلاط — لا يا سيدى ، فاعهدت اللعب على هذه الآلة .

— ولم لا واللعب عليها أسهل من الكذب ؟ ما عليك إلا أن تضع بإحكام أصابعك وإبهامك فوق تلك الخروق ، وأن تنفخ فى الغاب ثم تستمع إلى موسيقى عذبة . انظر ! ها هى المفاتيح !

— ولكنى يا سيدى لا أستطيع استخدامها بحيث تعطى صوتاً منسجماً ، وذلك ما لم أوهبه .

— إذا رأى تظن بي ؟ تريد أن تتخذني العوبة لك وقد لاحت عليك رغبة في معرفة مفاتيح نفسى ، تحاول أن تصل بها إلى سرى الدين ، وأن تحمل أوتار روحى على أن تعطى نغماتها على طول السلم ، ثم تعجزك هذه الآلة الصغيرة ، فلا تملك أن تحملها على أن تجود بما لديها من نغمات عذاب ؟ أتظن إذا أنه من الأسهل أن تلعب بى عن أن تلعب بالزمار ؟ وأحس هملت فى هذا الحوار . وأمثاله — وما أكثر ما حاور — بضرب من التفوق على الغير ، تفوقا وجد فيه من الرضى ما طامن من سخطه على نفسه وضيقة بتقاعده عن العمل . وكيف لا يطرب للعب بالأفكار والتغلب على الرجال وقد نمت ثقافته نمواً حمله على التحمس لكل فكرة يرسلها سافرة أو يطويها مستترة خلف ما ينشر فوقها عامداً من أغشية الجنون . هملت من رجال الفكر ، وهملت فنان يلعب دوراً ، وقد انغمس فى الأفكار كما انغمس فى الدور الذى يلعب ، فألهاه ذلك عن واجب العمل .

أو ما ترى عند ما يطول عهدنا بالدرس فنستمر فى تقليب الأفكار بعد أن يكون عهد العمل قد حان ، كيف أننا نفقد القدرة على العمل السريع الحاسم ، وننفق أوقاتنا فى التفكير فيما نعمل ، أو ما نريد أن نعمل ، نتناوله بالتحليل وتحديد ما بينه وبين أنفسنا من علاقات أدبية ، وبين قواعد الأخلاق ومواضع الجماعة ؟ وكذلك كان هملت ، فقد اتخذ من التفكير فيما يعرض له عيداً من أعياد الذكاء ؛ وإنه ليحلوه أن يقيم من كل جزئية حكماً عاماً أو مبدأ شاملاً ، وإنه ليمر عند عودته من إنجلترا بإحدى المقابر ، فيتمهل ليبادل الحفارين حواراً عن مصائر البشر ، فيه من العمق ما يفزع ويملأ النفوس مرارة ! أو ما تسمع إليه يتحدث عن الأسكندر الأكبر ، وقد ذكره به ما يرى من جماجم .

« مات الإسكندر ، ودفن الإسكندر ، وارتد الإسكندر تراباً . والتراب من الأرض ، ومن التراب يصنع الملاط ؛ ولكن لم إذاً لم يستخدم ذلك التراب فى سد برميل بيرة بدلا من خلق الإسكندر » .

وطال بهملت هذا التحليل والبحث وراء الممكنات — مقدمات ونتائج — حتى شقيت حياته وتفككت ، وحتى لم يعد يعلم ماذا يأتى وماذا يدع ، بل ما سر وجوده فى هذه الحياة أو حرصه على البقاء بها ؛ وتلك حالة نفسية يستحيل أن نعمل معها شيئاً . ومن منا لا يذكّر نجواه المروعة :

« كيف السبيل ؟ أموت أم حياة ؟ ! ذلك موضع النظر ، وما ندرى بعدئذٍ أيهما أنبل : أن نتلقى صاغرين سهام القضاء الجارحة ، أم ننهض للأمواج المحن ندافعها فنُدفعها ؟ وهل

الموت إلا نوم يضع حداً لآلام القلب وجراح الجسم التي لا عداد لها ؟ أليس في ذلك ما يغرى ؟ الموت نوم قد تتخلله الأحلام ؛ ولكن آه ! ترى أى أحلام تكون وقد طر حنا عناء الحياة ؟ ذلك ما يدعوننا إلى التردد ، وإن يكن فيه ما يمد من أجل محنتنا ، إذ من هذا الذى يستطيع أن يحتمل سياط الزمن وازدراءه وظلم الظالمين وصلف الكبرياء ، ووخزات حب عاثر ، وبطء تحقق العدل ، ووقاحة ذوى الأمر ، وإعراض من دوننا قدرة ، وهو يعلم أن باستطاعته أن يضع حداً لكل ذلك بضربة سيف ؟ ! من هذا الذى يقبل أن يحنى ظهره للأثقال وهو يئن ويتصبب عرقاً من عبء الحياة لولا خوف ما بعد الحياة ؟ ومن بعدها بقاع مجهولة لم يعد منها مسافر قط ، خوف يفل منا الإرادة ، فنفضل راضين آلاماً نعرفها على آلام نجعلها » .

وهكذا ما يزال هملت ينعم النظر فى الحياة ويستوضح كنهها ، بل وما بعد الحياة ، حتى تتساقط من نفسه كل القيم ، ويدلف إلى الإيمان بالعدم المطلق إن كانت نفسه لا تزال تستطيع إيماناً . ألا تراه يتنكر لذلك الحب الساذج الذى خيل إليه يوماً أنه مؤمن به راض عنه مطمئن إليه ؟ ! استمع إليه يخاطب أوفيليا التى طالما سألها أن تدعو الله فى صلواتها أن يغفر له ما أخطأ فيه :

« إلى الدير ! فبم حرصك على أن تصيرى أمّا لآثمين ؟ ! ها أنا فيما أظن رجل شريف ، ومع ذلك فباستطاعتى أن أتهم نفسى بآثام يخيل إلىّ معها أنه ربما كان من الخير أن لم تلدنى أمى . وأنا رجل مسرف الكبرياء ، مأخوذ بشهوة الانتقام ونزعات الطموح ، رجل قد أخذت بتلايبيه مغريات بالشرأ كبر من أن يحتويها فكر أو يتصورها خيال أو يتسع لتحقيقها زمن أى نفع يرتجى من رجل مثلى يزحف بين الأرض والسماء ؟ ! إننا جميعاً أوغاد جنباء . حذار حذار أن تثق بأحد منا ! هلمى ! حتى الخطى ! إلى الدير ! إلى الدير ! » .

أى مرارة أقسى من تلك ؟ ! وماذا يستطيع رجل نفذت بصيرته إلى أعماق الحياة فلم ير فيها إلا ظلاماً ؟ ماذا يستطيع رجل حطم عقله حياته ؟ ! ماذا يستطيع رجل فقد الثقة فى كل شيء ؟ !

هنا بلغت مأساة هملت أقصاها ، وقد آمن أن لا خير فى الحياة ، ولا خير فى وجوده بها . وإنا للتمسسون له العذر . فتشاؤمه له ما يبرره ، وإنه لتشاؤم نفس كبيرة ! هذه مأساة هملت ؛ ولكم كثرت من حوله الأقاويل : فمن قائل إنها مأساة جنون ،

ومن قائل إن هي إلا شهوة انتقام ، ولكم آتهم قوم بالعجز والتردد . وفي الحق إنهم لم يخطئوا .

ليست مأساة هملت شيئاً من كل هذا ، وإنما هي مأساة رجال الفكر ، أولئك الذين اتسعت عقولهم لكل شيء ، فنفذت بصائرهم إلى حقائق الحياة ، وتشعبت بهم أوجه الرأي فتحطمت بين أيديهم حياتهم التي اتخذوها موضعاً للدرس والتحليل . ألا ترى إلى بسطاء الناس كيف لا يرون من الأشياء إلا جانباً واحداً ، فيسرعون إلى تنفيذ ما اعتزموا ، بينما تلمح العقول الكبيرة في كل أمر ألف جانب وجانب ، فما تزال أحياناً حائرة مترددة حتى تقف في مكانها إلا أن يكون قضاء محتوم .

ألسست

Alceste

ألسست بطل كوميديا لموليير اسمها « عدو البشر » ، ولكن هذا العنوان لا يستنفد كل ما اجتمع لتلك الشخصية من صفات . وإلى اليوم لا يزال الناس يختلفون في الحكم على هذا الرجل : فمنهم من يؤيده ومنهم من يضحك منه . وفي الحق أنه لأمر شاق أن نعرف أى الطريقين نسلك : أنحيا حياة ألسست موطين العزم على ألا نقول إلا ما نؤمن به ، بل وأن نقول كل ما نؤمن به ، ولو كان في ذلك شقاؤنا ، وأصبحنا به موضع سخرية الناس أجمعين ؟ أم نصانع الناس ونداريهم ونزل على مواضعهم الاجتماعية مهما يكن خلفها من ملق ونفاق كما فعل « فيلانت » Philinte صديق ألسست في نفس المسرحية ؟

ولو أننا سألنا موليير نفسه جواباً لحيرتنا للزم الصمت قائلاً : « دونكم وقائع الرواية ، أنطقوها بما شئتم ، فما أنا إلا مصور بالقلم ، وقد أتيتكم بصورة من الحياة ، لى فيها من الفضل ما لكل مصور في اختيار الموضوع وتوزيع الظلال والأضواء وتحسس كل لون دال . ولو أنني كنت على بصيرة من حكم أستطيع أن آتيتكم به لفعلت ، ولكني مثلكم حائر لا أدري أى سبيل أسلك ، فيالكم من كسالى ! لقد فتحت بصرى على الحياة فرأيت ألسست يتخبط خلالها ، ورأيت الناس يضحكون منه ، وإن يكن في خلقه وفي قوله ما يدعو إلى التفكير العميق ، وحاولت أن أتخذ منه موقفاً يحمل حكمى عليه أو له فلم أستطع ، ولهذا أتيتكم به لتروا ما رأيت ، ولكم أن تحكموا بما تريدون . وأما أنا فلا أطلب إليكم إلا أن تعفوني من المصارحة برأى ، فقد رأيت الصراحة تودى بأهلها إلى التهلكة . ولا أزال أذكر ما كان من تكالب رجال الدين ضدى عند ما عرضت على الجمهور أمر ذلك القسيس « ترتيف » الذى هداه نفاقه إلى استغلال سذاجة البشر أشنع استغلال ، فهاجت ثأرتهم ، وكأني بكل منهم ، شأن من لا يثق بنفسه ، قد خشى أن يكون هو ذلك القسيس . وأنا الآن فى أزمة نفسية تكاد تهد كياني ، فهأهى زوجتي تحتمى وراء المجاملات الاجتماعية لتثير فى نفسى الغيرة تكويني بنارها كياً . ألا دونكم ما كان من أمر ألسست ، فاقضوا فيه بما ترون ، وأما أنا فيكفيني جهداً ما كان من رؤيتي ما هو واقع تحت بصرنا كل يوم ، وما كل مبصر بصير . »

ولكننا قد نعود فنسأل : ترى كيف يعرض مولير ألسست عدوا للبشر ، وتلك جريمة شنيعة ، ثم لا يعد له من جزاء غير الضحك يثيره في نفوس الناظرين ، وإن كنت أحسب أن منهم من لا تطاوعه شفتاه ؟ يا للعجب ! رجل يكره البشر ثم لا يورده البشر حتفه ! ما السر في ذلك ؟ لعل البشر على حقهم قد ألهموا أن من يقسو عليهم قد يكون أرفق بهم ، وأحذب عليهم ، ممن يطالعهم بابتسامة تطول ملازمتها للشفاه حتى تفقد كل ما لها من معنى . ولعل أحداً منهم يصيح مع روسو : « ليس عدواً للبشر من يفضح عيوبهم ويهاجم رذائلهم فما يفعل ذلك إلا لعنايته بأمرهم ، وإلا لجاز أن نعتبر الأب العطوف يحب أبناء الآخرين أكثر من أبنائه هو لأن نقائص هؤلاء تثيره بينما يسكت عن نقائص الآخرين . وإنما يعد عدواً للبشر ذلك الذى يضافى الكل ويروقه كل ما يرى ، فيكون في موقفه من الناس ما يشجع الأشرار على شرورهم ، ويتملق فيهم تلك الرذائل التى تهد من كيان المجتمع . تراه يعلن رضاه عن كل ما يرى ويعتبره حسناً ، لأنه لا يحرص على أن تسير الأمور إلى الأحسن ، كما يصيح بإعجابه بالكل لأنه لا يأبه بأحد . ينكر أن من الناس من يتضور جوعاً ما دام هو جالساً إلى مائدة حافلة ، ويستنكر أن يدعوه أحد إلى عون فقير ما دام جيبه مليئاً . يغلق منزله ليرى من النافذة غيره يُسرق ماله ، أو تُقطع أوصاله ، وما عليه من كل ذلك وقد وهبه الله رقة في القلب يتحمل بها آلام الآخرين !!! وما له يحرك ساكناً ، أو يصل الشر إلى حيث يشوى ؟ ومثله مثل ذلك الإيرلندى الذى أخبر يوماً أن النار قد شبت بالبيت الذى يسكن فأجاب : وما يعنينى من هذا وما أنا بمالكه ؟! حتى إذا وصلت النار إلى فراشه ، انطلق يعدو ويصيح ، وقد أخذ يدرك أنه من الخير لنا أن نغنى بأمر البيت الذى نأوى إليه ، ولو لم نكن له مالكين » .

ذلك ما قد يقول قائل منهم ، وإن كنت أخشى أن ينهض خب من بينهم فيحاجهم ببعض ما قال روسو نفسه ، ذلك الرجل الذى نفذ إلى خفايا النفس البشرية لطول ما أمعن النظر في نفسه الخاصة ، إذ قال : « إننا كثيراً ما نتسقط عيوب الغير ، ونبحث عن دوافعهم الخفية التماساً للذة نجدوها في الكشف عن فساد نفوسهم فنرضى عن أنفسنا » ولعله يضيف : « ونحن بعد نحيا في مجتمع ، فلا بد لنا من النزول على مواضعاته ، وقد جرت سنة البشر على أن يجامل بعضهم بعضاً ، وأن يتحمل بعضهم بعضاً ، وما كل قول يقال . وإنما لضرورة من ضرورات الحياة أن نناقى أحياناً ، وأن نوارى ونخادع ونداهن ونكذب إن أردنا النجاح في الحياة . وهبنا نكره هذا الفرد أو ذاك ، أما علينا أن نتصنع ابتسامة نلقاه بها إن لم يكن بد من لقائه ؟ ومن يدرينا ؟ لعل الابتسامة التى نروض أنفسنا عليها تصبح فينا

طبعاً يحملنا على احتمال من نكره . ذلك ما قد يقوله الحب ؛ وأهول ما أخشاه أن تناصره كثرة الناس ، وقد أورثنا ما نملك من ذكاء جنباً في النفس ما له من علاج . نعم ، الذكاء ، وهل الذكاء كما يقولون إلا قدرة على ملابسة الواقع والنزول على حكمه والميل معه أينما سار ؟ وهل أخبث منه ملكة وهو يلتمس لكل خطيئة من خطايانا مبرراً يسكت به صوت الضمير أو نفعاً يكف به الأفواه ؟ ومن منا لا يذكر قول برجسون : « إن الدين والأخلاق ما هما إلا رد فعل تنهض به الغرائز لتقوم ما ينزله بنا الذكاء من تقويض لدعائم الجماعة وهدم لمقوماتنا الشخصية » ؟ على أنه إن يكن لنا عزاء فلا أراه في غير تلك الحقيقة الجميلة : وهي أنه لا يزال ولن يزال هناك نفر قليل هم هدى البشر وطلائهم ، قد أودع الله في قلوبهم ناراً تحرق ذلك الذكاء المدمر ، نفر يصمدون في الحق يرفعون ألويتهم ، وما يعينهم أسخر الناس منهم أم أعجبوا بهم ، وفي عملهم هذا من النبل ما يجعله حقاً أن نتهمهم بأنهم إنما يثبتون مع الحق ويجرحون نفاق المنافقين التماساً للذة يجدونها في التفوق على الغير .

من هذا نفر فيما أعتقد ألسست . والآن وقد شوقتك إلى معرفة ما كان من أمره فلا أحدثك عن فعاله لنشترك في الحكم سوياً .

ألسست في الخامسة والعشرين من عمره عندما تبدأ مأساة حياته . دلف إلى الوجود بضمير نقى صلب ، وقد وطد النفس على مطاردة الكذب أنسى كان ، وعلى الجهر بالحق في كل مجال . ولم يغب عنه أن الكذب ملء الآفاق وأن مهاجمته تتطلب جهداً لا ينقضى ، ولقد حدث عما في قول كل حق من خطورة على قائله وعلى الغير ؛ ولكن قوة ضميره تأبى أن تلين . ومن غرائب المصادفات ، بل قل ومن أمارات غموض النفس الإنسانية ، أن أوقع هذا الساخط المتمز « بسليمين » : امرأة لعوب تتصيد إعجاب الرجال وكلمات إطرأهم ، على نحو ما يجري في الأوساط « الراقية » ، وقد اتخذت لذلك عدته ؛ ففي حركات وجهها وابتسامات شفتيها وجرس ألفاظها من التكلف والصنعة قدر ما في ألوان وجهها وأصابع شعرها . فلئن كان ألسست ضميراً ينطق بمكنونه صادقاً صريحاً ، فسليمين أ كذوبة اجتماعية تتحرك !! ومن عجب أن يحبها ألسست حباً صادقاً عميقاً ؛ يحبها لعيوبها ، ولكنه ساخط على نفسه ، إذ حمله هذا الحب على أن يغضى عن مبادئه ؛ ولكم كان أجدر به أن يتخير لحبه امرأة تتمشى وآراءه . أما وقد ساقته نفسه إلى غير ما ينبغي له فليحاول إصلاح تلك المرأة وليقل لها في صراحة وحزم ما يؤلمه من أمرها .

على هذا وطد ألسست عزيمته : ها هو يسير إلى بيت « سليمين » فيعثر في الطريق

بصديقه « فيلينت » — شاب من سنه أتى الحياة بنفس راضية تقبل الناس كما هم ، يتسم لكل من يلتقى ، ويجمال كل من يصادف بمهارة تمكنه من الحياة وسط الأكاذيب الاجتماعية في يسر لا يعدله يسر .

ووصل الصديقان إلى بيت سليمان فلم يجداها ، فهاجت هائجة ألسنت ، وأما فيلينت فتلقى الخبر بابتسامة راضية ، ودخل الرجلان إلى غرفة الجلوس حيث انتحى ألسنت ركنًا ، وقد عبس وجهه وأمسك برأسه بين يديه كأنه يمسكه عن أن يطير شظايا ؛ وكان فيلينت يعلم منه ذلك ، ولكنه رآه هذه المرة أشد عبوساً مما عهد . ألم يأت ألسنت هذا اليوم خصيصاً لينفض ما في نفسه وقد نفذ صبره وأزمع على أن يصل مع سليمان إلى أمر صريح يرضاه ؟ أتى بعد أن أعد ما سيقول ، وإنه لفي لهفة لأن يقول ما أعد ، ولكن لمن يقوله وسليمان خارج البيت وهو لا يدري أين تكون ؟ .

وهال فيلينت ما يرى من ضيق صاحبه فسار إليه مرتباً على كتفه متسائلاً :
 فيلينت : ما بك ؟ ما الأمر ؟ .

ألسنت : (متمماً دون أن يحرك ساكناً) أرجوك ! . . . اتركنى لشأنى !
 ولكن فيلينت يلح عليه فى السؤال فيصيح ألسنت مغضباً . دعنى وشأنى — قلت لك — اختف عن بصرى !

وأراد فيلينت أن يستوضحه الأمر فذكره بصداقتهما ، ولكنه لم يكذ ينطق بتلك الكلمة حتى قفز ألسنت من مكانه ووقف أمام صديقه وهو يصيح مغضباً : أنا صديقك !! أمح هذا من دفاترك ! ربما قد كنت صديقاً لك يوماً ما ، أما اليوم وقد رأيت منك ما رأيت فلا أريد أن أكونه ، وما أريد أن يكون لى أى مكان بتلك القلوب الفاسدة .

ودهش فيلينت لهذا الغضب الطارىء ، وألح على صديقه أن يخبره بما كان منه ، فقال ألسنت : إليك عنى ! أو ما تموت خجلاً مما فعلت ؟ إن فى فعلتك ما لا يمكن أن يلتبس له عذر . إن فيها لما يثير حفيظة كل رجل شريف : تلقى رجلاً تغمره بلطفك المسرف ، وأيمان ودك ، وسخاء نفسك ، وتورطه بثورة قبلاتك ، ثم لا يكاد يولى فأسألك من الرجل فلا تستطيع أن تخبرنى حتى باسمه ! ! وكأنما حرارة قلبك قد بردت بمجرد افتراقكما ! يا لها من ندالة ! إلى هذا تنزل بنفسك ؟ ! إنى أفضل أن أشنق نفسى على أن آتى فعلة كفعلتك هذه .

ويضحك من بالمرح ؛ وإلى إثارة هذا الضحك قصد مولير ، وإلا لاتهمه لويس الرابع عشر ، وكل من حوله من أنه اف بمهاجمة آداب اللياقة « الكاذبة » التى كانت

فرنسا تفخر بها في ذلك الزمن .

ويتلطف فيلينت مع صديقه لأنه يعلم ما في نفسه من طيبة لا شك فيها ، فتلين عبارات ألسست وتترن كلماته : « أريد أن يكون الإنسان صادقاً مخلصاً لنفسه ، فلا يقول إلا ما يؤمن به قلبه » .

ومن يستطيع أن ينكر نبل هذا القول وصدقه ؟ أو ما ترى إلى المخلصين من الناس كيف يقسطون في اللفظ ؟ ولكن فيلينت يحاول في عبارات هينة لينة أن يحمل ألسست على الإقرار بأنه يجب أن تُرد المجاملات بمجاملات مثلها ، إذ أننا بعملنا هذا لا نسيء إلى أحد ، ولكن هيهات أن يبلغ من ألسست ما يريد : « لا لا ! بل يجب أن نقسو ما استطعنا على هذا التظاهر الباطل بصدقة لا تؤمن بها . يجب أن نكون رجالاً في كل مقام ، نجهر في ألفاظنا بمكنون نفوسنا — يجب أن تنطق نفوسنا لا ألسنتنا — يجب ألا نخفي حقيقة مشاعرنا تحت بهرج المجاملات » .

إلى هنا يستطيع نفر غير قليل من الناس أن يسلم بما يطلبه ألسست ، ولكنه لا يقف عند هذا الحد ، حد ألا نقول غير ما نعتقد ، بل يذهب إلى أبعد من ذلك ، ويطلب أن نقول كل ما نعتقد ؛ وفي هذا لا ريب ما يقوض حياة اجتماعية دعائمها لو تأملنا أكاذيب صارخة . ويأتي إلى البيت زائرون آخرون فيسارع ألسست إلى إخبار أحدهم بأنه متطفل دخيل وإلى الأخرى بأنه قبيح بامرأة عجوز أن تزين تمويها لجمال فقدته منذ زمن بعيد . ويستنكر الناظرون منه ما يفعل ، ويسخرون من قبحته ؛ ولكنه لا يأبه لهم ، وفي قرارة أنفسهم أن الناس أغلبهم منافقون جديرون بالبغض ، وما دام هذا هو شعوره نحوهم ، فمن أين يأتيه الحرص على رضاهم أو إعجابهم ؟

وفيما نحن نرى ألسست يسرف في تطبيق مبادئه ليؤكدها ، وليضحك فينجو مولير من الاضطهاد ، يأتي الشاعر « أروننت Oronte » ويدور حوار بينه وبين ألسست ينتهي بأن يخرج أروننت من جيبه مقطوعة شعرية من ذلك الشعر المتكف الرخو البارد الذي ينظمه أصحابه ليسمعوه لأولئك النساء المتحذقات الخاويات النفوس ، ويختتم مقطوعته بالبيتين : « أيتها الحسناء ، إننا لنف يأس وإن كنا لن نزال نأمل » وتثور نائرة ألسست فيوصي شاعرنا أن يحمل مقطوعته إلى « المرحاض » ؛ وليظهره على مبلغ تكلفه الباطل يسمعه مقطوعة ساذجة جميلة من الشعر القديم .

وتضج قاعة المسرح بالضحك الذي لا تهدأ له نائرة حتى تدخل سليمين عائدة من المدينة .

وليتصور القارىء بأية حالة نفسية مريرة يلقاها ألسست : « لا ياسيدتى ! أتريدى أن أصارحك القول ؟ إن فى سلوكك ما لا يمكن أن أرضاه . . . الخ » .

والحاضرون لا شك متسائلون . بأى حق يغضب ألسست ربة الدار وهو ضيف بمنزلها وما له أن يقف منها موقف المؤنب . ولكن ، أو ما يحب ألسست سليمين ؟ ومتى كان الحب يعرف حقوقاً لأحد ؟ ثم ماذا يريد ألسست ؟ أليس يقصد إلى الخروج على آداب المجاملة لأنه يؤمن بكذبها ؟ وهل يستطيع ألا يخرج على تلك اللياقات الزائفة ؟ لكم كنا نود لو كانت ثورة ألسست موجهة ضد ما فى صميم الأخلاق من نفاق ، ولكننا نطلب بذلك إلى مولير أن يغير روايته من كوميديا إلى تراجيديا ، وهو بعد يتخذ من الإضحاك تقية ؛ وهو يحيا فى مجتمع سطت عليه آداب المجاملة ، حتى اختلطت بقواعد الأخلاق الإنسانية ، وأصبح من العسير أن نقيم بين الميدانين حداً ينفك . ليتر إذاً ألسست ضد مواضع اللياقة وليضحك منه الجمهور ؛ ولكن من منا لا يحس بما قصد إليه مولير ؟ ومن منا لا يفتن إلى ما تركه لنا هذا الروائى الذكى الفؤاد من وجوب التماس مقاصده البعيدة خلف هذا الإصراف المضحك ؟! وما تكاد سليمين تعود إلى منزلها حتى يواتيها به جمع حافل من المراكيز المعجبين بها المتملقين لجمالها ، فتزداد ثورة ألسست ؛ وتنتظم الجماعة حلقة تأخذ فى اغتيال الناس ، وألسست يرقبهم عن بعد ونفسه تغلى غيظاً . ولكن فيم يريدون أن يتحدثوا ؟ أفى السياسة وفى ذلك ما فيه من خطر ؟ أم فى الثناء على الناس ، وليس أمل من الثناء ؟ أم فى الأفكار العامة وهم لا يملكون منها شيئاً ؟ ليس لهم إذاً إلا اغتيال « معارفهم » ، وهذا هو النوع الوحيد من الحديث الذى يمكن أن يأخذ فيه قوم على شاكلة هؤلاء فيجدون فيه شيئاً من اللذة . وتضيق نفس ألسست بما يسمع ، فيحاول أن يلقي تبعته على المراكيز ، ولكنه لا يلبث أن يواجه سليمين نفسها برأيه : « لا ياسيدتى ، إن فى مسراتك ما لا يمكن أن أقبله ، وإنه لمن الحق أن نحب فيك نقائص نمتتها » . وهكذا يلزم ألسست الحضور الصمت وينفذ صبر سليمين فترغب فى الخروج إلى الشرفة ، ويحس المراكيز منها هذا الضيق فيهمون بالانصراف ، ولكنها تمسكهم تأدباً . ويغضب ألسست من ذلك فيعلن أنه لن يخرج إلا إذا خرجوا جميعاً .

وتضيق بالحاضرين أنفاسهم ، وسليمين صابرة كاظمة غيظها ، ويتحرج الموقف ، ويتساءل الجميع : كيف السبيل إلى الخلاص ؟ ويأتى ألسست رسول من قبل رجال الإدارة يطلبه لأمر ما ، ويحسب الحاضرون أنه سيخرج لما طلب له ، ولكنه يكذب ما يتوقع

الجميع ، إذ يدعو الرسول إلى الدخول بحجرة الجلوس . وبعد حوار بينه وبين الرسول يخرج ألسست ؛ وبهذا تنتهى الرواية ، ويخلو الجو لسليمين والمعجبين بها يتبادلون عبارات المجاملة المعسولة .

يخرج الحاضرون وهم يتساءلون عما قصد إليه مولير — إن فى تصرفات ألسست ما يخرج وما يضحك ، ولكنه إسراف فى قضية عادلة ، إسراف قصد منه إلى إثارة الضحك ، وهل نحن نضحك إلا مما يخرج عن مألوفنا ؟ وهل الضحك إلا جزاء تقوّم به ما يخرج فى حياتنا عما يجب أن تطرد عليه فى عرف المجتمع ؟

غادر ألسست تلك الجماعة التى لم يستطع أن يحيا بينها ، وما أشبهه فى هذا بذلك المبصر الذى انتهى به المسير يوماً إلى مملكة العميان ، فأخذ يحاول عبثاً أن يقنعهم أن هناك ضوءاً ، وأن فى هذا الضوء جمالاً ؛ فأبوا واستنكروا وضعفت وحدته أمام جمعهم ، وقد تعاقب العمى فيهم جيلاً بعد جيل ، حتى أصبحوا لا يؤمنون بغيره ، فطلبوا من المبصر أن يفتأ عينيه ليصير مثلهم فيزوجوه من تلك الفتاة التى أحبها ؛ ولكن هل لبصير أن يغادر الضوء لأن جميع من حوله عميان ؟ أو ليس من الخير له أن يغادر جماعتهم عن أن يغادر الضوء ؟

غادر ألسست المجتمع البشرى لما فيه من كذب ونفاق وجبن ؛ وما ندرى أين يستطيع أن يعيش . ولكن ، هبه لم يجد مأوى غير الصحراء ؟ أليست صحراء يملأها المرء بما فى قلبه من حب صادق للشجاعة والاخلاص وقول الحق ، خيراً من قصور لاتهب فيها إلا رياح النفاق وبؤس النفوس ؟ ؟ ؟

بيتريس

Beatrice

سنة ١٢٦٥ — سنة ١٢٩٠

(١)

في عهد الشباب Vita Nova

« عندما نسمو من مظاهر الجمال الدنيا إلى الجمال الكامل نلمح ضياءه ، نحس أننا قد دنونا من الحب . وفي الحق ما الحب إلا شوط نبدأه مما فوق هذه الأرض من جمال ، والبصر منعقد بالجمال المطلق ما يزال يرتفع إليه درجة فدرجة على طول السلم : من جمال الأجسام إلى جمال المشاعر ، ومن جمال المشاعر إلى جمال الأفكار ، حتى نصل إلى المعرفة المطلقة التي هي إدراك الجمال المطلق . إدراك ذلك المثال الخالد الذي تمنح مشاهدته الحياة قيمتها » .

بذا يتحدث سقراط في مائدة أفلاطون عن مراحل الحب الذي هو سعى وراء الكمال ، وإليه وصل « دانتي » Dante يقوده جمال « بيتريس » ولكن ترى أحقيقة ما يقول سقراط ، أم هو أفلاطون ذلك الحالم الأبدى يرنح بؤس الحياة في أنسجة جميلة من الخيال ؟ ثم ما بال دانتي ، وقد رأى في النفس البشرية « طفلة تجمع فيها النزوات بين البكاء والابتسام » يثبت على حب تلك الفتاة الرائعة ، فإذا هي تستحيل رمزاً للإيمان ، وإذا هي تلوح له في الجنة ، وقد انتشر من حولها ما تشع من ضياء هي منه كالطائر من العش ؟

يا عجبا ! فتاة صغيرة ترسل ابتسامتها إلى هذا القلب الكبير ، فترتد الابتسامة شعراً كم هز من نفوس ، وقد سكن دانتي إلى قلب بيتريس يغمره ضياؤه ، فإذا به قبس من شعاعها ؛ وإن يكن قد دفع ثمن هذا السكون الذي لم يركن إليه إلا منهكا ، وقد ألقته أمواج الحياة إلى شاطئ النفي ، ولكم استشعر من ألم « في أن يرقى سلماً إلى الغير ، ولكم وجد من مرارة فيما قدم إليه من خبز » ، ولكم التمس عن محنته عزاءً في ابتسامة بيتريس تطالعه من غفوة الأحلام فيصوغ ابتسامتها جمالاً فيه أعز نشوة ، نشوة الخلق .

ولدت بيتريس مع دانتي سنة ١٢٦٥ بمدينة فلورانس مهد الفن الجميل ، إذ أ كبر الظن

أن أحد أبناء الشاعر قد كشف القناع عن حقيقتها التاريخية ، عند ما أخبرنا أنها بنت فولكو پورتنارى Folco Portinari أحد أغنياء المدينة إذ ذاك ، ورآها الشاعر لأول مرة في حياته وهما في التاسعة من عمرهما ، ومنذ ذلك اليوم لم تفارق نفسه وعنها تحدث أجمل الحديث في مجموعة من الشعر والنثر Vita Nova « عهد الشباب » حيث التمس لما قال من شعر مناسبات يقدم لها نثراً ، فإذا نحن أمام قصة اختلط فيها الأدب بالحياة كما اختلطاً بنفس دانتي ، التي اهتزت لكل شعور ، واتسعت لكل معرفة . قال : « رأيتها في ثوب أحمر جليلة متواضعة ، وقد علق حزامها الثوب فيما يئم عن طفولة خالصة ، فاهتزت في قباب قلبي الخفية روح الحياة ، وسرت تلك الهزة العنيفة بأوعية دمي ماذق منها وما جل ، وصاحت بي روح الحياة : ها هو إله أقوى منك سلطاناً ، ها هو قادم ، وإله الخضعك . ومنذ ذلك الحين مازج الحب نفسى التي أضحت أسيرة له ، وزاد من سلطانه ما منحه خيالى من قوة ، حتى لم أستطع إلا أن أذعن له في كل أمر ، ولكم عدوت في الطرقات وأنا بعد غض الالهاب خلف تلك الحسناء ، ولكم رأيتها قادمة وفيها من الجلال والنبيل ما يحق معه أن تقول فيها ما قال هوميروس : في الحق أنها لا تلوح بنت بشر ، بل بنت إله » .

ولقد وصفها بوكاشيو بقوله : « كانت جميلة حتى لتسبى النفوس — جميلة بطفولتها ، وبما امتزج فيها من جلال ودعة ، تحس في حديثها وفي طبائعها من الوقار والتواضع ما لا يتفق عادة للأطفال ، وفي ملامح وجهها رقة وانسجام . لقد اجتمع لها من الجمال والسحر ما حمل الكثير على الاعتقاد بأنها ملك لا بشر » .

وبالرغم مما كان بين أسرة بيتريس وأسرة دانتي أليجييرى Alighieri من صداقة قديمة يزعم الشاعر أنه لم يرفقته إلا بعد تسع سنوات أخرى ، حتى لكأن هذا الرقم ميزان حياتها . ولقد كان لكل حياة في ذلك العهد ميزان ، والرقم تسع أسه ثلاث رمز الثالوث المقدس ، مما ينبئ بما ستصير إليه تلك الفتاة — رآها هذه المرة في ثوب أبيض ، وهى مارة بإحدى الطرق ، وإلى مكانه اتجهت ببصرها وعلى شفيتها ابتسامة ، وتلقى الشاعر ابتسامتها بقلب خاشع ، وكأن الابتسامة فيض من رضا الله .

وعاد دانتي إلى منزله حيث خلا بنفسه كما يخلو عادة مثله ممن حرمتهم الأقدار عطف أمهاتهم منذ الصغر . وهل استطاع أحد يوماً أن يجد في زوجة الأب عوضاً عن أمه ؟ وطاردت دانتي ابتسامة الفتاة يراها في أحلام يقظته ، كما تعشى بصره في ظلام الليل ، حتى نحل جسمه ، وشحب لونه ، وأخذ الناس يسألونه ما به ، ولحجب أمارات لا تكذب ،

وسألوه : لمن يحمل هذا الحب الذى أضناه ؟ فلم يجر جواباً ، إلا أن تكون نظرة حائرة يصعدها فيهم ، ثم يولى هارباً ، وعلى شفثيه ابتسامة تترقق .

وجرت الألسنة بما كان من أمر حبه ، وود الشاعر لو خدع من حوله عن حقيقة ما يشعر ، فتراه طوراً « كالمعدم يتظاهر بالمرح ليوارى عن الناس ما به من ألم » وطوراً يصطنع ما اصطنع الشعراء من قبله فى مشارق الأرض ومغاربها من تقاليد الغزل ، فيتغنى بغير من يحب دفعاً للريبة ، ولئذ كر قول نعم لعمر بن أبى ربيعة :

إذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا لكي يحسبوا أن الهوى حيث تنظر

وكان على دانتي أن يسلك هذا السبيل . والتاريخ يحدثنا أن بيتريس فى سنة ١٢٨٥ كانت متزوجة بالفعل من سيمون دى باردى Simon dei Bardi ، وكان دانتي على الراجح قد خطب زوجته چمادوناتي Gema Donati ونحن عندئذ فى القرون الوسطى ، وبالرغم من ذلك لم يستطع دانتي أن يصرف قلبه عن تلك الفتاة .

ولكن ترى لم لم يتزوج دانتي من بيتريس ؟ ذلك ما لا يعلمه إلا الله . ولكننا نعلم أنه لم يقف عند حبه لبيتريس ؛ ولقد كان هذا الحب منذ نشأته شبه تقديس ، وكانت له مغامرات غلى بها دمه ، فأطلقت لسانه بغير صيحة وبخاصة فى غرامه المبرح بامرأة يسميها Pietra أى « الصخرة » . ومن عجب أن نستمتع إليه يوماً يشكو من أن تلك المرأة قد استقرت برأسه « كما تستقر الأزهار بأعلى سيقانها » ، ولكم ألم لهذا الحب العنيف . ولعله لم يصب التوفيق فى حبه لبيتريس ، فالتمس عنه بديلاً ، وإلى هذا تشير بعض أشعاره . ألم يقل يوماً : « ما تزال صورة تلك الفتاة متربعة بقمة أفكارى حيث قادها الحب ، وما يحزنها ما أنا فيه من ألم ، وإنها لمغتبطة ضاحكة . ترفع إلى بصرها يدعو روحى إلى الرحيل قائلاً : إليك عنى ! إليك عنى ! هذا ينطق موضع رغباتى فيحز الألم فى نفسى ، وإن تكن وطأته قد أخذت تخف ، إذ أن إحساسى قد أنهك وأوشك أن يصل إلى نهاية قدرته على الألم . عند ما لاحظت لى تلك الفتاة كنت غض الطفولة — هذا تحدثنى ذا كرتى التى أخذت تمحى صفحاتها . ومنذ ذلك اليوم لا أزال أقاى آلام الشهداء ، حتى لكأن صوتها الذى انطلق إلى فؤادى قد أمسك قواى عن النمو » .

وعلى من يصدق هذا القول إن لم يكن على بيتريس ؟ ترى إذا أشقى دانتي بحبه لبيتريس حتى إذا ماتت سنة ١٢٩٠ طهر الموت حبه فاستحالت الفتاة ذلك الملاك الذى هدى الشاعر سبيل الكمال ؟

ذلك ما لا نستطيع أن نجزم به ، وإن كان في شعره ما يرجحه ، ولكننا نعلم عن يقين أنه قد تخطط في شهوات الحب ، كما تخطط في شهوات السياسة حتى شقت حياته ؛ وإلى هذا يشير في أول « جسيمه » عندما يقول : « كنت في منتصف الحياة وإذا بي وسط غابة مظلمة ، وقد ضللت الطريق . آه . ما أشقه على النفس أن تقول ماذا كانت تلك الغابة التي تجدد ذكراها آلامى ، وما أستطيع أن أقول كيف دلفت إليها ، ولقد كنت عندئذ في نوم عميق فحدث عن سواء السبيل » .

ولقد أنبته بيتريس لضلاله هذا أعنف تأنيب عند ما لاحث له على حافة الاعراف قبل أن تقوده إلى الجنة .

وفي الحق أن نفس دانتى كانت نفساً عنيفة صاخبة ، وفي الحق أنه قد انغمس في الحياة ، بل لقد بلغ من عنفه يوماً أن صاح في شعره وهو يشكو قسوة امرأة : « آه ! ليتنى أستطيع أن أمسك بتلك الضفائر الشقر التي صاغها الحب حلقات ذهبية ألقي بها حتفى ، إذاً لعرفت كيف أنتقم لنفسي ولأمسكت بتلك السياط التي طالما ألهمتني ، ولبقيت بين يدي من انبثاق الفجر إلى أن تدق نواقيس المساء ؛ ولن استشعر عندئذ رحمة ، بل سأكون كدب يلعب . وما دام الحب لا يمسك عن أن يسوطني بها فإلى لا أنتقم منها مرة وألف مرة ؟ وأما أعينها التي ترسل إلى قلبي هذه النار التي تحرقه ، فسوف أحرق فيها عندئذ عن قرب وأطيل التحديق جزاءً لها على الفرار مني ، ولن أزال بها حتى يجتمع فيها الحب والاستسلام » .

ولكنه رغم كل مغامراته التي مزقت نفسه لم ينس يوماً « بيتريس » بل ظل وفياً لحبها ، وإن يكن أكبر الظن أن سنة ١٢٨٥ — سنة زواج بيتريس — كانت بداً لمغامراته ، إذ أن ذلك مما يتمشى وطبائع البشر . ألسنت ترى أن المأقويماً أو حزناً ملازماً خليقان بأن يحطما في النفس كل قيادة ؟ ونحن نعلم أن دانتى لم يتزوج إلا بعد وفاة بيتريس .

نعم ظل دانتى معلقاً بابتسامة فتاته يستلهمها الشعر وكأنها ما تزال عذراء ، ولم لا ؟ ألم يتغزل يوماً قيس بن الرقيات بألم البنين ، رغم ما كان لتلك السيدة الجليلة من وقار ؟ ثم ألم يتغزل الماجن عمر بن أبي ربيعة بسكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة ، بل وبأخت الخليفة عبد الملك بن مروان وبينته ؟ وما دام الغزل عفيفاً فما الذي يمنع دانتى من أن يتسقط الشعر من شفاه بيتريس ؟ وإن لم يكن الأمر على تلك البساطة ، فلقد يضطر شاعرنا — عملاً بما يشبه وصية نعم إلى عمر — إلى أن يتغزل بغيرها تقيّة ، وتخشى الفتاة منه المروق عن حبها

فتغضب ، وتأبى أن تعود إلى تحيته إن لقيته بسبيل أو « يقول في شعر جميل ، إن تغزله بغيرها لم يكن إلا صرفاً لألسنة السوء ورداً لأعين الرقباء » .

وتلك ولا ريب تقاليد أدبية كم أفسدت على الشعر غايته ، وما كان لنفس قوية كنفوس دانتي أن تقف عندها . وإنه ليذهب يوماً إلى حفل يلقى به بيتريس على غير توقع ، فيلقى قناع الأدب المصطنع :

« لم أكد أدخل حتى أحسست بهزة عنيفة بجانب صدرى الأيسر ، وسرت الهزة إلى كل جسمي ، فاستندت إلى الجدار ، وخشيت أن يظن أحد إلى ما عراني ، فرفعت بصرى إلى السيدات المجتمعات ، وإذا بالبصر يستقر ببيتريس ، فتخاذلت قواى حتى لكأنى فقدت الحياة إلا من عيني » .

ولم يغب عن أحد ما أصابه ، وتغاض به الحضور ، فولى هارباً إلى منزله يفلق بابه ، ثم يسلم عينيه للدموع ، وانجلى أزمة نفسه عن سلسلة من القصائد الصغيرة (Sonnets) كم تغنى بمقطوعاتها شاعر الليلاه :

« ما أكد أراك أيتها اللؤلؤة الجميلة حتى تخمد فى نفسى كل قدرة على الكفاح ، وما دنوت منك إلا صاح بى الحب : إلى الفرار ، إلى الفرار ، إن كنت تخشى الموت . وينم وجهى عن لون نفسى ، وقد تخاذلت قواى ، فالتمت لها سنداً . . . على أن سخريتك قد قتلت فى نفسى ذلك الضعف الذى ينشر فوق عيني تلك السحابة الحزينة حزن الموت » .

ويلقى دانتي سيدات المدينة وقد عرفن سر نفسه ، فيقلن له وعلى شفاههن ابتسامة ساخرة قولاً أشبه ما يكون بما قالت نساء العرب يوماً للجميل :

ويقلن إنك قد رضيت بباطل منها فهل لك فى اجتناب الباطل

فيجيب دانتي إنه كان يريد أن يقف حياته على سعادتها فأبت ، وإذا فلينصرف إلى الإشادة بها ما ترددت أنفاسه :

« والآن وقد اتجهت رغبة السماء إلى فتاتى ، بودى أن أحدثكن عن بعض ما لها من فضل . على كل سيدة تريد أن يكسوها الجلال أن تذهب معها ، وهى ما تكاد تخطو حتى يجمد الحب القلوب الفاسدة فتموت فيها كل رغبة سيئة ، وما يرتفع إليها بصر حتى يفنى أو يرتد نبيلاً ، وأما أولئك الذين هم من السمو بحيث يستطيعون أن يرفعوا إليها بصرأ فأولئك هم الذين ينفذون إلى ما فى نفسها من جمال ؛ وما إن تبسّم لهم حتى ينتشر الرضا فى نفوسهم ، ويعمر الخير قلوبهم ، فينسوا ألم ما أصابهم من جراح ، وإن لتلك الفتاة لنعمة خصها بها

الله ، نعمة تمنع من يتجه إليه حديثها عن أن يضل سواء السبيل .

وهكذا استحوالت بيتريس في نفس دانتى رمزاً للكمال وسبيلاً إليه ، حتى لكانها فكرة أكثر منها إنساناً حياً . ومن لا يحس أننا نرقى الآن سلم أفلاطون ، ولم يعد في الفتاة جسم يرغب ، بل جمال روح يستجلى ، وما تعلق بها بصر إلا ارتفعت به إلى عالم المثل حيث يختلط الجمال والخير والمعرفة ، وأى غرابة في ذلك وقد بصر Brunetto Latini برينتو لاتيني — الذى تحدث عنه دانتى في الكوميديا بقلب كله خشوع — تلميذه بفلسفة أفلاطون . ثم ألسنا الآن بأزاء تقاليد الفروسية كما عرفتها القرون الوسطى ، عند ما كان الفارس الحق هو من يتخذ له سيدة يحبها في الخفاء حياً أشبه ما يكون بالعبادة ، حياً يستلهمه البطولة كما يتلقى عنه وحى الشعر ؟ وسيان بعد ذلك أرغبت السيدة في حبه أم لم ترغب ؛ بل سيان أكانت حقيقة أم من خلق الخيال . وأى سيدة تستطيع نظراتها أن تسقط شهوات النفوس لتحل محلها نور الإيمان ، إن لم تكن العذراء التى اختلطت عبادتها في نفس دانتى بحب بيتريس . وهكذا اجتمعت في فتاتنا كل تيارات الروح التى شاعت في القرون الوسطى ، فتركزت في نفس دانتى التى تمثل ذلك العهد في أعظم مظاهره حتى لكانها نقطة الانقلاب بين عالمين .

ومع ذلك لمت أبو بيتريس ، وها هو ذا دانتى يحزن لحزنها ، ويود لو اتجه إليها بقلبه يشاظرها آلامها ؛ ولكن كيف السبيل ، ولم تدع السنة الناس إليها سبيلاً ؟ ليس له إلا أن يستفسر عائداتها عما صارت إليه ، وقد أضنتها الأحزان . وحزن دانتى لحزنها حتى مرض ؛ وفيما هو يهذى رأى فيما يشبه أحلام اليقظة أن بيتريس قد لحقت بأبيها .

« ولم تكذ تلك السيدة تنتقل عن عالمنا حتى لاحت لى المدينة وكأنها قد تيممت بموتها ، وكأنى يومئذ أصبح بأمرء الأرض كما صاح جيريمى في الكتاب المقدس : كيف للمدينة أن تحيا بدونها . »

ومات بالفعل بيتريس ، وهى في ريعان الشباب سنة ١٢٩٠ في الخامسة والعشرين من عمرها ، « ماتت لأن الجنة كانت بحاجة إليها لتضمها إلى ما تحوى من حور » ماتت ، ولكنها بقيت حية بقلب دانتى ، بل لربما ازدادت بموتها حياة ، وقد حطم الموت ما كان يغل من حماسه لها أو يقص من أجنحة خياله ، وأخذ دانتى يتعهد ذكراها ، ولكم جنبته تلك الذكرى من عثرات . ألم يمر يوماً بأحد المنازل ساهم الفكر حزين النفس ، وإذا بامرأة جميلة تشبه بيتريس تنظر إليه من نافذتها ، وفي نظرتها حنو ضعفت له نفسه حتى أوشك أن

يتردى في حبها لولا أن لاح له شبح بيتريس .

« كان الوقت أصيلاً . . . ولاحت لى بيتريس الخالدة في ثوبها الأحمر الذى رأيته فيه قديماً طفلة عند ماقع عليها بصرى لأول مرة ، وما كدت أتجه إليها بفكرى حتى عادت إلى ذكرياتها ، فهب الندم بنفسى أليماً ، وولت عنى تلك الرغبة الأثيمة التى أوشكت أن تضل بي عن سبيل الهدى ، ومنذ ذلك الحين لم تعرف أفكارى غير بيتريس لها مستقراً » .

على أن الأقدار لم تشأ أن تهدأ لدانتى نفس ، وكأنه قد حاول أن يملأ ما تركته بيتريس في حياته من فراغ ، فأخذ يتردد على صالونات فلورنسا يغامر فيها ما استطاع حتى عاف هذا العبث الباطل ، فانصرف إلى السياسة ابتداءً من سنة ١٢٩٥ ، وكانت إيطاليا في ذلك الحين منقسمة إلى حزبين كبيرين حزب الجيبلان Gibelins وهم جماعة الأشراف الحريصين على المحافظة على النظام الإقطاعى يعتقدون أن أسسه لن تثبت ما لم يؤيدها الإمبراطور بسلطانه ؛ ثم حزب الجلف Guelfes وهم رجال الطبقة الوسطى الذين يفارون على حرية المدن وحرية الأفراد ، ويرون في بسط نفوذ البابا ما يحقق آمالهم السياسية . وكان دانتى من أتباع هذا الحزب الأخير ؛ ولكن الأمر لم يكد يستتب للجلف بعد هزيمة أعدائهم حتى انقسم الحزب المنتصر شطرين : بيض ، وسود ، وأخذت شهوات النفوس تلعب دورها ودارت معها العقائد ، فانطوى السود تحت لواء البابا ، واتهموا البيض أعداءهم بملائة الإمبراطور ، وانتصر السود في المعركة ، فشتتوا شمل البيض ، ومن بينهم دانتى ، إذ حكموا عليه بالنفى سنتين في ٢٧ يناير سنة ١٣٠٢ ، وبغرامة قدرها خمسة آلاف جنيه ، بل عادوا في ١٠ مارس من نفس السنة فاستبدلوا بحكمهم هذا حكماً أقسى ، يقضى بنفى دانتى نفيّاً أبدياً ، بل بإعدامه حرقاً إن وقع بين أيديهم ؛ وكان دانتى إذ ذاك لحسن الحظ بعيداً عن فلورنسا ، فأفلت من الموت ، ولكنه لم يفلت من النفى الذى شقى به شقاءً يكاد يعدل الموت .

وأخذ دانتى يجوب بقاع إيطاليا يحسن وفادته قوم ويتنكر له آخرون ، وقد أمل يوماً أن يكون مع من نفى معه حزباً يتمكنون بقوة من العودة إلى مدينتهم العزيزة ؛ ولكنه نظر فإذا بشهوات النفوس تفسد ما يدبرون فانفصل عنهم ، وقد انعقد عزمه على أن يكون على حد قوله « حزباً من نفسه » ؛ وتقاذفته أحداث الحياة ، وكلما ازدادت به عبثاً ازداد استجماماً ، حتى تركت قواه متبلورة حول شبح بيتريس يتخذ منه أنيساً لوحده . ولكنه أحس أنه أضعف من أن يستطيع التغنى بما وصلت إليه من مراتب الكمال ، فأمسك لسانه وأخذ في الدرس يوسع به من آفاق نفسه ويشجذ من مشاعر قلبه .

« لقد رأيت فيما يشبه أحلام اليقظة من خوارق الأمور ما حملني على الإمساك عن التحدث بذكري ذلك الملك المقدس ، حتى أصبح به جديراً ، فأخذت نفسي بالدرس ما استطعت ، وهي في السماء شهيدة بصدق ما أقول . ولو أن رحمة الله مدت من حياتي لقلت فيها ما لم يقله في مثلها أحد من العالمين ، وبعدئذ لتتحقق إرادة الله ، فأرتفع إلى جوار تلك السيدة ، إلى جوار القديسة بيتريس التي تنعم اليوم بمشاهدة وجه ربها الخالد أبد السنين » .

وتحدث بالفعل دانتى عن بيتريس في الكوميديا الإلهية التي رآها في أحلامه فأنبأنا بها ، وقد أخذ يعد لكتابتها عدته . ولقد كانت بيتريس من الرفق به بحيث أرسلت إليه فرجيل يستله من وسط تلك الغابة المظلمة ، غابة الضلال التي تعثرت بها خطاه ليقوده إلى رحلة طويلة خلال جهنم ، ثم خلال المطهر الذي لاحت على حافته بيتريس نفسها تقود الشاعر في الجنة التي لم يكن لنفس وثنية كنفس فرجيل أن تلج رحابها .

(٢)

في الكوميديا الإلهية

كان دانتى يعز الإباء في كل نفس حتى في نفوس أعدائه ، ولا أدل على ذلك من لقائه لفاريناتا دلي أوبرتي Farinata degli Uberti زعيم خصومه بجهنم ، حيث كان بينهما حوار عنيف لم يمنع دانتى من أن يظهر ما يحمل لكبرياء هذا الرجل من إعجاب « وقد نهض فاريناتا وسط قبره المضطرب ناراً حتى أشرف على اللهب بصدرة وجهته ، وكأنه لا يحمل لجهنم غير احتقار الأبي » .

ومع هذه الكبرياء امتدت بدانتى محن الحياة ، وقد أودعه الله قلباً شاعراً كم دفعه إلى المغامرات يشقى بها في منغاه ، وكأنه يلتمس في ذلك الشقاء ملهاة . أو ما تراه يلقي بجهنم أيضاً أستاذه برينيتو لاتيني Brunetto Latini فيود لو تمهل معه محبة له ؟ ثم ألم يلمح يوماً بإحدى طبقاتها شبحين تتقاذفهما الزوابع وسط ظلام دامس جزاء لهما على ما استسلما إليه من شهوات النفوس ، فيلتفت إلى قائده فرجيل يرجوه التمهّل حتى يعرف ما كان من أمرها ، وكأنهما « حمامتان حملتهما الرغبة المتبادلة ، فبسطا في الهواء أجنحة خثيثة تقودهما إلى عش حبيب » ؛ وما يكاد يعلم أنهما فرنشسكا دي ريميني Francesca de Rimini وحبيبها پولو Paolo حتى يطأطأ الرأس ، وكأنما ذهل عن نفسه لولا أن أيقظه فرجيل بقوله : ما بك ؟ فيم تفكر ؟ وفرنشسكا فتاة مسكينة ، حسبت أنها قد خطبت لپولو ، وإذا بها تزف لأخيه

الكسيح ، وإذا بالحـب يصلح ما أفسدته الأقدار ، ولكن غيرة الأخ وضعت حداً لعلاقتهمـا ، إذ قتل الرجل زوجته وأخاه ؛ وشاءت نفس دانتي الرقيقة إلا أن ترى فيهما حمامتين تسعيان إلى عش ، رغم ما هما فيه من عذاب .

وكذلك كان أمر دانتي . فلكم مزقت الشهوات نفسه ! ولكم أشقته تلك المرأة القاسية التي يسميها « الصخرة » Pietra ، والتي ولت دون أن تترك على صفحات التاريخ أثراً . ولكم ردد شعره ما أنزلت به من عذاب : « بودى لو واثاني القول في صلابـة تلك « الصخرة » التي لا تريدـا الأيام إلا قسوة . لكأنني بها وقد كست جسمها درعا من الصوان تتقي بها — إن لم تهرب — ما ترسله الجعبة من سهام رجوت لو أصابت منها مقتلا . وأما سهامها فهيها أن يُنجى منها عدو أو اختفاء ؛ وكأنها بمنحة تطير فتخترق كل الدروع . آه ! كيف السبيل إلى النجاة ، وقد استقرت بقمة أفكاري ، كما تستقر الأزهار بأعلى سيقانها ؟ وما يعنيهـا من آلام إلا ما يعنى زورقا من بحر لا تحركه عاصفة ... آه ! ليتني أرى قلبها ، وقد انشق كما انشق قلبي ، إذا لتكشف عن ظلام دونه ظلام الموت الذي يدفعني إليه جمالها ؛ وما تمسك عن الطعن في وضـح النهار ، أو في غياهب الليل » .

من جوف كل تلك الآلام طالعت دانتي ابتسامة بيتريس كما عهدـا عند ما رآها لأول مرة ، وهما في التاسعة من عمرها ، وقد ارتفعت إلى الجنة سنة ١٢٩٠ في ريعان الشباب ، وبقي هو وحيداً لا يملك غير ذكراها ، وقد تكالبت عليه محن النفي وشهوات النفس ، لا يجد عزاء في غير الدرس يقيم به تمثالا على حافة القرون الوسطى ، تمثالا ينطق بمجد بيتريس . وفي الحق لو أنه اكتفى بالذكـرى لما وجد غير الألم ، وهو القائل : « ما أشقها محنة أن نذكر وسط الشقاء أيام السعادة ! » وإنما أنجاه أن اتخذ من وحى ذلك الماضي ، من وحى بيتريس ، مادة لأروع ما أنتجت عقول البشر ، مادة للكوميديا الإلهية ، وبوده لو استطاع بفضلها أن يصبح جديراً بتلك القديسة التي تعلق بلحاظها فارتفعت به إلى أن اجتلى وجه ربه .

وفي الحق أن بيتريس لم تحبس عنه رحمتها ، فقد أرسلت إليه قائداً رفيقاً ينجو به من غابة الضلال التي تعثرت بها خطاه . وكان القائد فرجيل « ذلك النبع العذب الذي تدفق بأجل الشعر » يُفنى دانتي لياليه في درسه والاستماع إلى عذب نغماته . ولقد أمّلت بيتريس أن يرى شاعرها بجهم من ألوان العذاب ما يوقظه من غفلته فيحطم أغلال شهواته . ولعلها ودت لو وجد بلسماً فيما أنزل الله بخصومه الظالمين من عذاب . ولقد رأى دانتي في جهنم

ما تشيب له نواصي الأطفال .

وموضع العبرة فيما رأى هو نوع ما ينزل بالآثمين من عذاب ، فذوو الشهوات تتقاذفهم العواصف وكأنهم أوراق ذابلة ؛ وسفاكو الدماء غرقى فى بحر من الدم يغلى فيكويهم بناره ؛ وهكذا افتنت عبقرية العذاب فلاقت كل إثم بما يلائمه ؛ أو لا ترى إلى أولئك العرافين الكاذبين الذين يدعون العلم بالمستقبل ، وقد قلبت رءوسهم فأصبحت وجوههم إلى ظهورهم يسيل فوقها الدمع ، وذلك حتى لا يعودوا فيدعوا بعد النظر يرسلونه إلى ما خلف الحاضر الراهن . ثم برتران دى بون Bertrand de Born الذى أثار بشعره الابن ضد أبيه ، أو لم تفصل رأسه عن جسمه ووضع فى يده ليحملها من الشَّعْر كمصباح ينير له الطريق ؟! بل والمنتحرون أنفسهم نبتت أرواحهم بجحهم أشجاراً ، يمسك المار بغصن منها يكسره ، فإذا بالدم يتدفق منه مع صيحات الألم . لقد فروا من الحياة فعادوا إليها سجينى أغلفة الأشجار ! ولكم كانت دهشة دانتي عند ما نظر إلى هؤلاء الآثمين فلم ير منهم نادماً ، بل الكل ثائر على ربه يرسل اللعنة والسخط مختلطين بما يرسله من صيحات العذاب والألم .

وخرج دانتي من الجحيم ، وبخياله الخصب للآثمين أشباح كأنها تماثيل عذاب نحتت نحتاً ، ولكن ترى أيكفيه ما رأى لتصلح نفسه ؟ ثم كيف له أن يصعد إلى السماء وقد أثقلته الآثام كما تنقل الأمتعة المسافر ؟ وهبه ضمن السلامة فى مستقبله ، فأنى له بالماضى يمحو ما به إلا أن يكون رضوان من الله ؟ وشاءت بيتريس رسول رحمته أن يترفق فرجيل فيصحب شاعرها إلى المطهر حيث انتظرتة هى بقمته ، ومن عجب أن يرق جسمنا الكثيف إلى حيث تصعد الأرواح يغمرها نور الله ! أو لا ترى إلى سكان تلك الأعراف يشكون إلى فرجيل غير مرة ظلال جسم دانتي بمتد على أحدهم فيحجب عنه ضياء ربه ؟

ورأى دانتي بالمطهر أرواحاً راضية مستبشرة رغم ما هى فيه من عذاب ، وقد انقضى عهد الآثام ، وهام فى سبيل التكفير عما اقترفوا تكفيراً يعدهم لصعود السماء .

وقد انتشر نور الله فى كل مكان وانمقدت كل روح على الندم تستشف خلاله المغفرة . والمطهر جبل يقوم بجزيرة تلتطم الأمواج صخورها من كل جانب ، وقد انتشر النادمون على سفحه فى تسع درجات ، كلما سموت من درجة إلى درجة كان الإثم أخف والعذاب أهون . وسما دانتي حتى الدرجة الأخيرة فإذا بها نار تستعر وقد « زاد ظل جسمه لهيبها حمرة » فارتعدت فرائضه وأيقن أنه هالك ؛ وإذا بصوت يتغنى : « ما أسعد أنقياء القلوب ! » وانقلب المغنى آمراً يأمر دانتي وحببه بالدخول إلى النار إن كانوا يبعون الارتفاع إلى أعلى ، فارتد

شاعرنا مذعوراً لولا أن هداً فرجيل من روعه : « أى بنى ! ستلقى من هذه النار عذاباً ولكنك لن تلقى الموت ؛ ولقد قدتك خلال الجحيم رغم ما فيها من أهوال ، والآن وقد دنونا من الله — أترانا محجمين ؟ لا . لا . ثق أنك لو مكثت مدرجاً بتلك النيران ألف عام مازهبت بشمرة واحدة من رأسك . صدقنى . وها هو اللهب أمامك ، ادن منه ثم ادفع إليه بكم ردائك لتتحقق من صدق ما أقول . هيا ! هيا ! خل عنك مخاوفك . أقدم » .

ولكن دانتي لم يحرك ساكناً « رغم ما يحزه من ندم » وإذا بفرجيل شاعر الهوى ، فرجيل قيثاره الشعر ، فرجيل الروح النافذة إلى خفايا القلوب يلتفت إليه قائلاً بصوت يهدهج رقة : أى بنى — اذكر أنه لم يعد بينك وبين بيتريس من حاجز غير هذا . ثم التفت وعلى شفثيه ابتسامة الأب يداعب طفله بقطعة من الحلوى . وما إن سمع دانتي اسم بيتريس « الذى ما يزال مزدهراً بقلبه » حتى دلف إلى النار ، وفرجيل إلى جانبه يلهمه عن الألم بحديثه عن بيتريس . ولو أنك رأيتَه وقد رنحه أستاذَه بقوله : آه . يخيل إلى أنى أرى أعينها على مقربة منا . لحسبته طائراً ينتفض وقد بلله الندى ، أو لحسبت النار قد استحالت برداً وسلاماً .

وما إن خرج دانتي من هذه المحنة حتى قاده فرجيل إلى ساق القمة التى سيسمو إليها فيجد « جنة الله فى أرضه » . وهنا استودعه رحمة الله ، إذ ليس لروح وثنية أن ترتفع إلى ما دون ذلك . وحزن دانتي لفراقه حتى لقد بكى بين « يدى هذا الأب الرحيم » ودخل دانتي وحيداً جنة الأرض حيث لم يسمع إلا طيراً يشدو وماءً يخر ، ولم ير إلا نباتاً أخضر وورداً مزدهراً . وفيما هو وسط هذه الغابة المقدسة لاحظ له على الضفة الأخرى لنهر حورية رائعة تجمع الزهر باقة ؛ وما الحورية إلا ماتلدا Matelda ، تلك الصورة الشعرية الجميلة التى لم يصور شاعر أحلى ولا أرق منها — ماتلدا ملك الهداية يوجه خطى دانتي الأخيرة قبل أن يصل إلى هدف آماله — إلى بيتريس التى لن يستطيع أحد غيرها أن يرتفع به إلى الجنة ، جنة السماء . أو ما حان الحين ليلقى دانتي سيده وقد شق من أجلها لهيب النار يطهر به ما ارتكب من آثام ؟ أو ما تزال بيتريس تنقم منه ما تمزقت به نفسه من شهوات ؟ أو ما تزال تألم لما أثقل به ماضيه من عبث بأودية السراب ؟ ذلك ما نؤمن به وإلا لما قاده ماتلدا إلى نهر الليثيه Lethé نهر « النسيان » يشرب منه فيمحو من ذاكرته كل ما علق بها ؟ وقرب موعد اللقاء فكان على الشاعر أن يشرب من نهر آخر « إينويه » Eunoé نهر « الذكريات الطيبة » ليعود إلى عهد الطفولة ، عهد بيتريس التى صاح رسول من السماء يعلن قدومها . وإذا بصيحات النسوة تملأ الجو ، وإذا بالملائكة تنثر الزهر فى كل مكان ، والهواء يهتز ببيت الإنيادة الشهير :

« هيا ! هيا انثروا الزنبق حففات » .

« وعند بعث النهار وقد اكتسى شرق الأفق لونه الوردى ، وسجت بقية السماء بهدوء جميل ، رأيت الشمس يوماً تبزغ خلال ظلال يحجب من ضيائها فيستطيع البصر أن يثبت لرؤيتها ؛ وهكذا خلال سحابة من الزهر تنثره أيدي الملائكة ثم يتساقط فوق العربة ومن حولها ، لاحت لى امرأة يجللها نقاب طويل أبيض وبرأسها تاج من الزيتون ، ومن تحت النقاب معطف أخضر يكسو ثوباً فى لون اللهب الحى . وإذا بروحى ، التى لم تستشعر منذ زمن بعيد فى حضورها ما ألفت من ذهول وخوف ، تتعرف إليها ، لا برأى العين ، بل بما ينبعث عنها من سحر خفى ، وإذا بجبى القديم يعود أقوى مما كان . ولم يكذب يلمس عيني هذا السحر ، الذى مسنى بجراحه قبل أن أدرج عن طفولتى ، حتى التفت إلى يسارى فى خشوع كما يلتفت الطفل إلى أمه عند ما يناله خوف أو يصيبه ألم ، أقول لفرجيل : لم تعد بى قطرة دم لا تهتز ! لقد بعث الحب القديم أمارات لهيبه » .

ولكن أنى له بفرجيل يفهم عنه وفرجيل قد ولى ؟ ! ونظر إلى حبيبة طفولته فإذا بها على غير ما عهد ، وقد استجالت قاضياً صارماً يحدث الملائكة عما كان من ضلاله :
« لقد خلق هذا الرجل كما يشهد (عهد شبابه) بحيث تستطيع كل فضيلة أن تخصب فى نفسه أروع الخصب ، ولكن حقلاً تتساقط به بذور سيئة ، حقلاً لا يتعهده أحد ، خلى أن يزداد ثمره مرارة كلما ازداد خصوبة — لقد قومت من هذا الرجل بنظراتى ، وقد تعلق بها فهديته سواء السبيل ، ولكنى لم أكاد أدلف إلى حياتى الأخرى حتى انصرف عني إلى غيرى . تركنى ليتخبط فى مسارب الخطيئة ، وقد خدعته تلك الصور الباطلة التى لا تستطيع أن تحقق ماتعد . وعبثاً حاولت فى ساعات إلهامه ، فى حلم كانت أو فى صحو أن أرتد به إلى ! نعم ! لقد ضاعت جهودى كلها سدى حتى لم أعد أرى سبيلاً لنجاته غير أن أطلعه على ما أعد للآثمين من عذاب ، وهذا ما حملنى على السير إلى مدخل جهنم لألقى به من أوكلت إليه قيادته ، أوصيه به خيراً وأدمى مستهلات ؛ والآن لقد قضت إرادة الله التى لا مرد لها ألا يعبر الليثيه وألا يشرب من مائه إلا من يسكب فيه دموع الندم » .

ثم التفتت إلى دانتى قائلة وقد صوبت إليه سنان اللسان يحز فى نفسه حزاً : « قل ! قل ! أليس كل ذلك صحيحاً ؟ يجب أن تلحق بآثامك الاعتراف بها » .

واضطربت فى نفس دانتى كل قواء ، حتى لقد هم صوته بالإجابة فمات دون شفثيه ، فصمتت ببيتريس هنيهة ثم قالت : « فيم تفكر ؟ ! أجب ! أجب ! ما دامت مياه هذا النهر

لم تستطع أن تحطم في نفسك معلق بها من ذكريات محزنة .

وأخذ الخزي والخوف بنفس دانتي فانطلق لسانه « بنعم » خافتة لم تسمع لولا أن نمت عنها حركات الشفاه . وكما تحطم القوس عند ما تقسو في شدها فلا تستطيع أن ترسل السهم إلى هدفها ، تحطمت نفس الشاعر ، فانفجر دموعاً وزفرات غص بها صوته . وعادت بيتريس إلى أسئلتها القاسية : « قل لي : أى أغلال لقيت بسبيلك فعاقبتك عن المضي فيها وقد تعلقت بي رغباتك فقدت في سبيل الحب ، حب الخير الذي ليس لنفس أن تتطلع إلى سواه . قل لي : أى المغريات وأى الوعود لمحت على الجباه فدرت من حولها ؟ » .

وأطلق دانتي زفرة كأنها ذهبت بما يملك من صوت فلم يستطع الكلام حتى أجاب باكياً « لقد حادت بخطاى خيرات العالم الخادعة منذ أن غاب وجهك عن بصرى » .

واستأنفت بيتريس : « لو أنك أردت أن تسكن أو أن تنكر ما تعترف به الآن لما خفي شيء من خطاياك ، وعند قاضيك عنها علم اليقين . ولكنه عند ما ينبعث الاعتراف من فم الخاطيء ، ترى سيف القضاء وقد انفل . ومع هذا لا بد أن تشعر بثقل ما حملتك خطاياك من خزي ، حتى لا تعود فتستمتع إلى أصوات الغواية . هيا ! ألق عن نفسك قليلاً مما يبكيك ، ثم استمع إلى لتعرف كيف أن جسمى الذى وراه التراب كان خليقاً بأن يدفعك في غير ما سلكت من طرق ، وهل أرتك الطبيعة أو أراك الفن جسماً أنفذ سحراً من ذلك الذى أودعته سجينته وها هو اليوم قد عاد فاختلط بالتراب ؟ » .

وأحس دانتي بالندم ينشب فيه أظفاره ، فسقط مغشياً عليه ، حتى إذا أفاق أخذته فضائل الدين ، حيث غسلت نفسه مما بها غسلا ، وفتح عينيه فاستطاعت أن تثبتا لجمال بيتريس ، وقد تجردت نبراتها من تلك القسوة التى أحسها فى حسابها له عما فرط من واجب الاخلاص لها حية ، والوفاء لذكرها ميتة . وما بيتريس الآن إلا روح خالصة تبصره بأسرار العالم الآخر ، عله يحملها إلى من تضم هذه الأرض من أرواح بائسة بحيرتها .

منذ تلك اللحظة لم يعد بين دانتي وبيتريس حجاب ، وهاهى تسمو إلى الجنة ودانتي معلق بنظراتها خلال السموات التسع ، وقد أعشى بصره نور الله فعجز عن أن ينظر إليه إلا فى أعين بيتريس ، التى ما زالت تحنو عليه حتى استطاع أن يتلقى مباشرة نور ربه . ولم تغادره فتاة فلورنسا حتى وصلا إلى أقدام العذراء ، حيث تولى قيادته إلى خالقه — مصدر كل حياة — القديس برنار الذى تغنى بجمال مارية أعذب الغناء . وافترق الحبيبان ؛ وكان وداع الشاعر : « أبقي رحمتك تتلقين بها روحى التى شفيتها — عند ما تفلت من جسمها متصاعدة إلى كنف الله » .

چوليان سوريل

Julien Sorel

جوليان سوريل بطل رواية « الأحمر والأسود » للكاتب الفرنسي ستانڊال Stendhal سنة ١٧٨٣ — ١٨٤٢ . نموذج لنوى المواهب الذين تشاء الأقدار أن يشبوا بين طبقات الشعب المتواضعة ، ثم ينظروا فإذا بوقاحة المال وعزة المركز و صلف المحتد تنذكر لما وهبوا وتود لو درّجّتهم أ كفوئاً من الاحتقار ، وإذا بكبرياء المواهب تحرق الأ كفوئاً .

نادت الثورة الفرنسية بالمساواة بين الرجال ، كما حطمت الامتيازات لتجعل الحقوق وفق المواهب ، وسرى هذا المبدأ الجميل حتى لكأن الأطفال يرضعونه مع لبان أمهاتهم ، فيكبر صغيرهم وقد استقر في نفسه أن ملكاته سبيل مجده ، وأن الوجاهة الاجتماعية لا بد آتية في آثار التفوق العقلي . ولكن ما يكاد الرجل منهم يدلف إلى الحياة في العشرين من عمره حتى تنهض أمام طموحه وإيمانه بملكاته أشد العقبات ؛ فكم من نفوس صغيرة ومواهب واهية قد دفعتهما في سبيله القراية وحماية ذوى السلطان وقوة المال ودس النفوس الملتوية فسدت المنافذ ، وسبقته إلى غايات المجد ! وهكذا تتضور النفوس الممتازة ، وقد قضى عليها أن تتبع السلسلة الإدارية ، وأن تكبح من طموحها حتى تبلى في أصغر المراكز ، وما تزال تحنى أصلابها وتتصبب عرقاً حتى تستطيع — وقد لا تستطيع — بعد جهد عشرين عاماً — جهد الرقيق — أن تصل إلى ما تستحق . وأما ملكاتها فإذا مجدى في هيئة اجتماعية لا تقيم لها وزناً ؟ وهكذا تعلن الجماعة إفلاسها ، إذ لا تمكن خيرة أبنائها من حقوقهم ، فيحتمى رجال الفن والعقل بعالم الأحلام ، بينما الطبائع المسالمة يتناولها اليأس فترضى بحياة ممتدة الخطى ، راضية بما يتخلى لها الغير عنه وقد أضناها الجهد وهددها الظلم ، وأما الإرادات القوية — ومن بينها سوريل Sorel — ممن لا يعتمدون على حام ولا قريب يعهد لها السبيل فإذا تفعل ؟

أما القناعة بالقليل والرضا بالظلم فلا ، بل تأهب للنزال ، وقد تجهمت لهم أوجه الجماعة التي يحيون بينها ؛ فليطرحوا ما كبلوا به منذ الطفولة ، وليسكتوا ما تستشعر نفوسهم من رحمة أو يختلج في ضمائرهم من ندم ، وليشقوا سبيلهم في جسارة عند ما تسنح الفرص ،

وليصطنعوا — إلى أن تسنح — كل قسوة ونفاق ، وليكن بعد ذلك ما يكون . وهكذا تجعل الجماعة منهم كما جعلت من « سوريل » ، طيوراً جارحة ، وإن تكن يد الأداة الحكومية لهم بالمرصاد ، تقودهم إلى المشانق كما قادت سوريل الذي لولا عبوس القضاء لجثت تحت قدميه تلك الجماعة التي أنزلت بنفسه الخراب .

لم يكد سوريل يبلغ العشرين من عمره (سنة ١٨٢٨) حتى كان مجد نابليون قد زال ، وقد عادت الملكية ، وعاد رجال الدين إلى نفوذهم القديم ، ولكنه لا يزال يذكر ما رآه غير مرة أيام طفولته من فرسان نابليون فوق جيادهم الأصيلة ، وقد انتفت من حولهم معاطفهم الضافية البيضاء ، وغطت رؤوسهم قلانس تحليها شعور الخيل السوداء ، مارة بقريته إلى جوار جرينوبل ، وهي عائدة من غزواتها بإيطاليا . ولكم من مرة نظر من نافذة غرفته فإذا بالخيول واقفة في الساحة أمام المنزل أو مشدودة أعنتها إلى قضبان نافذته ! ولكم استمع إلى أنباء البطولة التي ترددها كل الألسنة عن معارك « لودي » و « أركول » و « ريشولي » ، فتتوق نفسه إلى مهنة الحرب ؛ ولكنه نظر فوجد أن زمن البطولة قد ولى ، وأن نابليون قد أصبح في نظر ذوى السلطان غاصباً ، يورد النطق باسمه موارد التهلكة ، بينما انقلب الأمر كله لرجال الدين يرفعون من تشاء رغباتهم ، ويخفضون من يستهدف لسخطهم ؛ فانعقد عزمه على أن يتخلى عن آماله في الجيش وأن يصبح من رجال الكنيسة ، وإذا فليستبدل بالرداء « الأحمر » الرداء « الأسود » .

ولد جوليان لأب نجار في قرية صغيرة ، وكان أبوه أمياً فظاً غليظ القلب . ولقد اتفق يوماً أن أتى الأب إلى « ورشته » ، وقد ناط بجوليان أن يقوم على ملاحظة العمل ، وإذا به يجده ممتطياً كتلة من الخشب ممدودة قرب السقف ويده كتاب يقرأه . فناداه الأب فلم يسمع لشدة ضوضاء المناشير ؛ فصعد إليه ، وبضربة قوية على رأسه أوشك أن يسقطه على الأرض ؛ ولو أنه سقط لتقطعت أوصاله فوق الآلات المنتشرة هنالك ؛ ولكنه أمسكه بيديه الغليظتين صائحاً : « أيها الكسول ! أو ما تستطيع أن تقرأ كتبك اللعينة في الليل عندما تذهب إلى القسيس لتضيق وقتك ، بدلاً من أن تلهو بها الآن عن ملاحظة المناشير ؟ » ولزم جوليان الصمت والدموع تترقق في عينيه ، لا لما أصابه من ألم ، بل حزناً على كتابه الذي طاحت به ضربة أبيه إلى نهر مجاور .

— إنزل يا حيوان لأكلك !

ولكن جوليان لم يسمع أيضاً لشدة الضوضاء من حوله ، فأتى الأب سوريل بقطعة

طويلة من الخشب وضربه بها على كتفه ، ذلك لأنه لم يشأ أن يعود فيصعد إليه ، ونزل
چوليان ، وطرده أبوه بعنف أمامه إلى المنزل ، وكم كانت حسرة الغلام عند ما نظر إلى النهر
وهو يبتلع « ذكريات سنت هيلانه » أعز ما يملك .

ولو أنك رأيته يومئذ لرأيت خدوداً محمرة وأعيناً ساجية ؛ وهو في التاسعة عشرة من
عمره ، غلام ضعيف في مظهره غير منتظم مقاطع الوجه ، وإن يكن دقيقها ، ذا أنف منحني
قليلاً إلى جانب ؛ وأما عيناه فكانتا كبيرتين سوداوين شديدي البريق — ماهدأت نفسه —
بريقاً ينم عن حرارة وعمق في التفكير ؛ وإن لم تكن ترى فيهما ذلك اليوم إلا بغضاً خفيفاً ؛
ولقد كان شعره الكستنائي القاتم يكسو أعلى جبهته ، فتبدو صغيرة ، مما يبالغ في مسحة
الشر التي تلوح عليه عند ما يأخذه الغضب . وفي الحق أن چوليان كان أصيلاً في خلقه ، وفي
ضمور خصره ما ينبي بالخفة أكثر مما يدل على القوة . ولقد رأى أبوه منذ الطفولة في ميله
إلى التفكير وفي شحوب لونه ما حمله على الاعتقاد بأنه لن يعيش ، وإن عاش فسيكون عبئاً
على أسرته .

وقد كان چوليان موضع احتقار أهل المنزل جميعاً ، فكره إخوته كما كره أباه ؛ ولكم
ضرب بالساحة في أيام الأعياد .

لم يكذ چوليان يدخل المنزل حتى أحس بيد أبيه القوية تمسك بكتفه ، فارتعدت فرائضه
وتوقع الضرب ، ولكنه لحسن حظه لم يكن شيء من ذلك ، وإنما كان حوار بين الأب
وابنه ، إذ أن عمدة القرية قد طلب إلى القسيس أن يأتيه بحرب لأولاده ، فلم يجد القسيس
خيراً من تلميذه چوليان ، وقد توسم فيه كل نجابة ، فكرس على تثقيفه الكثير من وقته .
وأدروع ما كان في ذلك الحوار الفقرات الآتية :

الابن : وأى أجر سأنال على ذلك ؟

الأب : الغذاء والملبس وثلاثمائة فرنك .

الابن : ولكني لا أريد أن أكون خادماً .

الأب : ومن قال لك إنك ستكون خادماً أيها الحيوان ؟ أتظن أنني أقبل أن يكون

ولدى خادماً ؟

الابن : ولكن مع من سأكل ؟

وكان في السؤال الأخير ما أخرج الأب سوريل ، وخشى أن يكون في جوابه ما لا يقتضيه

الموقف ، فثار ضد چوليان وأشبعه سباباً ، متهماً إياه بالنهم ، ثم تركه ليستشير أبناءه الآخرين .

وذهب جوليان إلى منزل الميسو دي رينال de Rênal عمدة القرية ، فوجده رجلاً غنياً من رجال الصناعة ، نظر إليه فإذا به قد وخط الشيب عارضيه ، فلاح رأسه في لون بدلته الرمادية ، وأحس فيه برضا عن نفسه واعتزاز بذاته لا تجده إلا عند ذوى العقول الضيقة والخيال المحدود ، رجل تلخصت مواهبه في أن يعرف كيف يحصل على حقه في أسرع وقت ، وكيف يرجي ما عليه إلى أبعد حين ؛ ومع ذلك فقد كان المعروف عن الميسو دي رينال أنه ابن نكتة حاضر البديهة ، والفضل في ذلك راجع كله إلى دستة نكات ورثها عن خال له . وأما مدام دي رينال فكانت امرأة طيبة النفس ، في الثلاثين من عمرها ، وكان جمالها ما يزال يبهج الأبصار . وهال جوليان ما رأى من بذخ هؤلاء الناس ، وخشى احتقارهم له أو إدراجهم في عداد الخدم ، فعقد عزمه على أن يرغمهم على احترامه ، بأن يقنعهم كما يقنع نفسه بأن النزاع إنما يقوم بين غناهم وفقره ، وأما قلبه فأسمى من أن تناله وقاحتهم ، وقد وضعه حيث لا تستطيع أن تصل إليه مظاهر رضاهم أو إغراضهم وتلك هينات هينات .

ذلك موقف جوليان من العمدة وزوجه . وأما الأطفال فقد كان يعلم أنه لا ذنب لهم في جراح نفسه ، فأخلص في القيام على تربيتهم ، يأخذهم بالعدل دون إسراف في العطف ، وكيف له بمثل هذا الإسراف وأقوى سلاح اعتزم أن يلتجئ إليه ضبط النفس والسيطرة على المشاعر ، بل والتظاهر بغير ما يضر ؟ ولقد كانت له في ذلك الأعاجيب ، فلقد تسوقه الحماسة يوماً في معرض الحديث عن نابليون إلى إعلان فرط إعجابه بهذا القائد العظيم ، ثم يفتن إلى ما في ذلك من حق قد يودي بمستقبله ، فيعاقب نفسه بأن يشد ذراعه إلى عنقه شهرين كاملين ، مدعيًا أنه قد كسر وهو يحرك قطعة من الخشب . ولقد يخلص لتسييس قريته الود ، ويعترف له بالفضل ، ولا يغيظه منه إلا نفاذه لـ مكنون نفسه ، فما كان جوليان عميق الإيمان ، ولا كان ميله إلا الاشتغال بالدين صادقاً ؛ وإلى هذا فطن القسيس ، فاتخذ الشاب هدفاً له أن يخضع الرجل عما فطن إليه من أمره . ولقد تحس مدام رينال في جوليان أصالة في الرأي ، وقوة في الإرادة ، واعتزازاً بالنفس ، تدهش له فتعجب به ، ثم يشرح لذلك صدرها ، وتساورها الشكوك عن حقيقة شعورها نحوه ، وإذا بالشك ينجلي عن يقين ، وإذا بـ مدام رينال تحب جوليان ، وجوليان عنها لاه ، وما إلى هذا تتطلع نفسه الجريحة ، وقد اتجهت بكل عنف إلى الثأر من تلك الجماعة التي تحتقره لغير ذنب جناه ؛ ويكون في موقفه من تلك السيدة العطوف ما يدهش .

كان من عادة مدام دي رينال أن تصطحب جوليان وصديقة لها إلى حديقة المنزل وقت

العشية ؛ وفيما هم جالسون ذات ليلة مست يد المربي يد السيدة عفواً ، فسارعت السيدة إلى سحبها ، وحسب جوليان في ذلك احتقاراً له ، وتنغصت بذلك حياته طوال الليل والنهار التالي ، حتى أتى الليل من جديد ، وعاد الثلاثة إلى مجلسهم من الحديقة ، ووطد الشاب عزمه على أن يمسك باليد التي تراجعت عنه بالأمس ؛ وكان صراع بينه وبين نفسه لم يجد منه مخرجاً إلا بتحديد موعد لتنفيذ عزمه ، وكان ذلك الموعد دق الساعة العاشرة ، ودقت الساعة فأمسك بيد مدام دي رينال ، وتراجعت اليد فعاد للامساك بها ، واستسلمت السيدة لجرأته ، فتركت يدها في يده ، بل عادت هي إلى أخذ يده عندما رجعت من قضاء أمر نهضت إليه ، وكان ذلك المساء فاتحة سقوط تلك المرأة المسكينة ؛ ووجد جوليان في استسلام السيدة نشوة لا حد لها ، لا نشوة الحب ، ولا نشوة اللذة البهيمية ، بل نشوة الانتصار المتعطشة إليه نفسه .

وذاع الأمر حتى لم يعد هناك معدّل عن أن يغادر جوليان هذا المنزل الذي دنسه ، ليذهب إلى مدرسة القسس بإحدى المدن المجاورة يتم بها دراسته ؛ وقبل بالمدرسة لتفوقه الظاهر ، وهنالك زادت خبرته بالرجال وزاد ظنه بهم سوءاً . نعم إنه قد وجد في « الأب » المشرف على المدرسة عقلاً راجحاً ، وقلباً كبيراً ، قدر مواهبه حق قدرها ، بل وأحس نحوه رغماً عنه بحب لا ينبني لرجل دين أن يخص به فرداً دون آخر ، وحبّه كله لله وحده ؛ ومع ذلك ألم يقل له هذا الأب يوماً : « نعم يا بني إني أستشعر نحوك العطف ، والله يعلم إن ذلك على الرغم مني ، وأنا لا أجهل أنه ما ينبني لي أن أخص أحداً من البشر بحب أو بغض ، وأن أكون بينهم عادلاً فحسب . أي بني ! إن مستقبلك شاق ، وفيك ما ينفر النفوس المبتذلة . سيطارذك الحسد والنهمة ، وحيثما اتجهت أو ساقتك الأقدار ستشقى دائماً بمحمد زملائك الذين لن يتظاهروا بحبك إلا ليعنوا في الكيد لك . وما أرى لهذا علاجاً غير الركون إلى رحمة الله الذي شاء أن يجعل في كره الناس لك عقاباً عادلاً لغرورك ، ليكون سلوكك نقياً ؛ وسوف ترى أن أعداءك سيبوءون بالهزيمة ما تعلقت بالحقيقة الخالدة تعلق الغريق بأسباب النجاة » .

وشاءت شهوات الحقد ودس النفوس الوضيعة أن يتخلى الأب المشرف على المدرسة عن مركزه ، وخشى الأب على جوليان غيره إخوانه وحقدهم ، فأخذه معه إلى باريس حيث وجد له عملاً كسكرتير للمسيو دي لامول De la mole أحد الأشراف الوزراء ، بل أقوى الوزراء نفوذاً في ذلك العهد ؛ ومع ذلك قد تتساءل : أكانت مخاوف الأب من أجل جوليان

على أساس ؟ ألم يتفق لهذا الشاب الموهوب أن لاق يوماً المطران فأعجب به ، وأهداه كتاباً قيميا عاد به إلى المدرسة ، فسكنت الأحقاد من حوله وأخذ إخوانه يسلمون له بالتفوق ؟ ثم ألم يحدث يوماً أن رفعه الأب المشرف نفسه إلى رتبة قارئ الكتب المقدسة أيام القداس ، فأخذ إخوانه في تملقه بدلا من كرهه والحقه على مواهبه ؟ ولكن كل ما أصاب من توفيق لم يستطع في الحق أن يسكت غل القلوب جميعها ، وقد استمر الكثير منها على عدائه الظاهر أو الخفي .

وكانت إقامة جوليان عند المركز دى لامول بباريس أشق من إقامته عند الميسو دى رينال عمدة قريته ، ولكم قاسى من احتقار المركز بنوع خاص ، هى وزائرتها ؛ ولكم ضاقت نفسه بأحاديث المركز وإخوانه بالصالون كل مساء ، وحديثهم لا يعدو أتفه الأشياء ، حتى أصبحت حياته جحima ؛ وكان إحساسه من الارهاف بحيث أصبح يشعر بجرح من كل نظرة ، وتولت في نفسه من العُقد ما جعله يخشى اعتداءً في كل لفظة ، ولكنه رغم ذلك صمد لما حوله من ضغط بعزم قوى ، وبادل الكل احتقاراً باحتقار ، وتعاليا بتعال ، حتى دانت له النفوس ، وبلغ الأمر بينت المركز نفسها أن أعرضت عن كل من يسعى إليها من أشرف لتتعلق به ؛ وكان يوم همت الفتاة بالسقوط فيه بين يديه ، فعاودته طبيعته الخيرة ، وأخذ يناقش نفسه الحساب ؛ ولكنه عاد فذكر ما كان من اضطهاد تلك الفتاة له في أول الأمر ، ورأى فيها رمزاً لتلك الجماعة التى أذاقته مر الآلام .

« يالى من أحمق — أنا ابن الشعب تأخذنى رحمة بعائلة كهذه — أنا الذى دعانى دوق شون خادما . ثم كيف يجمع المركز ثروته ؟ أليس يبيعه أوراقا مالية عندما يعلم من القصر أنه سيحدث فى اليوم التالى ما يشبه انقلابا فى الحكم ؟ ! وآتى أنا الذى ألقاه القضاء الظالم خلف الصفوف ، أنا الذى أملك قلباً نبيلاً ، ولا أملك ألف فرنك دخلا ، أنا الذى حرمت الخبز — نعم الخبز الضرورى ، فأترفع عن لذة تسقط بين يدى ! لا — لنترك هذا الحق — ليعمل كل لنفسه وسط هذه الأثرة القاسية التى يسميها الناس الحياة » .

وتذكر جوليان نظرات المراكز وصديقاتها فاشتعلت نفسه وجرت شهوة الاجرام فى دمه ، وكأنه عندئذ رجل يحارب الإنسانية جميعاً ، وسقطت الفتاة وحملت من جوليان ، وعلم بذلك الأب ، فهم بأن يعمل لينج جوليان لقباً يدخله فى عداد الأشراف فيزوجه من ابنته ، وقد خيل إليه غروره أن جوليان لا يمكن أن يكون ابن نجار ، وأنه لا بد ولد طبيعى لأحد الأشراف تخلى عنه أبوه بين يدى ذلك النجار الذى ينسب إليه ، وإلا فمن أين لجوليان بتلك

الشخصية القوية ؟ وود أن يستوثق من الأمر بالكتابة إلى أحد أهل قرية جوليان ؛ فاهتدى إلى مدام دي رينال ، وأملى القسيس الذى يتلقى اعترافات تلك السيدة الرد قاسياً ، فثار غضب المركيز وعدل عن مشروع الزواج .

فثار جوليان وركب رأسه إلى قريته حيث شرع فى قتل مدام دي رينال وهى تصلى بالكنيسة ، وكان يوم المحاكمة حيث تضافرت جهود بنت المركيز ومدام دي رينال لإنقاذه بعد أن عجز الكل عن حمله على الفرار . ونهض جوليان موجهاً الخطاب إلى المحكمين بهذه الألفاظ :

« أيها السادة المحكمون ! إن شناعة الاحتقار الذى أريد أن أتحداه عند الموت هو الذى يدفعنى إلى الكلام . أيها السادة ! ليس لى شرف الانتماء إلى طبقتكم الاجتماعية ، وما أنا إلا فلاح بسيط ثار على ما أنزلته الأقدار من منزلة وضيفة . ثم إنى لا أطلب منكم رحمة ، وما أخادع نفسى فى أن الموت ينتظرنى ، وإنى لمستحقه . لقد اعتديت على سيدة جديرة بكل احترام وكل تقدير . لقد كانت مدام دي رينال لى أمماً ، ولقد ارتكبت جريمة شنيعة أصرت عليها من قبل ، وبذا وجب إعدامى أيها السادة . ولو أننى كنت أقل إجراماً لما منع ذلك نفرأ من الناس من القسوة على دون رعاية لما يستحقه شبابى من رحمة ، ولا هم لهم إلا أن يعاقبوا فى شخصى أولئك الشبان الذين يذشأون من أصل متواضع تقعد به الفاقة ، ثم تشاء الأقدار أن يصيبوا من التربية الحسنة وأن يستشعروا من الجسارة ما يدفعهم إلى الاختلاط بما تسميه كبرياء الأغنياء « الطبقات الراقية » . هذه أيها السادة جريمتى . وإنى لعلى ثقة من أنها ستعاقب أشد العقاب ، وبخاصة لأن قضائى ليسوا من أندادى . وما أرى على مقاعد المحلفين فلاحاً اغتنى ، بل كلهم أعيان مزمتمون » .

وواصل جوليان حديثه هذا عشرين دقيقة ، والنائب العام يتفرز فوق مقعده ، وهو أحرص ما يكون على رضا ذوى السلطان . وبالرغم مما كان فى حديثه هذا من عمق ، فقد تساقطت الدموع من أعين كل السيدات الحاضرات ، وما كان أكثرهن فى ذلك اليوم ! وسبق جوليان إلى الجيلوتين بعد أن رفض توقيع استئناف الحكم .

هذا هو جوليان سوريل كما خلقه ستاندال ، فحقق فى شخصه ما عجز عن تحقيقه فى حياته ، فهو رمز لأحلامه . ولقد كان ستاندال من أشد المعجبين بنابليون ، فقد قص حياته فى كتاب رائع . وكان ستاندال ممن يدينون بمبدأ القوة الذى تنم عنه كل رواياته . وهو أب روحى لنييتشه وأحد مناع ذلك التيار الجارف الذى اجتاح القرن التاسع عشر ، تيار العنف واستنكار

قواعد الأخلاق ، ذلك التيار الذى لو لم يصمد له تولوستوى لدمر الإنسانية .

چوليان سوريل هو ستاندال نفسه إلى حد بعيد ، ستاندال الذى حرم من عطف والدته صغيراً وشقى بقتوة أبيه ، وحاول مجد الحرب مع نابليون بإيطاليا وبالروسيا ، ثم عاد بغير مجد ، فاندرج فى السلك السياسى ، وعاش بإيطاليا زمناً طويلاً ، حيث رأى فى ذلك الشعب من حدة الطبع وتوثب الحركة ما كان يعجب به .

والآن ترى بم نحكم على چوليان ؟ والذى لاشك فيه أنه يتمتع بعطف ستاندال ، وأن البون بينه وبين جريزلو Greslou « تلميذ » پول بورچيه لبعيد . چوليان لم يولد خسيساً ولا شرير الطبع ولا محمولا على الإجرام بالفطرة ، وفى تاريخ حياته مايؤيد ذلك ؛ أخلص الود لصديقه الريفى فوكيه ، وأعزه حتى أسلم آخر أنفاس الحياة ، ولقد صفت نفسه وسلس طبعه بين يدى قسيس قريته وبين يدى الأب الذى كان يشرف على مدرسة القسس التى تعلم بها ، وود لها الخير من كل قلبه . ولقد كان چوليان بطبعه حياً خجولاً متواضعاً . ولو أن الجماعة التى عاش بينها لم تشعره باحتقارها له ، ولو أنه كان بليد الطبع صفيق الإحساس لما انقلبت حياته مأساة . ولهذا ربما كان جديراً بالعطف وإن كانت وسائل انتقامه مما لا تطمئن إليه النفس ؛ وقد أصاب بها أحياناً من كان موضع رعايتهم . وما ينبغى مهما تكن الظروف أن نفقد الحبس الأخلاقى فنضرب على غير هدى .

إبراهيم الكاتب

يقول المازنى — ومازید أن نظن به الكذب ، وبعض الظن إثم — «ولست أحتاج أن أقول إنى لست بإبراهيم الذى تصفه الرواية ، وإن هذا المخلوق ما كان قط ، ولافتح عينيه على الحياة إلا فى روايتى . . . ثم إنى لست أرضى أن أكونه ، فما تعجبى سيرته ولا مزاجه ، ولا التفات ذهنه ، وقد ندمت على خلقه بعد أن سويته ، فلو كان دمية لحطمها وطحنها ، ولو كان صديقاً لجفوته ونبوت به . ذلك أنه يتناول الحياة باحتفال ، وأنا ألقاها بغير احتفال ، وهو يعبس للعالم ، وأنا أفتر لها عن أعذب ابتساماتى ، وأحس السرور بها يقطر من أطراف أصابعى — كالعرق . وهو مغرى بالتفلسف ، وأنا أعد الواحد من هذا الطراز مرزوءاً يستحق المراثية ، وهو وعز متكبر ، وأنا سمح متواضع ، وهو عنيد ، وأنا رىض سلس ، وهو نفور ، وأنا عطوف ، وفى نفسه مرارة ، وأنا مغتبط بالحياة ، راض عنها ، قانع بها ؛ وهو كأنما يريد أن يخلق الدنيا والناس على هواه ، ولذلك تراه قليل التسامح ، ضيق الصدر ، وأنا لأرى فى الإمكان أبدع مما كان ، ولست مثله أومن بالتثليث فى الحب أو الكره ، ولم أمرض قط بالنيمونيا الخ . الخ . . . فليس بيننا كما ترى من تشابه ، سوى أن كلينا قصير قىء ، وأنا أزيد عليه أنى أصبت بالعرج ، فليته كان هو المصاب وأنا الناجى المعافى » .

[المقدمة]

وأنا بعد أعرف « إبراهيم الكاتب » ، وأما « إبراهيم المازنى » فلا . إلا أن يكون حدس لا يغنى عن اليقين . وإن يكن ثمة أمر يبلبل الأفكار ، فهو ذلك التعارض القوى بين مزاج الرجلين ، ونظرتهم إلى الحياة . إبراهيم الكاتب رجل يحتفل بالحياة ويعبس للعالم وهو مغرى بالتفلسف ، نفور وعز ، متكبر عنيد ، فى نفسه مرارة ، وهو قليل التسامح ضيق الصدر ، لأنه كأنما يريد أن يخلق الدنيا على هواه ، وهو أخيراً قد استطاع أن يحب ثلاث نساء يتردد بينهن كالورقة الذابلة تتقاذفها الرياح . . . وأما إبراهيم المازنى فرجل يتلقى الحياة بغير احتفال ، ويفتر لها عن أعذب ابتساماته ، ويحس السرور يقطر من أطراف أصابعه كالعرق ، وهو يعد من المتفلسفين مرزوين يستحقون المراثية ، وهو سمح متواضع ، رىض سلس عطوف مغتبط بالحياة ، راض عنها قانع بها ، لا يرى فى الإمكان أبدع مما كان . ثم هو فيما يظهر لا يؤمن إلا بالله واحد ووطن واحد وحب واحد كما يقولون . لقد ذهب المازنى بكل

الصفات الطيبة ، وأما سميّه فالويل له . ومن عجب أن تنظر فترى في قسمات إبراهيم الكاتب ما يذكرك بقسمات إبراهيم المازنى عند ما أصاب الأخير شيء من هرم النفس ، فتساءل : ألم يتبادل الرجلان يوماً شيئاً من خصائصهما ؟ ألم يحفل المازنى بالحياة ، ويعبس للدنيا ، ويتفلسف في نفور وكبر وعناد وعرارة ، حتى ملّ وكاد يستريح إلى اليأس ، فإذا به يتلقى الحياة بغير احتفال ، ويفتر لها عن أعذب ابتساماته وقد أخذ يرثى للمتفلسفين ؟ ذلك ما نكاد نجزم به ولنا أدلة كثيرة نكتفي بأقواها ، وهو ذلك السرور الذى يقطر من أطراف أصابعه كالعرق : سرور ملح ؛ ابتسامة مرة ؛ عالم يراه أبدع العوالم ، لأنه لا رجاء في إعادة خلقه ؛ نفس ألت حتى اليأس ، واستغرقت في الحياة حتى مجتها ؛ ومن كان هذا شأنه لانبجسه يصير رماداً كله . فتش تجد تحت الرماد ناراً .

وفي الحق أن إبراهيم المازنى رجل أثر ، فهو يريد أن يسلب إبراهيم الكاتب الكثير من صفاته ليدعيها . إبراهيم الكاتب نفس واسعة ، اتسعت حتى احتوت الأضداد . ولو أنك سألتني أن أصف لك ذلك الرجل العجيب لما استطعت خيراً من أن أجمع مميزات الإبراهيميين قائلاً : هذا هو إبراهيم الكاتب . ولا غرابة فكما أن الرجل استمرار للطفل ، وإن تغيرت القسمات ، كذلك استمرت مرارة أحد الرجلين في ابتسامة الآخر حتى أصبح سروره عرقاً . ولقد كان في المرارة شعر كما ترى في الابتسامة سخرية ، ومات الشعر وأن نازعته السخرية سحره . إبراهيم الكاتب أو إبراهيم المازنى مزيج من الشعر والسخرية ، وتلك صفتان يرد إليهما بحق جورج ديهامل سر نبوغ الكتاب ، مؤكداً أنه إذا أخلى الرجل منهما فقد خلا من كل شيء وإلا فقد اجتمعت له مميزات الأديب الحق .

اجتماع السخرية إلى الشعر سر من أسرار الحياة ، يكاد إبراهيم الكاتب يفيض لنا غلافه . ونحن بعد لا نستطيع أن نتبع تاريخ تلك الظاهرة في حياة رجلنا ، لأننا لا نعرف قصته ، وإنما نعرف منها مرحلة قصيرة ذكرنا بالدراما الكلاسيكية حيث ترتفع الستارة عن شخصيات تكونت من قبل ، وإذا بنا أمام أزمة من أزمت الحياة ، وإذا بالشخصيات تتحرك في أزمتها وفقاً لطبائعها ، ونحن بعد لا نعرف ماضى تلك الطبائع ولا سر نشأتها ، وإنما ندرك خصائصها من احتكاكها بالناس والأشياء وسط أزمتها العارضة . وإذن فقد كانت لإبراهيم الكاتب دراما صيغت قصة .

ونحن بعد نعلم أن إبراهيم الكاتب كانت له زوجة ماتت مخلقة له ولداً ، وتبدأ أزمته منذ مرضه بالمستشفى وتعلقه بمأري ممرضته التى يخشى استمرار علاقته بها ، فيسافر إلى الريف

عند أقاربه ، حيث يجد بنت خالته شوشو الفتاة الجميلة الحية ، وأختها سميحة العائرة الحظ ، التي ينفر منها كما ينفر الدكتور محمود نفسه طبيب العائلة وأحد أقاربها ، وأخيراً نجية الأخت الكبيرة زوجة الشيخ على صاحب العزبة التي نزل بها . وكان إبراهيم قد نشأ صغيراً مع بنات خالته ، ولكم داعب شوشو وهي طفلة وهو يافع مكتمل ، حتى شباً كأخوين ، وانقطع عنها سنين طويلة ، وها هو ذا يعود اليوم فيجدها فتاة تغرى الأبصار والقلوب . وانتهى الأمر بأن اهتز قلبها بحبه ، وحاول أن يقاوم ذلك الحب فلم يستطع ، فود أن يتزوجها ، ولكن نجية لم تكن لتقبل أن تتزوج شوشو قبل سميحة الأكبر منها سناً ، وأصرت على أن تكون سميحة لإبراهيم ، وإبراهيم رجل عنيد يعرف ما يريد . وحاول الشيخ « على » الرجل الحكيم المتزن أن يثنى من حماقة زوجته فلم يصل إلى شيء . وجرحت كبرياء إبراهيم إذ رفضت نجية أن « تعطيه » شوشو ، ولو « دفع لها وزنها ذهباً » . ونفض إبراهيم يده من الأمر ، وسافر إلى الأقصر ، حيث كانت له مغامرة مع ليلى إحدى النساء الحديثات ، وإن كانت في الحق امرأة لا تخلو من نبل وأصالة . ومرض إبراهيم بالأقصر ، وعاده الشيخ « على » والدكتور محمود ، وشفى وغادرته ليلى ، وعاد هو إلى القاهرة . وقد علمنا أن شوشو قد تزوجت من الدكتور محمود بعد أن برحت بها الآلام كما برحت بإبراهيم الذي لا نعلم من أمره بعد ذلك شيئاً .

هذا كل ما نعلمه من حياة إبراهيم الكاتب ، ومع ذلك فباستطاعتنا أن نلقط قسماً من التي تجعل منه أنموذجاً بشرياً لا شك في صدقه ، وذلك لأن تلك الأزمة النفسية كانت كالحلح الذي يكشف في الرخام عن تجاذيعه .

لقد استجاب طبع إبراهيم الكاتب لعدة أحداث ، ولهذا الطبع خصائصه التي كيفت تلك الاستجابات . نلمحه في أول أزمته مريضاً ، وزراه في آخرها مريضاً . ولعله غدى ألمه أو رفه عنه أثناء مرضه بذلك الشعر الجميل المتشائم ، شعر الكتاب المقدس . ألا تراه يستهل قصته بإحدى آياته : « كل الأنهار تجري إلى البحر والبحر ليس بملآن . . . » ، بل ويستهل كل فصل من فصولها : « وكان مساء وكان صباح يوماً واحداً » ، « إلى أن يفيح النهار وتهزم الظلال أذهب إلى جبل المر وإلى تل اللبان » ، « ارجعي ! ارجعي يا شوليت ! ارجعي ! ارجعي فننظر إليك » ، « أيتها الجالسة في الجنات ! الأصحاب يسمعون صوتك فاستمعي » . . . الخ ، مما يفوح حزناً رقيقاً كم شعت به عبقریات منذ دانتى إلى ملتن وفنى . لقد أشربت نفس إبراهيم الكاتب حكمة الكتاب المقدس التي تجنح إلى التشاؤم والإعراض عن الحياة بل احتقارها ، حتى أصبح يرى الكثير مما نتعلق به باطلاً ، و « قبض الريح » ؛ ألا تراه

يسخر من جهد حياته ذاته فيحسبه « حصاد المهشم » ؟ ولا يغرنك منه تلك الفلسفة ،
 فالحياة كالمرأة الجميلة كلما أعرضنا عنها اشتدت وراءنا طلباً ، وإن في إعراضنا للهفة ، وإن
 في استهانتنا الظاهرة لحرصاً لصيقاً بالقلب . انظر إلى نفس إبراهيم الكاتب تناجيه :
 « ولكنك عبد الحياة ، عبدها الباكي الشاكي بغناؤه الذي لا يعجب الأحرار الطلقاء .
 وأحسب أنك معذور إذا بكيت إسارك ، وحاولت أن تتلهى في سجنك . لا بأس ! أرسل
 صوتك ليؤديه الصدى مقطوعاً . نعم ، غنّ وتسلّ كما يصيح الصبي في الظلام ليترد عن
 نفسه المخاوف ، واحلم — على الرغم من الرق والأسر — بالخلود ، وغالط نفسك وقل إن
 الجمال وحى ، وإن الحب ... لا أدري ماذا أيضاً ! ولكن ألا تسمح لي أن أسألك :
 ما وحي الأزاهير الذي يذكي أنفاسها ؟ أو كيف تغدو الأشجار رفاة الغصن فيحاء الثمار ؟
 أو أين وحي النبيوع فاضت به الأصلاذ ؟ لا بأس ! غنّ يا عبد الأيام وألعبوبة الليالي » (ص ١٨٨)
 أو لا ترى في تلك النجوى صراع روح تودّ لو استقلت بذاتها فتحاول أن ترفض الحياة
 ومغريات الحياة فلا تستطيع ؟ روح تهفو إلى أن يكون شعرها أغنية داخلية لا تستمد
 وحيها من أحد ولا من شيء ، كالزهري يرسل عطره ، والشجر يؤتي ثماره ، والنبيوع يصدر
 خريره . وأنسى لها بذلك وهي لم تر الحياة إلا سجيننة ؟

ولقد بلا إبراهيم الحياة وعضته بأنيابها العضل حتى أصبح يحذرهما في يقظة مستمرة
 فلا يستجيب لندائهما أو يحاط به . ماتت زوجته فلاحقته ذكراها سنين طويلة حتى أضنته ،
 وفي معاودة الذكري وإلحاحها ما يرضى . وثمة خواطر جرى بها لسان الشيخ على فأدهشتني
 لأنها بإبراهيم أليق ، وفي لفتات ذهنه أدخل ! قال : « متى جاء الخريف وبدأ المرء يشعر
 بأنه قد رأى خير ما كتب له في عمره ، وأن ما بقي من رحلته في هذه الدنيا أشبه بأن يكون
 وجوداً منه بأن يكون حياة — استمراراً ومجرد اندفاع في الطريق الذي كانت تجرى فيه
 الحياة الأولى كما يجري النازل من الترام خطوات إلى جانبه ... عرف المرء أن أدنه التي
 كانت تشملها همسة الحب الخافتة لن تسمع بعد ذلك تلك اللغة العذبة ، وصار القلب الذي كان
 يطفر إذا هتف بالنفس هاتف من أمل أو طامح يخفق بلا احتفال ولا يخرج من دقه عن
 الانتظام ، وبدأت الآمال والرغائب التي كنا نعزبها ونحرص عليها ، تفقد حلاوتها وقوتها
 ونضارتها ... وتتعري زهراتها من أوراقها ، وتجف وتصفى وتتساقط على اليد ، ويطيرها
 النسيم هنا وهاهنا » (ص ١٦٤) . هذه هو اجس ما أظنها تخطر لرجل كالشيخ على ببال ،
 وذلك لأنه — فيما أعلم — يحيا الحياة ولا يفكر فيها ، وإنما هي فلسفة إبراهيم التي لا أدري
 سر نسبتها إلى الشيخ على ؛ وفيها لوعة تحدثنا بأن سخرية إبراهيم وجفافه الإرادي تعمية

تنشرها الروح بحركة آلية لتخفي ما فيها من حزن ومرارة . ولكم من مرة تنسقط نجوى إبراهيم القلبية فإذا هي : « إن السعادة لا تجنى في الحياة بأن يرد المرء يده ، بل بأن يمدّها إلى الثمار ليحنيها » (ص ٢٨٦) . ولكن ألم نقل إن تحت الرماد ناراً ، وإن في تضاعيف السخرية شعراً ؟ !

إبراهيم الكاتب نفس لا تزال تعرف الحماسة وتستشعر الشهوات . نفس حارة وإن بلبلتها المرارة فسخرت ! وكأني بها تحن إلى أن تتعلق بشيء يملأ ما بها من فراغ يزيد هوته ما انسأقت إليه من إعراض عن الحياة . نفس تودّ لو استغرقها شعور قوى . وهذا ما نالجه في تعلقه بمارى وشوشو وليلى ، على تفاوت في النوع والنسب . تعلق بمارى وقد أضعف المرض من صلابة نفسه ، فسكن إلى رقتها وأخى الحزن بينهما ، وكلاهما لا يزال يذكر شريك حياته الراحل . ثم انعقد قلبه بحب شوشو ، وقد سحره منها فتفتح قلبها البكر كما تتفتح الزهرة لندى الصباح . وكان في جرأة ليلى وقوة نفسها ونضوج أنوثتها ما جذبه وأوشك أن يعزّيه عن شوشو بعض العزاء أو على الأقل أن يلهيه عن بعض ألمه . وإبراهيم نفس غنية كثيرة الحنايا .

إبراهيم الكاتب أنموذج بشري لذلك النوع من الناس الذين يطول تفكيرهم في أنفسهم وفي الحياة ثم لا يهتدون إلى فهم يرتضونه ، فينتهي بهم الأمر إلى التجرد من أنفسهم ومن الحياة يضعونهما أمامهم ليحدقوا فيهما بنظرة ساخرة مؤثرة وإن لم يعدموا أن تقور بهم من حين إلى حين موجة تأتي من القاع ، فإذا بهم يزيدون وإذا بالابتسامة تقطر مرارة ، وإذا بالسرور يتساقط من أطراف أصابعهم كالعرق البارد .

إبراهيم الكاتب شاعر ، ولكم من مرة تتحرر نفسه من قيودها ، فيرى ما حوله من جمال الطبيعة يفتن لدقائقها ، « وكان مما يرفه عن أعصابه أن يرسل اللحظ يريد ليخرق به أحشاء الظلماء ، فتشف له عن نجوم السماء ويرتد اللحظ عما دونها كليلاً حسيراً ؛ وأروع ما تكون السماء عنده حين تنتقل العين في أجوازها المربعة فلا تقطع منها سوى بيد هائلة عن بيد أشد هولا » .

والآن ترى أصحح ما زعمه المازني عندما قال عن إبراهيم الكاتب : « ليس بيننا من تشابه سوى أن كلينا قصير قىء ، وأنا أزيد عليه أني أصبت بالعرج ، فليته كان هو المصاب وأنا الناجي المعافي ! » . وأنا بعد لا أدعي أن أزمة إبراهيم الكاتب قد اتفقت لإبراهيم المازني ، فهذا لا يعنيني ، ولكنني أحس بوشائج روحية بين الرجلين . أو لا ترى أن أنفسهما لوناً وأن لحياتهما فلسفة ؟ كم تهزني روحهما اللطيفة النافذة ! !

فيليسيتيه

Félicité

فيليسيتيه بطله لقصة صغيرة للروائي الفرنسي الكبير فلوير عنوانها « قلب ساذج » .
كتبها المؤلف سنة ١٨٧٧ ، ونشرها مع قصتين أخريين بعنوان « ثلاث أقاصيص » .
في عنوان القصة وفي اسم البطله مايشخص هذا الأنموذج المؤثر . ولو أنك طلبت إلى
أن أترجم هذا الاسم وكان ذلك من حقى لما وجدت خيراً من « أم السعد » ، فإننا نحس في
هذا اللفظ سذاجة القلب وطيبته .

فيليسيتيه خادمة من خدم الريف : عقل محدود ، وقلب رحب . وعن هذه المفارقة يشع
نبل حياتها المتواضعة الحزينة ، فلقد تراها تأتى من أعمال البطولة ما يتحدث به الناس كافة
إلا هي ؛ وذلك لأنها لا تدرى ما البطولة ، بل ولا تفكر فيما تأتى . مثلها مثل كلب أمين ،
لأن الأمانة من طبعه ، يقاتل دون سيده ولقد يمسه الأذى ويعود من المعركة لا يذكر إلا ما به
من جراح يحجبها ألمه . ولقد تنزل بها المحن فتألم حتى لتطرح نفسها على الأرض صارخة معولة ،
ولكنه ألم غفل لا أثر فيه لمذكيات العقل الذى ما يزال يلوك بلوانا حتى يجعل من التوفاه
جلائل الأمور . فيليسيتيه مثل حى لملايين البشر الذين لم تفسد الحياة العقلية طبائعهم فتركتها
كما هي بما تحمل من عظمة وبؤس ، وإنك لتستعرض حياتها فلا تقع على فكرة ولا تقف
عند رأى ، وإنما هي سلسلة من الوقائع لا تخلف بنفس خادمتنا المسكينة غير الإحساس ؛
وأما التفكير فى معنى تلك الوقائع فذلك مالا تعرفه . فيليسيتيه تحيا الحياة دون أن تفكر
فيها ، ولكم تذكرنى حياتها بقول المسيحية : « انس نفسك كي لا تعوق موسيقاها » .

كان وجهها نحيلاً وصوتها حاداً . فى الخامسة والعشرين كانت تلوح فى الأربعين ، وعند
ما وصلت إلى الخمسين لم تعد تم عن أى سن . كنت تراها صامتة دائماً ، منصوبة القد مترنة
الحركات فتحسبها امرأة من خشب تعمل بحركة آلية . فى كل فصول السنة كانت تلبس
منديلا هنديا تشجبه بدبوس إلى ظهرها ، و « بيريه » تحبى شعرها ، وجوارب رمادية ، ثم
« جونلة » حمراء ، وفوق قميصها « مرييلة » كممرضات المستشفى .

ولقد كانت لها حكاية غرام كغيرها من النساء . كان أبوها بناءً قتل فى سقطة من
« السقالة » ، ثم ماتت أمها وتشتت أخواتها ، فأواها رجل فى عزبته واستخدمها صغيرة فى

حراسة البقر بالحقل ، حيث كانت ترتعد من البرد تحت أسماها ، وتشرب الماء من البرك مطروحة على بطنها ، ثم تضرب لأوهى الأسباب ؛ وأخيراً طردت لسرقة فرنك ونصف لم تكن هي سارقتها . والتحققت بعزبة أخرى عملت فيها كحارس « لحوشة » الدجاج ، ولكن زملاءها أخذوا يحسدونها لأنها أعجبت أسيادها .

وفي مساء أحد أيام أغسطس (وهى عندئذ في الثامنة عشرة) قادها زملاؤها إلى عيد كوثليل ، وإذا بلها يطير لضوضاء لاعبي القيثارة وللأضواء المثبتة في الأشجار ، ولألوان الملابس الزاهية ؛ للدنتلا والصلبان الذهبية وتلك الكتلة البشرية التي تقفز راقصة دفعة واحدة . هنالك انتحت في تواضع ركنًا ، وإذا بشاب ثرى المظهر يدخن البيبة وهو متكئ بمرفقيه على حجر عربية صغيرة يأتي يدعوها إلى الرقص ، ثم يقدم لها كوبا من عصير التفاح المخمر ، وفنجانا من القهوة ، وقطعة من الفطير ، ويشتري لها « كوفية » ، وكأنه أحس برغبة نفسها فعرض عليها أن يصطحبها إلى منزلها . ولكنه أثناء الطريق طرحها بوحشية على حافة حقل من الشوفان ، فتملكها الرعب وأخذت تصيح وإذا بالفتى يغادرها مسرعا .

وفي مساء آخر وهى في طريق « بومون » أرادت أن تسبق عربية محملة بالشوفان كانت تسير أمامها في بطء ، وبينما هى تمر ملامسة عجلات العربى لمحت « تيودور » الذى تقدم نحوها في مظهر هادى طالباً إليها أن تغتفر ما كان ، لأن الخطأ لم يكن منه وإنما كان من الشراب ؛ فلم تعرف بم تجيب وإن أحست برغبة قوية فى الهرب . ولفوره أخذ يتحدث عن المحصول وعن أعيان الناحية ، لأن أباه كان قد ترك كوثليل وذهب إلى عزبة « الأيكو » ، وبذلك أصبحا جيرانا . أجابت : آه ! وأضاف أنهم يريدون منه أن يستقر وإن لم يكن هو فى عجلة ، وكان يفضل أن ينتظر حتى يعثر بامرأة على هواه ؛ فطأطأت رأسها . وسألها . هل تفكر فى الزواج فابتسمت قائلة : إنه ليس من الخير السخرية من الناس . كلا ! أقسم لك . وبذراءه الأيسر طوق خصرها فسارت مستندة إلى ضمته وتباطأت خطاها . لقد كانت الريح رخوة والنجوم تلمع ، وحمل الشوفان الضخم يترشح أمامهما على العربى ، والخليل الأربعة تجر أرجلها مشيرة التراب ، وعرجت الخيل إلى اليمين دون أن تؤمر ، وقبلها مرة أخرى ثم اختفت فى الظلال .

فى الأسبوع التالى حصل منها تيودور على موعد والتقى بأقضى « الحوش » خلف حائط تحت شجرة منعزلة . إنها لم تكن فى سذاجة الأنسات ، إذ كانت الحيوانات قد علمتها ، ولكن العقل وغريزة الشرف منعها من أن تسقط . وكان فى مقاومتها ما هييج

حب تيودور حتى اضطر لكي يرضى ذلك الحب أو . . . لسذاجته أن يعرض عليها الزواج ، فترددت أن تصدقه ، ولكنه أقسم أغلظ الإيمان . وبعد أيام اعترف لها بشيء معرقل ، ذلك أن أهله كانوا في العام الماضي قد اشتروا له رجلاً يذهب بدلاً منه إلى الجندية ولكنه لا يأمن أن يطلب من يوم إلى آخر ، وكان في هذه الفكرة ما يخفيه . ورأت فيليسييتيه في هذا الجبن مظهراً من مظاهر الرقة نحوها ، فزادت رقتها نحوه . وأفلتت في الليل لتأتى للموعد وإذا بتيودور يعذبها بقلقه وإلحاحه ؛ وأخيراً أعلن أنه سيذهب بنفسه إلى مقر العمدة ليسأل عن الإجراءات ويأتيها بالأخبار يوم الأحد المقبل بين الساعة الحادية عشرة والظهر . وعندما حانت تلك الساعة أسرع فيليسييتيه إلى الموعد ، ولكنها وجدت مكانه أحد أصدقائه ؛ وأخبرها ذلك الصديق أنها لن ترى تيودور بعد اليوم ، لأنه كي يأمن التجنيد قد تزوج بأمرأة عجوز عظيمة الثراء هي مدام « ليهوسيه » من قرية « توك » .

لقد كان ألمها ألماً مضطرباً لا نظام فيه . ألقت بنفسها على الأرض وأطلقت صيحاتها ، ونادت الله الرحيم ، وأنّت وحيدة في الحقل طول الليل ، حتى إذا طلعت الشمس عادت إلى العزبة وأعلنت رغبتها في الرحيل . وبعد شهر أخذت حسابها ، ثم لفت كل متاعها في منديل وذهبت إلى « بون لثك » .

هنالك أمام الفندق عثرت باحدى نساء الأعيان ، امرأة في ثوب الحداد اتفق أن كانت تبحث عن طبخة ؛ ولم يكن يلوح على الفتاة أنها تعرف شيئاً ، ولكن مظهر الاستعداد الطيب والتسامح في أجراها كان بادياً عليها ، حتى إن مدام أوبان انتهت بأن قالت لها سأخذك عندي ؛ وبعد ربع ساعة كانت فيليسييتيه عند مدام أوبان .

ومكثت فيليسييتيه نصف قرن عند مدام أوبان ، وكانت نساء أعيان بون لثك يحسدنها من أجل تلك الخادمة التي كانت تطبخ وتنظف المنزل وتخييط وتغسل وتكوى ، كما كانت تعرف كيف تلجم الحصان وتضرب الزبد و « تظغط » الطيور ، كل هذا مقابل مائة فرنك في العام ، وفوق ذلك كانت وفية لسيدتها مع أنها لم تكن سييدة طيبة .

كانت تستيقظ منذ الفجر حتى لا تفوتها الصلاة في الكنيسة ، وكانت تعمل حتى المساء دون انقطاع ، حتى إذا انتهى العشاء وأعدت الأطباق المغسولة إلى مواضعها ، دفنت الخشب تحت الرماد داخل المدفأة ونامت أمامها ومسبحتها بيدها . ثم إنهما في مساومة الباعة لم يكن أحد أشد منها عناداً ، أما عن النظافة فقد كان بريق أوانها مصدر يأس للخدمات الأخريات . ولحرصها على الاقتصاد كانت تأكل في بُطء ، وتلم بأصابعها فتات الخبز الذي يتساقط على

المائدة ، ذلك الخبز السميك الذى كان يصنع لها خاصة ، كل رغيف اثنا عشر رطلاً تأكل منه عشرين يوماً كاملة .

أما مدام أوبان فكانت أليماً ، إذ أنها تزوجت صغيرة بشاب جميل رزقت منه بولد هو پول وبينت هي فرجينيا . ثم مات زوجها فعاشت الأيم بعده عشرات السنين وذكرى ذلك الزوج تحلق فوق كل شيء ؛ فالصالون مسجى بالحديد وقد أغلقته إلى الأبد ، والبيان متروك بالصالة ومن فوقه أعمدة من صناديق الورق ، وصورة «المرحوم» بالحائط تشرف على الجميع . وكان مجلسها باستمرار فوق كرسي من القش وضعته أمام المدفأة التى كنت ترى على جانبها مقعدين آخرين من القماش لا يغادران موضعهما ، وفى المنزل كله رائحة تشبه العفونة تقطر حزناً . وتتابعت السنون والأيام متشابهة إلا أن تكون أيام الأعياد . وكانت مدام أوبان لا تؤرخ تلك السنين إلا بحوادث حياتها الداخلية التافهة ؛ ففي عام كذا أحضرت عاملاً أعاد طلاء الصالة ، وفى عام كذا سقط جزء من سقف الحوش فكاد يقتل رجلاً ، وبعد ذلك بسنين ماتت إحدى صديقاتها أو انتقل أحد معارفها إلى بلدة أخرى .

ومع ذلك فقد جددت حوادث أعظم من كل ذلك خطراً . ففي ذات يوم قصدت مدام أوبان وابنها وبنتها ومعها فيليسييتيه إلى إحدى عزبتيها ، وكان اليوم كثير الضباب ، وإذا بشورها عجيب غير عليهم ، ولولا خادماتهم الشجاعة لافترسهم ؛ وذلك أنها أخذت تتناول قطع الطمى والأعشاب تلقىها فى وجه الثور متراجعة بظهرها حتى شغلته إلى أن تمكن أسيادها من النجاة وأخيراً وصلت إلى سياج والثور يطاردها ، وبحسن توفيق تسلفت بين قضبان السياج فلم تصبها قرون الثور الذى أوشك أن يقدر بطنها . وبهذا اليوم تحادث جميع الناس ، وأما هي فلم يخطر ببالها أنها قد أتت عملاً نبيلاً . وكان من أثر الخوف الذى نزل بهم جميعاً أن مرضت فرجينيا بأعصابها ، ولم يزل الداء يلح عليها حتى ماتت فكان حزن فيليسييتيه لموتها لا يقل عن حزن أمها ، وذلك لأنها كانت لا تزال تذكر تلك الأيام التى كانت تحمل فيها فرجينيا وپول على ظهرها كأنها حصان . ولئن كانت تلك الخادمة المسكينة قد وجدت شيئاً من العزاء ، فإن ذلك لم يكن إلا فى الحصلة التى أخذتها من شعر الميتة واحتفظت بها فى صدرها .

وتكالت المحن على فيليسييتيه ، إذ أنها لم تسكدهمتهدى إلى مكان إحدى أخواتها وتتعرف إلى ابن أختها فكتور الذى كان يافعاً جميلاً حتى سافر المسكين فى رحلة بحرية مع السفينة

التي كان يعمل بها بحاراً ، وكان سفرأ مشؤوماً ، إذ لم يعد منه . ولكم سألت فيليسيثيه عن تلك الجزر النائية التي قصد إليها ، ولقد أروها فعلاً جزيرة هافانا على الخريطة ، ولكنها لم تقنع بذلك بل وددت أن لو أروها — على الخريطة أيضاً — المنزل الذي سيسكنه فكتور عند وصوله ! ولكم كان حزنها مرأً عند ما علمت بوفاته .

وكانت فيليسيثيه صادقة الإيمان بالدين إيماناً ساذجاً ؛ كم من مرة ذهبت لتعترف بخطاياها والله يعلم أنها كانت خطايا هينة لا يحمر لها وجه عذراء . وأخذ خيالها الفطري يرى مظاهر الله في كل شيء . كانت تستمع إلى القسيس يتحدث عن الله فتود لو تصورت شخصه ، ولكنها لا تصل إلى ما تريد ، فهو أحياناً طائر وأحياناً قبس من النور ، وأحياناً نسمة من الريح . ومن يديرها لعله الضوء الذي يهفو في الليل على حافة الغدران أو الريح التي تسوق السحب ، ولعل صوته هو الذي يتردد في النواقيس نغمات منسجمة . بل لقد أحبت كل حمل بسبب الحمل المقدس ، وكل حمامة بسبب روح القدس .

وكان لروح القدس في نفسها أثر عجيب ، ولذلك حكاية تستحق أن تروى . فقد حدث أن إحدى صديقات مدام أوبان أهدت إليها ببغاء ، ولم تدر السيدة ماذا تفعل به ، فتركته لفيليسيثيه التي تعلق به تعلقاً شديداً ، وبعلاقة ساذجة جمعت بين محبتها لله ومحبتها لذلك الطائر . أو ما يشبه الحمامة ، رمز الروح المقدسة ؟ وازداد إحساسها هذا تجسماً عند ما مات الببغاء وحنطته محتفظة به في حجرتها ، وانتهى بها الأمر أن أصبحت تعبد الله جاثية أمامه .

وماتت مدام أوبان ، فتساءلت فيليسيثيه ، كيف يجوز أن تموت سيدتها قبلها . وكان پول قد تزوج ، فأدت زوجته لتأخذ من الأثاث ما يصلح للبيع ، ولكم كان حزن فيليسيثيه عميقاً عند ما رأت زوجة الابن تنثر ملابس فرجينيا التي احتفظت بها مدام أوبان في (الدولاب) كآثار مقدسة . وكانت الخادمة المسكينة قد ترفق بها القضاء ، فأصابها الصمم وفقدت بصرها فلم تسمع ولم تر شيئاً مما قيل أو فعل ، إلا القليل الذي أدركته بالحدس . وكانت سيدتها قد وقفت عليها معاشاً صغيراً استطاعت أن تقتات به أياماً قليلة ، إلى أن وافاها أجلها ، وكان ذلك في يوم عيد ديني ، فلم تحزن فيليسيثيه لمغادرة الحياة قدر حزنها لعدم استطاعتها المشاركة في ذلك العيد الذي طالما فرحت بقدمه .

هذه حياة فيليسيثيه . حياة حزينة مؤثرة ، حياة محبة وإيثار ؛ لقد أحبت پول وفرجينيا

طفلين ، ولم يكن يحز في قلبها شيء مثل حظر مدام أوبان عليها أن تقبلهما في كل حين ؛
ومن قبل أحبت تيودور وحسبت أنها ستزوج كغيرها من الفتيات فخاها تيودور وخايتها
الأيام ؛ ومن بعد فرحت بشكوتور فمات فمكتور وبففسها حسرة ، إذ لم تستطع أن ترى منزله
على الخريطة بتلك الجزر النائية التي أبحر إليها . ولكنها قد وجدت في محبتها لله عزاء عن كل
الحزن ، وما عليها أن ترى الله في طائر أو في مظاهر الوجود ، والله روح بكل مكان وكل
نفس ، ولربما كان هذا التجسيم الساذج سبباً في قوة إيمانها ، ولعل الله قد قبلها قبولاً حسناً
فقد كانت حياتها بطولة صامته ، بطولة عظيمة لأنها تجهل نفسها .

الأستاذ پتلان

Maître Pathelin

الأستاذ پتلان بطل مهزلة "Farce" ظهرت بفرنسا فى أواخر القرون الوسطى سنة ١٤٦٠ م . ونشرت سنة ١٤٨٠ . وأما مؤلفها فقد تضاربت بشأنه الآراء : فمن قائل إنه « فرانسوا فيون » F. Villon ؛ ومن قائل إنه جيوم دى لوريس Guillaume de Lorris ؛ ومن قائل إنه أنتوان دى لاسال Antoine de La Salle ؛ ومن قائل إنه پيير بلانشيه Pierre Blanchet ؛ ولكنها كلها فروض لا تفيد يقيناً بحيث يصبح من الخير أن نعرف بأننا لا نعرف ذلك المؤلف .

ولقد لاقت تلك المهزلة نجاحاً عظيماً عند ظهورها ، فثلت مرات كثيرة ، وإلى اليوم لا تزال تمثل فى الجامعات الفرنسية ، ولا تزال تقرأ رغم صعوبة لغتها القديمة ، التى تختلف اختلافاً محسوساً عن اللغة الفرنسية الحديثة . ولما كانت تدرس بكافة المعاهد الفرنسية ، فإن بطلها قد أصبح فى شهرة أكبر الشخصيات الروائية ، فما من فرنسى يجهل الأستاذ پتلان ، بل قل أن يجمله أوربى مثقف .

ولا أدل على نجاح الأستاذ پتلان من أن يصبح اسمه من مفردات اللغة الفرنسية ، فيوصف الرجل بأنه « پتلان » C'est un Pathelin أى « ماكر » ، ومن الاسم اشتق فعل كما اشتق مصدر ، فيقال Patheliner (پتلن) ، كما يقال Pathelinage « پتلنة » بمعنى : « يمكر » و « مكر » . « الأستاذ پتلان » المحامى أنموذج خالده للمكر الذى يعرف من أين تؤكل الكتف ، والمكر ليس ملكة مستقلة ، وإنما هو وليد لمركب عجيب من قوى النفس . المكر ذكاء ينفذ إلى النفوس فيعرف مواطن الضعف فيها ، وإلى تلك المواضع يتسلل فيختلس الثقة ؛ والمكر إحساس باطنى بالنسب ؛ إحساس يقف بصاحبه عند طاقة الغير يعالجها برفق حتى يقودها إلى ما يريد وكأنه لا يعى ما يفعل ؛ والمكر أخيراً قدرة على تصريف القول ، وشعور دقيق بمفارقات الألفاظ . وهو صفة إذا حرم منها إنسان فقد سلب لا يمكن أن يغنى عنه سلاح آخر للنجاح فى الحياة . صفة لازمة لا لرجال العمل فحسب ، بل لرجال الفكر أيضاً ، وذلك لما هو واضح من أن الحياة البشرية كلها إنما تنهض على فهمنا لنفوس الغير ، وتذليل تلك النفوس ؛ وإذن

فالمكر ليس شراً في ذاته ، وإنما يصبح شراً إذا أفلت من رقابة الضمير ، ومثله مثل الكثير من قوى الحياة والوجود .

ومع هذا فالأستاذ پتلان مثل للمكر السيئ الذي يحقق بصاحبه ، فهو لا يستخدم دهاءه للوصول إلى حق يرد عنه حق البشر أو شرهم ، بل يستخدمه في اختلاس مال غيره أو تضییع حقوقهم .

نراه في أول المسرحية وكأن الملل قد أخذ بملكاته فغفت ، فأتته امرأته « جيمت » Guillemette تستنهضه بصوتها الحاد كالصرير : « يا صلاة النبي ! لا قشة بالدار ! سيفيننا القحط ! لقد تأكلت ملابسنا حتى لم تعد إلا أسملاً ، وما ندرى كيف السبيل إلى تعويضها . إيه ! قل لي ماذا أفدنا من علمك ؟ ! » . وما أن حركت « جيمت » كبرياء الأستاذ — إذ تحدثت عن علمه — حتى استيقظ من سنته صائحاً بها : « اخرسى ! وذمتي لو أنني أردت أن أستخدم ذكائي لعرفت أين نجد ما نريد من ثياب وقبعات . وبعون الله سنفلت من الضيق ونرتفع لساعتنا . نعم ، من دقيقة إلى أخرى يأتي الله بالفرج . وعندما آخذ في استغلال مهارتي لن ترى لي مثيلاً » . وانطلق پتلان إلى السوق يتحسس فرائسه ، وإذا به أمام حانوت السيد جيوم جوكوم Maître Guillaume Jocaume بائع الأقمشة المشهور بالحذر والبخل . والأستاذ پتلان رجل معتر بملكاته ، ولهذا يروقه أن يستغل السيد جيوم ، فيرضى في نفسه كبرياء الفنان الذي يهزه التغلب على الصعوبات الحقيقية .

وسبيل پتلان إلى ما يريد هو ما ذكرت من فن المكر . عليه أن يختلس ثقة السيد جيوم . وهو لا يخترع شيئاً ، وإنما يستخدم الطريقة التي يحذقها حتى اليوم ملايين البشر : « آه ! إنني مسرور برؤيتك يا سيد جيوم ! كيف حالك ؟ هيا ! اعطني يدك . لعلك في صحة طيبة . والتجارة ، كيف حالها ؟ ... الخ » . وأحس الأستاذ پتلان أنه قد أخذ يصل إلى نفس السيد ، فأوغل في غزوه ، وتحدث إليه عن والده : « آه ! لقد كان والدك يا سيد جيوم رجلاً طيباً . كان تاجراً ماهراً . كم من مرة حدثني متنبئاً بما نرى اليوم » . وسكن السيد جيوم إلى الأستاذ پتلان ، إذ تحركت نفسه وقد رأى رجلاً من رفاق أبيه القدماء ، فطلب إليه أن يجلس ، وكان هذا أول نصر أحرزه الأستاذ .

جلس پتلان ووجهه يتهلل سخرية ، وحدث في وجه السيد جيوم ثم قال : « يا الله ! إنني ما رأيت قط ابناً يشبه أباه إلى هذا الحد ! العيان والأنف والفم كلها من المرحوم . وعرض الذقن ، حقاً إنك هو بقضه وقضيضه . يا للعجب ! كيف تخلق الطبيعة وجهين

متشابهين هذا التشابه التام ؟ ! » . ومرتلتان من الحديث عن أبي جيوم إلى الحديث عن عمته لورانس ، ملاحظاً أنه يشبهها أيضاً بجسمه . وعاد من العمة إلى الأب ، الأب الهام ، الخبير بأمرار التجارة . لقد كان — رحمه الله — لا يتردد في أن يقرض ماله من يريد . وأحس پتلان أن أقواله قد أحدثت أثرها ، وذلك لما لاحظته من أن السيد جيوم قد نام حذره ، فأخذ يبتسم ويتلطف ؛ وهنا رأى الأستاذ أن الوقت قد حان ليخطو خطوة جديدة . وبحركة شبه آلية طرح يده على ثوب من القماش ونظر إلى الثوب ، فقطع عليه الإعجاب سلسلة الحديث : « آه ما أجمله قماشاً ! ليناً ؛ رقيقاً ؛ مُخَمَّلاً » . وفي سرعة خاطفة وجه الحديث وجهة أخرى ؛ ولكن السيد جيوم تاجر ، ولقد أيقظت كلمات پتلان العبارة غريزة الكسب في نفسه ، فعاد هو بالحديث إلى القماش ، وتظاهر الأستاذ پتلان بالسذاجة حتى أوهم الرجل بأنه سينجح في إغرائه بالشراء .

« آه ! حقاً . لقد أغريتني . والواقع أنه لم يكن في عزمي أن أشتري قماشاً في هذا العيد ، ولذلك وضعت قبل مغادرة المنزل ثمانين جنياً في الخزانة لأدفعها تسوية لمعاشي مدى الحياة . ولكن يظهر أنك ستأخذ منها عشرين أو ثلاثين . ذلك ما يبدو لي ، فاللون قد أعجبني إعجاباً خالصاً حتى ليؤلني أن نحرم من قماش كهذا » .

بذلك تهيأت الصفقة ، ولم يبق إلا الاتفاق على الثمن ودفعه ؛ وهنا تظهر مهارة پتلان فهو يأبى إلا أن يدعو السيد جيوم ، بعد أن اتضح ما بينهما من معرفة قديمة ، إلى تناول الغداء معه ، وبخاصة لأن مدام پتلان في ذلك اليوم كانت تشوى إوزة سمينة ، وقد أعدت إلى جوارها النبيذ الجيد المعتق ، وتكون هذه فرصة مواتية يوثق فيها الود مع پتلان ، ثم يأخذ جنبياته ويعود إلى حانوته مشكوراً . وأغرت الإوزة ، وأغرى النبيذ السيد جيوم ، فوافق على أن يحمل القماش وقت الغداء ويأتي إلى منزل پتلان . ولكن الأستاذ لا يريد هذا الحل ، ولا بد له من أن يعود إلى زوجته بالقماش ، وإذن فلا بد له من حيلة جديدة يتم بها ما بدأه ، والأمر سهل ، فهو لا يقبل أن يحمل السيد جيوم ثوب القماش تحت إبطه ، بل سيحمله هو ، وبذلك يوفر على السيد جيوم — ابن ذلك الأب الكريم الذي تشرف بمعرفته منذ سنين — مشقة حمله . ولكن جيوم يأبى هذا الحل ، ويلح في أن يحمله هو ؛ فينتفض پتلان رافضاً رفضاً باتاً أن يتحمل جيوم كل هذه المشقة من أجله ، ثم يزج باسم المرحوم في الحديث من جديد ، ذاكراً ما كان بينهما من ود وتزاور . ويتورط جيوم ، فلا

يرى بدأ من التسليم للأستاذ بما يريد ، ويأخذ پتلان القماش ويعود إلى منزله بعد أن تواعدا على المائدة .

إلى هنا نجح الأستاذ پتلان في النصب ، فأخذ القماش دون أن يدفع قرشاً واحداً ، وكان سر نجاحه في علاجه لنفسية جيوم : فقد عرف كيف يحادثه فيما يهمه ، وكيف يتدرج في ذلك الحديث كلما ازداد الخصم إقبالا واستنامة ، وقد حرص على أن يكون حديثه دائماً أبعد ما يكون عما يريد ، وكأنه حديث برىء ؛ فهو لم يذكر القماش إلا عرضاً وكأنها المصادفة البحتة ، ثم وجه الحديث وجهة أخرى ؛ وعند ما عاد إليه تظاهر بأن الخصم هو الذى يقوده ويغريه وهو يكتب رغبته الخفية ، حتى لكان الضففة في مصلحة الخصم وما صاحبنا إلا فريسة ؛ وفي النهاية « يكلفت » السيد جيوم ، كما يقول العوام ، في فيض من الأقوال المعسولة التى تورط الرجل . وتلك لا ريب مهارة دقيقة ، فيها مزيج من التملق اللبق ، ومن التظاهر بالسذاجة ، كما فيها فطنة إلى أهواء الخصم واتجاهات نفسه ، ومواقع ضعفه ، واستغلال لكل ذلك على نحو لا يكاد يلحظ .

ولكن جيوم سيلاحق أستاذنا بمنزله ، فكيف السبيل إلى الخلاص منه ؟

هنا تنكشف نفس پتلان عن قوى جديدة ، أخصها المرأة ، المرأة الصفيقة . فهو يتفق مع زوجته على أن يتصنع المرض ، وأن يدعى أنه مريض منذ أسبوع ، لم يغادر خلاله الفراش قط ، وأن يلعبا الدور معاً بحيث يوهان المسكين جيوم أن قصة القماش ، والجنينات ، والإوزة والتببذ ، وما إليها ليست إلا هذيان محموم . وفعلاً يرقد پتلان فى السرير ، وما يكاد جيوم يدق على الباب حتى تخف إليه « جيومت » على أطراف أصابعها واضعة سبابتها على فمها ليصمت جيوم ، ولا يرفع صوته فيزعج المريض . ويجرى حوار مضحك بين جيوم وجيومت يطالب فيه الرجل بالقماش أو النقود ، فتدعى جيومت الغفلة وكأنها لا تفهم شيئاً مما تسمع ، وهما الشاغل مرض زوجها ، وقلقها الشديد على حياته ، وقد يئس الطبيب من شفائه ، ويطول الجدل ، فيصيح پتلان من فراشه : « جيومت ! جيومت ! قليلاً من ماء الورد ، ارفعيني ! دثرينى ! حككى مسطح قدمى » . وتدخل جيومت إلى المريض فيتبعها جيوم ، ويطالب الرجل بدينه ، بينما پتلان يخاطبه كأنه الطبيب الداوى ، فيحدثه عن أثر الدواء الأخير وعن أرقه وأحلامه المزعجة . ويثور جيوم فيزداد صوته ارتفاعاً . وهنا تقرر جيومت إخراجه ، وتعنفه أشد تعنيف لإقلاقه المريض ، وتطلب إليه الانسحاب حتى لا يأتى الأطباء فيجدونه ، فيظنون أنه قد أتى من أجلها . وعندئذ لا يرى السيد جيوم بدأ من

التراجع ، وقد أخذت الشكوك تساوره حتى أوشك أن يظن أنه مخبول ، وأنه في حلم يقظة فقرر أن يعود إلى حانوته ليقبس ثوب القماش كاملاً ، ويتأكد من أنه قطع منه ستة أذرع . انسحب إذن جيوم ليعود إلى حانوته يختبر بضاعته ، ثم لم يلبث أن عاد . ولكن پتلان لم يكن بالرجل الذى تنفذ حيله . عاد جيوم يهدد بإحضار البوليس إن لم يُرد إليه القماش أو يعطى جنيهاً ، فاضطربت جيوت ؛ وأما الأستاذ فقد كانت أثبت من ذلك قلباً ، فأخذ يهنئ بكل اللهجات الفرنسية ، حتى إذا استنفدها هنئ باللاتينية ، وسخر من جيوم في تلك اللغة التى يجهلها بائع القماش . وينجح الأستاذ في تمثيل الدور نجاحاً ينسى معه جيوم قماشه ولا يعود يذكر إلا أنه في حجرة رجل يحتضر ؛ وهنا يأخذه الخوف حتى ليبدو له أن ما حدث ليس إلا ألحوبة من الأعيب الشيطان الذى تنكر في هيئة پتلان ليسلبه قماشه ؛ وإذا وصل إلى هذا الإحساس لم ير خيراً من أن ينسحب في سلام .

بهذه الخاتمة كان من الممكن أن تنتهى القصة : فالسيد جيوم قد استخار الله ، وآمن بأن الشيطان هو الذى أخذ قماشه ، ولقد رسم الصليب على جبهته وجانبى صدره ، ثم هم بالعودة إلى منزله مستعيذاً من الشيطان الرجيم . ولكن القصة فيما يظهر كانت شعبية الأصل ، والشعب يعلم أن المكر السيئ لا يحق إلا بأهله ، وبذلك جرت حكمته المأثورة منذ آلاف السنين . ولإذن فلا بد للقصة من خاتمة أخرى ينال فيها پتلان جزاءه . ومن ثم تصور المؤلف حادثة أخرى من الممكن أن تكون قصة بذاتها ، واتخذ منها خاتمة لقصة پتلان وجزاء لمكره السحيق .

وذلك أن جيوم لم يكذب يغادر الباب حتى وجد نفسه أمام راعى غنمه توما الحميل « مصغر حمل » ، وكان توما هو الآخر راعياً ما كراً ، كم من مرة ذبح خراف جيوم ثم ادعى أنها قد ماتت بالحمل ؛ ولكن السيد جيوم قد أخذه في المرة الأخيرة متلبساً بجريمته ، وها هو الحميل يأتى إلى الأستاذ پتلان ليوكلاه في الدفاع عنه أمام القضاء . ونظر الأستاذ فأحس أن القضية صعبة ، ولكن انتصاره على جيوم أغراء بانتصار جديد ، فقبل الوكالة ، وكانت خطة دفاعه بالغة البساطة ؛ فقد اتفق مع الحميل على أن يلعب راعينا دور الأبله ، فيجب على كافة الأسئلة التى توجه إليه بجواب واحد هو : « بآ » كحميل حقيقى ، وهذا ما كان . فقد تقدم الخصمان إلى المحكمة ، وكان القاضى لا يخلو من بله ، وتقدم الأستاذ پتلان كدافع عن الحميل ، ولكن جيوم لم يكذب يرى الأستاذ حتى جن جنونه ، فقد تركه لتوه مريضاً بمنزله ، وها هو الآن في ساحة القضاء ! واحتدم الغيظ في نفس الرجل فنسى دعوى الغنم ، وأخذ يهاجم پتلان مطالباً

إياه بالقماش أو الجنيهاً ، والقاضى لا يفهم شيئاً مما يسمع ؛ فالقضية قضية غم ، والغم لا ذكر لها ، والجميل لا يجيب بغير « بآ » ! واستمر السيد جيوم يقفز من الغم إلى القماش ، ثم يعود إلى الغم ، حتى ضجر القاضى ، وتتهيأت لبتلان الفرصة ليطلب من قاضينا المبجل إلزام جيوم الصمت ، وإطلاق سراح الراعى ، والحكم على المدعى بالمصاريف ؛ وهذا ما كان . بل لقد بلغ الأمر ببتلان أن نال ثقة القاضى نفسه ، فدعاه حضرته إلى تناول الغداء معه . وهنا يطير عقل جيوم ، فيسرع إلى بيت ببتلان ليتأكد من أن الشيطان لم يخدعه ثانياً ، وليستوثق من أن ببتلان قد غادر منزله ، وذهب حقيقة إلى المحكمة .

على هذا النحو يكون المكر قد انتصر مرة أخرى ، وبذلك تظل غريزة العدل غير راضية . والشعب حريص على العدل حتى فى مهازل المسرح . ومع ذلك فما هو ذا الجميل يهم بمغادرة المحكمة ، وهو يتوثب سروراً بعد أن فاه بآخر « بآ » ، وما هو ذا ببتلان قد كسب القاضى والقضية ، فأين إذن عقاب المكر الخبيث ؟!

لقد تلقى ببتلان عقابه من الجميل ، وذلك لأنه لم يكذب بوقفه بباب المحكمة طالباً إليه أجر الدفاع حتى أجابه حميلنا بـ « بآ » ، وعبثاً حاول الأستاذ أن يقنع الجميل بأنه لم يعد فى حاجة إلى « بآ » ، وأن القضية قد انتهت ، وأنه يود الانصراف إلى منزله . ويعود يطلب أجره ، فلا يجيب الجميل بغير « بآ » ، حتى انتهى الأمر بأن يؤس ببتلان نفسه ، ببتلان الذى عبث بجيوم وبالقاضى ، ثم ها هو الجميل يعبث به بدوره . وافترق الرجلان ، وقد تعلم ببتلان درساً صفق له الشعب أشد تصفيق ، إذ وجد الماكر من يمكر به ؛ وقد تلخص مكر الجميل فى كلمة واحدة أقلت بأسلحة ببتلان كلها إلى الأرض .

هذه هى قصة الأستاذ ببتلان الذى أصبح مضرب الأمثال فى الدهاء ، وأجزاؤها المختلفة ليست فى نسبة واحدة من الصلة بالحياة ؛ فبتلان الذى نلقاه فى الحياة فنشقى به ، هو ببتلان الذى عرف كيف يحتال فيكسب ثقة السيد جيوم ويأخذ منه القماش . هذا الجزء من القصة لا نبالغ إذا قلنا إنه يتجدد عشرات المرات فى اليوم الواحد فى بقاع الأرض كافة . وأما الأحداث التالية ، كتمارض الأستاذ وورطانته بمختلف اللهجات ، وانتهاء الأمر بجيوم إلى الإيمان برجس الشيطان ، وحادثة الجميل « بآ » ، فواقف مسرحية تثير الضحك ، ولكنها لا تكشف من أسرار الحياة شيئاً وهى أشبه ما تكون بمهازل مسارحنا . ونحن بعد لا نذيع سراً إذا قلنا إننا محاطون من كل جانب بأنواع من ببتلان ؛ وأما جيوم فأكبر الظن أنه موجود هو الآخر ، وكل ما نخشاه هو ألا نجد « الجميل » . ورحم الله من قال :

« إني لست بخبٍ ولكن الخب لا يخدعنى » .

راستنيك

Rastignac

إيوجين دي راستنيك ، شخصية روائية ضخمة من شخصيات هونوريه دي بلزاك (١٧٩٩ - ١٨٥٠) الكاتب الفرنسي الشهير . وأكبر الظن أن اسمه معروف لدى الكثير من القراء ، وذلك لأن بلزاك قد تحدث عنه في عدد كبير من رواياته ، حتى لنحسبه قد بلغ من نباهة الذكر ما بلغه كبار رجال التاريخ . لقد ملأ راستنيك « الكوميديا البشرية »^(١) بوجوده الصاخب ، بل لقد أفلت منها ليجوب الحياة ، وهو لا شك حيٌّ بيننا ، يجده كل من يعمن النظر فيمن يحوطنا من رجال .

ونحن لن نقص تاريخ حياة راستنيك منذ البدء إلى النهاية . وبلزاك نفسه لم يجمع تلك الحياة ، ولا تتبعها تتبعاً تاريخياً ؛ وهو القائل في مقدمة روايته « إحدى بنات حواء » في صدد الحديث عن راستنيك : إنه كثيراً ما يحدث « أن نعرف وسط حياة شخص قبل أن نعرف بدأها ، وبدأها بعد خاتمها ، وتاريخ الوفاة قبل تاريخ الميلاد » . ولقد أدرك المؤلف نفسه ما سيجده النقاد من مشقة عندما يحاولون استقصاء أخبار إحدى شخصياته الكثيرة التي يسايرها من رواية إلى أخرى ، فتصور — مازحا — أن يتولى أحد الباحثين وضع « معجم للشخصيات » يلخص فيه حياة كل شخصية ، مشيراً إلى مظان تلك الحياة من « الكوميديا البشرية » . وهذا ما كان فعلاً ؛ فقد كتب الأستاذان أناتول سرفير وجيل كرسطوف « فهرساً تحليلياً للكوميديا البشرية »^(٢) ، وباستطاعة القارئ الباحث أن يعود إلى هذا الفهرس ليجد كل ما يريد معرفته عن راستنيك منذ ميلاده إلى أن أصبح وزيراً خطيراً ، وثرياً من كبار الأثرياء .

(١) من المعلوم أن هونوريه دي بلزاك قد جمع رواياته في آخر حياته تحت عنوان واحد هو « الكوميديا البشرية » ، ثم قسمها إلى مجموعات هي : ١ — مناظر من الحياة الخاصة ، ٢ — مناظر من حياة الأقاليم ، ٣ — مناظر من الحياة الباريسية ، ٤ — مناظر من الحياة السياسية ، ٥ — مناظر من الحياة الحربية ، ٦ — مناظر من حياة الريف . ثم أضاف إلى هذه المجموعات : ١ — دراسات فلسفية ، ٢ — دراسات تحليلية .

أما نحن فيكفينا أن نعود إلى مقدمة « إحدى بنات حواء » التي أشرنا إليها فيما سبق ، لنرى بلزك نفسه يلخص لنا جانباً كبيراً من حياة بطلنا . فهو يحدثنا أنه قد ولد سنة ١٧٩٩ في راستنيك بمقاطعة شارانت ، وأنه ابن للبارون والبارونة دي راستنيك ، وأنه قد أتى إلى باريس سنة ١٨١٩ ليدرس القانون بالجامعة ، وسكن في پنسيون مدام فوكير (Vauquer) حيث تعرف بچاك كولان (Jacques Collin) المشهور باسم فوتران (Vautrin) ، كما تعرف بهوراس بيانشو (H. Bianchon) الطالب الذي سيصبح فيما بعد طبيباً عظيماً ؛ وأنه قد أحب مدام دي نوسنجان (Mme de Nucingen) بعد أن تخلى عنها عشيقها الأول دي مارسيه (De Marsay) . وكانت مدام دي نوسنجان هذه بنتاً لرجل يسمى « جوريو » يسكن مع راستنيك في نفس الپنسيون ، وكان السيد جوريو المذكور فيما مضى تاجر مكرونة وقد جمع ثروة طائلة من تجارته ، ولكنه أعطى كل ثروته لبنتيه « دوطه » حتى تتزوجا ، الأولى بأحد أبناء أرستقراطية الدم ، والأخرى بصاحب بنك من أرستقراطية المال وهي مدام دي نوسنجان . ولما رأت البنتان أن أباهما لم يعد يملك شيئاً ، وأنه لا يصيبهما منه غير العار أهملته ، بل وتجنبتا لقاءه ، حتى مات الرجل ميتة مخزية بالپنسيون ، وتولى راستنيك وبيانشو الطالبان دفنه ونفقات ذلك الدفن .

هذه المعلومات يستطيع القارئ أن يجدها في رواية « الأب جوريو » ، وهي الرواية التي سنتخذها مرجعنا الأساسي في تحليل المرحلة التي نريد أن نقف عندها اليوم من حياة راستنيك ، أعني مرحلة انزلاقه من الحياة الريفية المتينة الخلق السليمة المبادئ ، إلى حياة المدن التي يسكت فيها صوت الضمير وتستيقظ شهوات النفس مندفعة إلى أهدافها دون أن يردّها شيء ؛ ومنذ أن اجتاز راستنيك تلك المرحلة الشاقة ، لم تعد حياته غير حياة رجل مغامر ، حياة مبتذلة الأحداث . ومن السهل على القارئ أن يعود إلى رواية « بيت نوسنجان » ليعرف كيف أصبح راستنيك من كبار الأغنياء سنة ١٨٣٦ ، وقد تزوج في سنة ١٨٣٨ بأوجستا بنت مدام دي نوسنجان عشيقته القديمة التي تركها منذ خمس سنوات . وفي سنة ١٨٣٩ أصبح وزيراً للأشغال العمومية . وأما بقية مغامراته فمذكورة في عدة روايات ، وكلها في ابتذال ما ذكرنا من ثراء ونفوذ ووجاهة اجتماعية ، دفع ثمنها راستنيك غالباً من مبادئ الخلق وكرامة الإنسان .

راستنيك الذي يستوقف الباحث ، هو راستنيك الطالب ، كما نجده في رواية « الأب جوريو » ، فهنا تقع المأساة البشرية ، مأساة الصراع في نفس البطل بين نشأته الأولى

الشريفة ، وبين مغامرات الحياة الباريسية ووسائل تلك الحياة المعيبة . ولنترك لبلازك مهمة تقديمه للقارىء بعد السنة الأولى من دراسته بالجامعة ، وقد أخذت أعين الشاب تتفتح ، وأخذ الطموح يدب في نفسه ، « وكما يتفق للنفوس الكبيرة لم يرد راستنيك أن يدين بشيء لغير مواهبه ، ولكن نفسه كانت من نفوس أهل الجنوب ، تلك التي ما تكاد تصل إلى مرحلة التنفيذ حتى يضرب في عزمها ذلك التردد الذي ينتاب الشبان عند ما يجدون أنفسهم في وسط اللجة دون أن يعرفوا إلى أي جهة يوجهون قواهم ، ونحو أي صوب يرفعون قلاعهم ؛ وإذا كان قد أراد في أول الأمر أن يلقي بنفسه إلى العمل ، فإنه لم يلبث أن أغرته ضرورة التعرف بذوى المسكنة ، فلاحظ ما للنساء من نفوذ خطير في الحياة الاجتماعية ، وسرعان ما عن له أن ينطلق إلى الوسط الراقى ليجد فيه حُماته منهن ، وهو واثق من أنه لن يعدم العثور على ما يريد ؛ وكيف لا يعثر بهن شاب مثله حار الدماء حاضر النكتة ، وقد اجتمع فيه إلى الحرارة والذكاء ما زادها قيمة من رشاقة سميت ، وجمال عصبي كم يحلو للنساء أن يقعن في شراكه . ولقد هاجمت تلك الأفكار فتانا وسط الحقول ، وهو يترىض في مرح مع أخواته اللاتي وجدنه قد تغير تغيراً واضحاً . وكانت خالته « مدام دي مارسياك » De Marcillac قد عرفت فيما مضى كبار الأرسقراطية ، إذ كانت يوماً من بين من يترددن على البلاط . وفتاة لمح فتانا الطموح عدة معارف يستطيع أن يصل إليها ، وهي لا تقل أهمية عن معارفه في كلية الحقوق ؛ ولقد كان في الذكريات التي رنحته بها خالته ما يلهب خياله ، فسألها عن روابط القرابة التي يستطيع أن يعود فيصلها . وبعد أن استعرضا شجرة النسب كاملة استقر رأي السيدة العجوز على أن الثيكوتتس «دي بوسيان» «De Beauseant» ستكون من بين أقاربهم الأغنياء الأثريين أقلهم تلسكاً في خدمة ابن أختها . وفعلا كتبت خطاباً إلى هذه الثيكوتتس الشابة ، كتبته بالأسلوب القديم ، وأعطته لإيوجين قائلة إنه لو نجح مع الثيكوتتس فإنها ستصله ببقية أقاربه . وبعد أيام قليلة من عودة راستنيك إلى باريس ، أرسل خطاب خالته إلى مدام دي بوسيان ؛ وفي اليوم التالي أجابت الثيكوتتس بدعوته إلى حفلة راقصة . وكان راستنيك شاباً حاد الذكاء عالماً بذكائه . وقد أدرك أن أساس النجاح هو قوة الإرادة ، وهو يحس في نفسه بتلك القوة ؛ ونظر فبدا له أنه لن يستطيع الرضا بالتمول المبتذل ، وهيئات له أن يقنع بما يعده له أهله من دراسة القانون دراسة جيدة والنجاح في الامتحانات بتفوق ، ثم الحصول على مركز وكيل نيابة أو قاض بالأرياف . لقد كان راستنيك يطمح إلى أن يخرج من بين الصفوف فتشرق شخصيته وتتحقق ملكاته ؛

كان يريد أن يعيش في باريس وسط الأرستقراطية ؛ كان يريد الوصول .
 وأول ما اتجه إليه عزمه هو المال ، فقد كان يعلم أنه لا بد منه لكي يستطيع الظهور بين
 النبلاء ، فيلبس كما يلبسون ، وتقوده العربات كما تقودهم ؛ وبالجملة كان حريصاً على أن يظهر
 في مظهر الأغنياء الذين لا يعدون ما ينفقون . وكان يعلم بؤس أمه وأخواته ، وما يتكبدن
 في سبيله من تضحيات يقدمنها راضيات لإيوجين الذي تركّز فيه آمال الأسرة لعله ينتهي
 من دراسته بنجاح . ولكنه رغم علمه بضيقهن المادي ، لا يتردد في أن يطلب إليهن المال
 ليستطيع الاستعداد للذهاب إلى حفلة « الثيكوتنس » ؛ ولقد أرسلن إليه ألفاً وخمسمائة
 فرنك مع توصياتهن الحارة ؛ فانتزعت التوصيات من عينيه بعض الدموع . ولكن الألف
 والخمسمائة فرنك نفخت أوداجه وملأته إحساساً بالانتصار ؛ وسرعان ما استدعى التزوي
 واتفق معه على ما يريد من ملابس يدفع ثمنها أقساطاً مبتدئاً بقسط كبير . « عندئذ لم يعد
 فتاناً المهام يحس بشيء مما حوله ، وقد نزل من حجرته إلى مائدة البنسيون في تلك الهيئة
 الفريدة التي تخلعها النقود على الشبان . ومن المعلوم أنه ما تكاد النقود تستقر بحجب أحد
 الطلبة حتى يستشعر جرأة عجيبة . فهو يسير بأقدام أثبت من أقدامه وكأنه قد وضع يده
 على رافعة الأثقال ، وتصبح نظراته مليئة مباشرة ، وحركاته خفيفة . لقد كان بالأمس حياءً
 متواضعاً قد يضرب فلا يحرك ساكناً ، أما اليوم فقد يضرب هو رئيس الوزراء ؛ تمر
 بنفسه ظواهر عجيبة ، فهو يريد كل شيء ، وهو يستطيع كل شيء ؛ يريد هذا وذاك دون
 دينة ولا اختيار ، وهو مرح كريم طليق النفس . وفي كلمة واحدة : لقد استرد الطائر المهيمض
 جناحيه القويين . الطالب الذي لا نقود معه يخطف (تنفّة) من اللذة ، كالكلب الذي
 يسرق (عظمة) تحفها المخاطر من كل جانب ، ثم يكسرها ويمص نخاعها ، ويستمر في
 العدو . وأما الشاب الذي توسوس في جيبه النقود ، فإنه يتذوق لذاته ويجزئها ويتمهل
 فيها . إنه يتأرجح في السماء ولا يعود يذكر لكلمة البؤس معنى . باريس كلها ملك له ؛
 ذلك هو السن الذي يلمع فيه كل شيء ويتقد ، سن القوة المرحّة الذي لا يعرف أحد كيف
 يستفيد منه ، لا الرجال ولا النساء ؛ سن الديون والمخاوف الكاذبة التي تزيد من طعم اللذات .
 إن من لم يعيش بالضفة اليسرى للسين بين شارع سان چاك وشارع سان پيير لا يعرف شيئاً
 عن الحياة البشرية . »

في هذه الصفحة التي تنبض حياة ينفث المؤلف أنفاسه الخاصة في شخصية راستنيك ؛
 فلکم حلم بلزاك الذي ولد مع راستنيك في نفس العام بأن يهب العالم ببذخ ملابسه

وأحصنته ؛ ولقد أعوزته المال دائماً ، ولذلك كان للمسه إياه قشعريرة نفسية ، هي تلك التي ترتعد في الصفحة الماضية .

« وذهب راستنيك إلى الحفلة ، وقد اتخذ له أستاذاً في فهم الحياة مدام دي بوسيان . وما نظرنا في حاجة إلى تفصيل مبادئ الوصول ، فتلك الحساسات تقع تحت أبصارنا كل يوم ، وهل هي إلا تظاهر بالسمو عن الغير ، سمواً سبيله احتقار كل من عدانا ، وتبجح بملل متسام مثير ، ثم قتل لصوت الضمير في النفس ، وإسكات للمثل التي تصرفنا عن اغتنام الفرص ، وإعراض عن الرحمة التي تردنا عن القسوة ، وهي أخيراً ألا نرى إلا أنفسنا ، وألا نرد شيئاً إلا إلى أنفسنا ، وأن نضحى بالغير في سبيل أنفسنا ، وأن نغلي أنفسنا على سوانا ، مهما كان في ذلك الإملاء من جروح ؛ وهذه هي المبادئ التي تلقاها راستنيك عن الشيكوكتس . ونحن نجتزئ ببعض ما سمع عندها من درر مربعة مثل : « إن القلب البشري كالكنز . استنفذه في غرفة واحدة تجد نفسك مفلساً . إن الناس لا يغتفرون لمن يظهر شعوره كله دفعة واحدة أكثر مما يغتفرون لمن لا يملك فلساً واحداً » . وقولها : « كلما ازددت بروداً في تقديراتك ازددت تقدماً إلى الأمام ، اضرب بغير شفقة يخشك الناس . لا تنظر إلى الرجال والنساء إلا نظرك إلى خيل البريد التي تتركها تنفق عند نهاية الشوط ، وبذلك تصل إلى أسمي ما ترتفع إليه رغباتك » .

وعاد راستنيك من الحفلة إلى الپنسيون ، بعد أن أمعن النظر في أرستقراطية باريس . وفي الپنسيون وجد أستاذه الفحل چاك كولان المعروف بثوتران : مجرم قديم ، أعني رجال الأمن أمره ، وقد أفلت من السجن حيث كان مقضياً عليه بالأشغال الشاقة ، ولجأ إلى پنسيون مدام فوكير متنكراً . وقد أحس راستنيك في خلق الرجل جرأة ، وفي حديثه سلطة آثاره حتى أوشك أن يقاتله في مبارزة ؛ ولكن ثوتران أوقفه بحركة آمرة ، وأرغمه على أن يجالسه تحت إحدى شجيرات الحديقة المحيطة بالپنسيون ، وهناك وجه إليه تلك الخطبة التي ترتعد لها الفرائص ، قال : « تريد أن تعرف من أنا ، ماذا فعلت ، وماذا أفعل ؟ حقاً إنك يا بني لمسرف في حب الاستطلاع . آه ! هدوءاً هدوءاً أيها الطفل ! ستسمع أكثر من ذلك ، لقد ابتلنتي الحياة . استمع إلى قبل أن ترد . ها هي حياتي السابقة في ثلاث كلمات : من أنا ؟ ثوتران . ماذا أفعل ؟ ما يحلولى .

سأوضح لك أنا الوضع الذي أنت فيه ، ولكنني سأفعل ذلك في تفوق الرجل الذي اختبر أمور الحياة ، ورأى أنه ليس أمامه إلا أحد أمرين : إما الخضوع الأبله ، وإما الثورة ، وأنا

لا أخضع لشيء . أواضح ما أقول ؟ هل تعلم ما أنت في حاجة إليه لتسير في الحياة كما تريد الآن ؟ إنك في حاجة إلى مليون فرنك تجدها سريعاً ، وإلا قارك رأسك الصغير إلى شباك « سان كلو » (السجن) ، لتبحث هناك عن الكائن الأسفى . هذا المليون سأعطيه أنا لك . وأمسك ثوتران عن الحديث هنيهة نظراً إلى راستنيك ، ثم استأنف : « ها ها ! إنك تنظر الآن إلى عمك ثوتران نظرة أرفق من ذى قبل — ها هو موقفك أيها الشاب : لدينا هنالك أب وأم ، وخالة وأختان « في الثامنة عشرة والسابعة عشرة » ، وأخوان صغيران « في الخامسة عشرة والعاشر » ، هذا عدد الجوقة . الخالة تربي البنات ، والقسيس يعلم اللاتينية للأخين ، والعائلة تأكل من عصيدة أبى فروة أكثر مما تأكل من الخبز الأبيض ، الأب يحافظ على سرواله ، والأم تقنع بثوب للشتاء وآخر للصيف ، والأختان تدبران أمرهما كما تستطيعان ، وأما نحن فلدينا الطموح . نحن أقرباء بوسيان ، ثم نذهب إليهم على الأقدام ؟ نريد الثروة وليس لدينا سحتوت ، نأكل من « عك » الأم ثوكير ، ولكننا نحب الغذاء الفخم في فوبور سان جرمان ، ننام على سرير كالمشرحة ، ونريد أن نسكن في قللا . إننى لا ألوم نزعاتك ، فليس باستطاعة كل إنسان — أيها الطفل العزيز — أن يكون طموحاً . لقد أحصيت رغباتك لكى أسألك السؤال الآتى : نحن جياع كالذئاب الضارية وقواضبنا ماضية ، فكيف السبيل إلى ملء القدر ؟ ليس لدينا ما نأكله غير مجموعات القوانين وهذه لا فائدة من ورائها ، ولكنه الواجب ، فليكن ؛ ثم نشتغل بالحمامة لنصبح رؤساء لمحكمة الجنايات ، فنرسل إلى السجن شياطين المجرمين مع أنهم خير منا ، وذلك لكى نثبت للأغنياء أنهم يستطيعون أن يناموا هادئين . هذا عمل لا بهجة له ! ثم إن الشوط طويل ، فلا بد من التصعلك سنتين بباريس ؛ ننظر إلى النقود دون أن نستطيع مسها مع شدة رغبتنا فيها ، وإنه لأمر مضم أن نستشعر دائماً الرغبة دون أن نستطيع إشباعها . ولو أننا كنا شاحبين وكنا من طبيعة الزواحف لما خشينا شيئاً ، ولكن دماءنا من دماء الأسود ، وفى شهيتنا قابلية لارتكاب عشرين حماقة فى اليوم .

هذا أيها الشاب هو مفترق الحياة ، ولقد اخترت ، فذهبت عند بوسيان من بنى عمومتك ، ولقد أحسست هناك بالبذخ ، كما ذهبت إلى مدام دى رستو De Restaud بنت الأب جوريو ، فشمت فيها رائحة المرأة الباريسية ؛ ولقد عدت ذلك اليوم وعلى جبينك كلمة قرأتها فى وضوح ، هى : الوصول ! الوصول بأى ثمن ! فصحت : براؤو ! هذا عملاق يلائمنى . ولقد شعرت بالحاجة إلى المال ، فأين تجده ؟ لقد نرفت دماء أخواتك فاستلبت

منهن ألفاً وخمسة فرسك بطريقة يعلمها الله ، وهن في بلاد قد تجود بأبي فروة أكثر مما تجود بقطع النقود ، ولكنك تسملت كالهارب في الظلام . والآن ماذا تفعل بعد ذلك ؟ أتجد في العمل ، والعمل لا يغني فقيراً ، والثروة العاجلة هي المشكلة التي تعرض لخمسين ألف شاب مثلك ممن يجدون أنفسهم في موقفك الحالي ، وأنت واحد من هذا العدد ؟ فكر في المجهود الذي يجب أن تبذله ، وفي عنف المعركة التي ستخوضها . لا بد أنكم ستأكلون بعضهم بعضاً كالعنكبوت الذي يجتمع في زهرية واحدة ، وذلك لأنه من المستحيل أن يكون هنالك خمسون ألف مركز كبير . أتدري كيف يشق الناس سبيلهم في هذه الدنيا ؟ يشقونه بريق العبقرية ، أو بالمهارة في الخسة . يجب أن تسقط في صفوف البشر كقنبلة ، أو أن تتسلل بينها كوباء ؛ أما الشرف فلا فائدة فيه . إن الناس ينحنون أمام قوة العبقرية ، وهم يكرهونها ، ويحاولون النيل منها بأقوال السوء ، وذلك لأنها تأخذ دون أن تقسم ، ولكنهم ينحنون إذا ثارت . وفي كلمة واحدة ، الناس يعبدونها جاثين عندما يعجزون عن جرّها في الأوحال . وكذلك الخسة ، فهي قوة ؛ الخسة سلاح الضعفاء الذين يملأون الأرض ، وسوف تحس بوخزاتها في كل مكان . إذا كنت تريد أن تثري سريعاً ، فمن الواجب أن تملك شيئاً ، أو تتظاهر بأنك تملك شيئاً . لكي تثري يجب أن تغامر بضربات قوية ، وإلا أضعت وقتك في الحبو ثم هيهات . . . وفي المائة مهنة التي تستطيع أن تراولها ستري الجمهور يسمى العشرة أشخاص الذين ينجحون بسرعة لصوصاً . استخلص الرأي . هذه هي الحياة ، فهي ليست أجمل من « الطبخ » ، ورأيتها رأتحتة . يجب أن تلوث يديك إذا أردت أن تثري ، ولكن يجب أن تعرف كيف « تشطفها » بعد ذلك ، ففي هذا جماع الأخلاق في عصرنا . وإذا كنت أحدثك عن الحياة على هذا النحو فذلك من حق بحكم أنني أعرفها . وهل تظن أنني أنحى عليها باللوم ؟ أبداً ، فقد كانت دائماً كذلك ، ولن يستطيع الوعاظ تغييرها . الإنسان كائن غير كامل ، وهو — إلى حد ما — منافق ، ولهذا يرى الحق أنه عديم الأخلاق . وأنا لا أتهم الأغنياء لمصلحة الفقراء ، فالإنسان هو هو في أعلى وفي أسفل وفي الوسط . وفي كل مليون من هذه الحيوانات الرفيعة قد تجد عشرة لصوص يضعون أنفسهم فوق كل شيء ، فوق القوانين ذاتها ، وأنا واحد من هؤلاء . أما أنت فإذا كنت رجلاً سامياً فلتسر في خط مستقيم مرفوع الرأس ، ولكنك ستضطر إلى مقاتلة الحسد والنميمة والحقارة ، ستقاتل جميع الناس . لقد لاقى نابليون وزيراً للحرب اسمه أوبري Aubry ، ولقد أوشك هذا الرجل أن يرسله إلى المستعمرات . تحسس موضع قوتك ، وانظر هل

تستطيع أن تستيقظ كل صباح بإرادة أقوى من إرادتك بالأمس ؟ وإذا كانت لى نصيحة أهديها إليك - أيها الملك - فهي ألا تثبت عند آرائك أكثر من ثباتك عند أقوالك ، وعندما يسألك أحد عن رأى بعه له . والرجل الذى يفتخر بعدم تغيير رأيه مثله مثل من يأخذ نفسه بالسير دائماً فى طريق مستقيم ؛ هو أبله يعتقد أنه معصوم من الخطأ . وليست هناك مبادئ وإنما هناك أحداث ؛ ليست هناك قوانين وإنما هناك ظروف ، والرجل الممتاز هو من يختصن الأحداث والظروف لكي يسيرها .

سمع راستنيك هذه الآراء الخيفة ، فنفرت نفسه نفوراً شديداً ، وهو الشاب الذى لا يزال يحتفظ بأثر نشأته الأولى فى الريف ، ولذا صاح عندما رأى فوتران يغادره فى هدوء واضعاً عصاه تحت إبطه : « اى رأس صلبة يحمل هذا الرجل ! لقد قال لى فى حاجة ما قالتها مدام دى بوسيان بلباقة . لقد مزق قلبى بمخالبه الفولاذية . لماذا أريد أن أذهب عند مدام دى نوسنجان ؟ لقد حدس الرجل دوافعى كما تحركت فى نفسى . لقد حدثنى ذلك المجرم عن الفضيلة أكثر مما حدثنى الرجال والكتب كافة . وإذا كانت الفضيلة لا تقبل مهادنة فلا شك أننى قد سرقت أحوالى » . قال هذه الجملة الأخيرة ، وهو يطرح كيس النقود على المائدة . وبعد برهة عاد يناجى نفسه « الوفاء للفضيلة ! آه يا له من استشهاد نبيل ! الناس كافة يؤمنون بالفضيلة ، ولكن من منهم الرجل الفاضل ؟ والشعوب كافة تعبد الحرية ، ولكن أين الشعب الحر ؟ إن شبابى لا يزال صافى الزرقة كالسما التى لا سحب فيها . وإذا كنت أريد أن أصبح رجلاً عظيماً أو رجلاً ثرياً ، هل لى بد من أن أكذب وأنحنى وأزحف ثم أنهض وأتملق وأنافق ؟ هل لى بد من أن أضع نفسى خادماً لمن كذب وأنحنى وزحف . لا مفر من أن أخدمهم قبل أن أصبح شريكاً لهم . آه ! لا . لأننى أريد أن أعمل فى نبل وطهارة . أريد أن أعمل ليل نهار ، وألا أدين بشئ لغير اجتهدى » . وهنا نلمس الصراع النفسى الذى لا نستطيع معه إلا أن نهتز عطفاً لتلك النفس التى لا تزال تجالذ الشر بفضل ما اخترنت فى صباها من مثل الخير . ونحن لا يعنيننا ما سيؤول إليه راستنيك فى الروايات اللاحقة ، وإنما نقف عنده كما نراه فى « الأب جوريو » لنشاهده يرفض التورط فى الإجرام مع فوتران ؛ ونحن ندع جانباً ما كان له من مغامرات فى الأوساط الباريسية ، مكتفين بالإشارة إلى أهم تلك المغامرات وهى : عشقه لمدام دى نوسنجان . وموضع الخطر على فتاننا لم يكن فى ذلك العشق ، وإنما كان فيما رآه من عقوق عشيقته وأختها لأبيهم « الأب جوريو » ، فلقد كان موقفهم منه شديد الشبه بموقف بنات الملك « لير » من أبيهم . بل إننا نعتقد أن بلزاك قد

أسرف وأحال في تصوير ذلك العقوق ، إذ جعل الأب من الحماقة الشاذة بحيث يتكالب في حبه لابنتيه كما زادتاه نكالا . ولهذا ترى قيمة تلك الرواية الشهيرة في شخصية راستنيك ، لا في شخصية « الأب جوريو » بطل القصة وعنوانها .

عجيب أن تتبّع راستنيك في محاولاته المختلفة ، وأن ترى إرادته تصلب كما تناوبه النجاح والفشل ؛ ومن المعلوم أن العزم لا يقوى بغير الصدمات . وهو رغم استحصاد إرادته لا يستطيع أن يسكت في نفسه صوت صباه ، فهو يحب أسرته وإن كان يبتز مالها . ولقد يكون في موقفه هذا ما يدل على أنه يحب ذاته أكثر من حبه لأهله ؛ ولكنه على أي حال لم يكن ميت القلب ؛ نراه يبكي عندما يقرأ خطابات أمه وأخواته . وإنه لا ريب أمر سهل أن نبكي قليلا ثم نعود إلى رأس أمرنا ، ولكن أليس عدم البكاء إطلاقا سهلا من البكاء ؟ وهو أخيراً قد تعلق بالأب « جوريو » ورعاه أيام مرضه ، وتكفل بدفنه ونفقات ذلك الدفن مع زميله طالب الطب . ولقد يقال إنه أحب ذلك الشيخ المسكين لأنه كان والد عشيقته ، ولربما كان هذا صحيحاً ، ولكنه مما لا شك فيه أن راستنيك الشاب المحب لأهله قد قدر في الأب « جوريو » طبيئته ومحبته لابنتيه ، دون أن يرى ما في تلك المحبة الشاذة من حماقة . لقد أرسلت إليه مدام دي نوسنجان ليلة اشتداد المرض بأبيها خطاباً صغيراً تقول فيه : « إنني أنتظرك للذهاب إلى حفلة الرقص ، فإذا لم أرك بجوارى بعد ساعتين ، لست أدري هل سأستطيع بعد ذلك أن أغتفر لك تلك الخيانة » . ولكنه لم يكده يقرأ هذا الخطاب الوقح حتى أخذ قلبه ليرد لفوره : « إنني أنتظر الطبيب لأعرف هل سيعيش أبوك أم لا . إنه يحتضر . سأتيك حاملاً الخبر ، وإنني لأخشى أن يكون خبر الموت . سوف تنظرين عندئذ : هل تستطيعين الذهاب إلى حفلة الرقص ؟ ! » . نعم إن إرادة مدام دي نوسنجان قد تغلبت في آخر الأمر ، فذهب راستنيك ليرافق عشيقته إلى الرقص ؛ ولكن كم كان صمته لاذعاً وهو إلى جوارها بالعربة ! لقد لزم صمت القبور حتى ضاقت به مدام دي نوسنجان فسألته : « ما بك إذن ؟ » وإذا به يجيب . « إنني أسمع حشرة أبيض ! » .

هذا هو راستنيك : شخصية مركبة معقدة ، شخصية نميل إلى اعتبارها حييرة . وأما إذا أردتني أن أدل على سبب انزلاقها إلى الشر في مستقبل أيامها فلست أراه إلا في أمرين : أولهما أن رغبات هذا الشاب كانت تنبعث في نفسه قوة لا تدفع ثم تملأ وجدانه فلا يعود يرى غيرها ، وإذا به مندفع لا يلوى على شيء ؛ وهو إذا كانت رغباته تشور من داخل نفسه ، فإن شجاعته كانت تأتيه من الخارج . إنه لم يكن له بد من النجاح لكي تتحقق ملكاته

وتنشط ؛ بل نستطيع أن نقول إن النجاح كان أول وسائله للوصول . والذي لا شك فيه أنه قد وجد في مغامراته المختلفة ما يرضى تلك الحاجة إلى النجاح . وثاني الأمرين فساد ما رأى من حياة معظم الناس ؛ ولقد كان في موقف بنتي جوريو وصهره من ذلك الأب البائس ما حمله على مجابهة الهيئة الاجتماعية ومنازلتها بأسلحتها مهما بلغت تلك الأسلحة من الحقايرة . وفي الصفحة الأخيرة من الرواية يصف بلزاك دفن الأب جوريو بقوله : « ومع ذلك فعندما وضع النعش على الناقله ، قدمت عربتان تحمل إحداها شارة الكونت دي رستو ، والأخرى شارة البارون دي نوسنجان ، ولكنهما خاليتان ، ثم تبعتا النعش إلى المقبرة . وفي الساعة السادسة أنزل جسم الأب جوريو إلى الحفرة ، ومن حوله خدم بنتيه الذين اختفوا مع القسيس بمجرد الفراغ من الصلاة التي دفع ثمنها الطالب راستنيك . وبمجرد أن انتهى الحفاران من رد بعض حفنات من التراب لتغطية الجسم ، لم يلبث الرجلان أن نهضا وقد اتجه أحدهما إلى الطالب يسأله « البقشيش » ؛ وقتش إيوجين في جيبه فلم يجد شيئاً ، فاضطر إلى أن يستلف فرنكاً من كرستوف خادم البنسيون . ولقد نشرت هذه الحادثة الصغيرة في نفس راستنيك حزناً مظلماً . وكان النهار قد آذن بالأفول ، وأخذ الشفق الرطب يثير الأعصاب ، فنظر الشاب إلى القبر ودفن فيه آخر دمعة من دموع صباه ، وكانت دمعة فاضت بها عاطفة مقدسة من قلب طاهر ؛ دمعة من تلك الدموع التي ما تكاد تسقط إلى الأرض حتى ترتد إلى السماء ، ثم ربح ذراعيه إلى صدره ، وأخذ يتأمل السحاب ؛ وراه كريستوف في هذا الموقف فتركه عائداً . ووجد راستنيك نفسه وحيداً نخطاً بضغ خطوات نحو أعلى المقبرة حيث رأى باريس راقدة في التواء على ضفتي السين ، وقد أخذت الأنوار تسطع ، فاستقرت عيناه فيما يشبه النهم بين عمود فندوم وقبة الأثاليد ؛ وبين هذين الموضعين يقع حي تلك الطبقة الراقية التي أراد أن يختلط بأفرادها . وأرسل إلى تلك الخلية الطنانة نظرة تكاد تمتص ما بها من رحيق ، ثم قال هذه الكلمات الرائعة : والآن فلاأخلُ لك ! وكان أول عمل من أعمال التحدّي الذي أعلنه راستنيك للهيئة الاجتماعية أن ذهب ليتناول العشاء عند مدام دي نوسنجان . » .

لقد كان في ذهابه إلى العشاء مع تلك العشيقة العاقبة آخر عهده بالحياة الشريفة ، بعد أن رأى من فساد الهيئة الاجتماعية ما لا يمكن أن تصمد له مثل الخير التي ألفها في صباه . ولكن هل تراه محقاً ؟!

أوليس

(١)

في الإلياذة

أوليس أحد أبطال هوميروس . رأيناه للمرة الأولى في الإلياذة على رأس جنده الذين جمعهم من مملكته بجزيرة كورفو ، التي لا تزال الأمواج تلطم صخورها إلى اليوم ، وذلك لكي يساهم مع بلاد اليونان الأخرى في حملتها الشهيرة على طروادة إحدى مدن آسيا الصغرى . وكلنا لا ريب يذكر سبب تلك الحرب الضروس ، وأصداؤها التي سجلها شاعر اليونان العظيم لا تزال تتردد بجميع الآذان . ومن يستطيع أن ينسى هيلانة ، مضرب الأمثال في الجمال ، وإن كانت السبب في تلك المحنة التي أثارت الغرب ضد الشرق عشر سنين متواليات ؟ قالوا : إن باريس أحد أمراء طروادة أتى يوماً في تجارة إلى شواطئ الـليبونيزيا ، وإذا بهيلانة زوجة منيلاس ملك إحدى تلك الجهات تلهو على الشاطئ مع رفقة لها ، فهاله جمالها ؛ وكان الأمير مشرق الطلعة ، فوقع هو أيضاً بقلبها ، وكان ما شاءت الأقدار ، فتواعدا على الهرب سوياً ، ونشرا القلاع إلى طروادة .

وعلم زوجها بالخبر ، فأخذته شهامة الرجال ، ونفرت مدن اليونان كافة إلى جوار الزوج الذي ثلم شرفه ، وتصدى لقيادتهم أجاممنون أخو منيلاس ، وأعدوا الحملة ، وأبحرت السفن ، وأرست حيث ضرب الجند حول طروادة الحصار ، وكانت معارك تبيض لهولها النواصي ، إذا صح أنها كانت كلها في قسوة ملاحم السنة العاشرة التي اكتفى هوميروس بأن صور لنا جزءاً منها . وكم من أبطال تميزوا في تلك الميادين الساحقة ! أخيل أشجع من ولدت الأمهات وأصلب الرجال عزمًا ؛ وإياس ذو الحول والطول ؛ وهكتور أنبل أهل طروادة وأخلدهم ذكراً ؛ ثم أوليس .

وفي الحق أن أوليس لم يحتل مكان الصدارة بين أنداده الخارقين ، ولكنه أعمق دلالة وأمس بالإغريق العادى رحماً من الجميع . أوليس أنموذج للشعب اليوناني ذاته بما فيه من قوة وضعف ؛ هو صورة واقعية للأخلاق اليونانية وللملكات اليونانية . وإلى هذا فطن الإغريق كافة ، فأي كل منهم فيه نفسه أو جانباً منها بما نعرفه عنهم من الشجاعة وروح

المغامرة وتفتح النفس لمعرفة ، والإقدام على المخاطر مع القدرة على ملاسة الواقع ، وتدبر الصعوبات ، ثم المرونة في معالجة الناس والأشياء ، مما يدفعهم أحياناً إلى إسكات صوت الضمير ، والتعلق بالهدف دون نظر إلى الوسائل ومدى ما فيها من قسوة . وتلك كلها صفات سنراها عند أوليس في تاريخه الطويل على تفاوت في النسب ، وتطور في الاتجاه وفقاً لسير الزمن وتقدم الحضارة .

صادف أوليس إذن هوى الشعب اليوناني الذي اطمأن إليه كما يطمئن المرء إلى نفسه ، وإذا به يصبح رجزه الحى ، وإذا به يتطور بتطوره ؛ فلم تكد عصور البطولة تنقضى وبأخذ الشعب بأسباب الحياة العملية ، وينصرف إلى السيطرة على المادة ، وازدياد بقاع الأرض ، وركوب متن المياه التماساً للعيش ووجاهة المال ، حتى رأينا بطلنا يحتل المكان الأول في الأوديسا ، ملحمة هوميروس الثانية ، وما هي إلا قصص لمغامرات أوليس أو أوديسيوس ، كما كانوا يسمونه ، أثناء عودته إلى وطنه عبر البحار . ونظر الشعب الإغريق فرأى أنموذجه يسايره في تطور خلقه واتجاهات نفسه فزاد به تعلقاً ؛ حتى كان القرن الخامس قبل الميلاد ، أى بعد ظهور أوليس إلى الوجود بخمسة قرون ، وإذا بسوفوكليس المؤلف المسرحي الذائع الصيت يتخذ منه بطلاً لروايته الخالدة « فيلوكتيت » Philoctète وقد عمل الزمن فيه عمله فأصبح الساكر الذى لا يتورع عن شيء في سبيل الوصول إلى ما يريد . ومن عجب أن يسير رجلنا من بطولة الإلياذة إلى دهاء الأوديسا ، ثم ينتهى بنجبت « فيلوكتيت » وأن نجد في كل مرحلة بذور المرحلة التالية ، حتى لنحسب أنه كان يمتلك كل تلك الصفات كامنة ، وإنما هو محك الزمن أظهرها فيه ، كما أظهرها عند الشعب اليوناني كله يوم سار من صلابة البداوة إلى مرونة الحياة ، ففساد المدنية .

فلنتبع إذن بطلنا نلتصق فيه صورة الشعب اليوناني بأكمله خلال مراحل التاريخ ، ولنبدأ حديثنا بأوليس الإلياذة ، ففيه حقيقة نفسه في ذلك الحين ، وأشباح ما سيصير إليه فيما بعد . وكان يوماً مشهوداً يوم رأينا أوليس لأول مرة ، فلمسنا ما تحلى به من شجاعة وحزم ومعرفة بحقائق النفوس .

ذلك أن أخيل العاقى النفس — غضب من أجائمون رئيس الحملة ، إذ سلبه قسراً أسيرة جميلة كانت من أسلابه ، فتخلى عن القتال ؛ وكل من يذكر شجاعة أخيل التي لا مثيل لها يستطيع أن يتصور ما استهدف له الإغريق إذ ذاك من أخطار ، وخصومهم

رجال ذوو بأس . وهذا ما كان ، فقد انهزم الإغريق وانسحبوا إلى الشاطئ ، يعدّون سفنهم للإقلاع وكادوا يعودون أدراجهم خائبين ، لولا أن تداركت الأمر « پالاس » ربة الذكاء وحامية الأغريق .

« فانطلقت من أعلى الأولپ بأجنحة حثيثة إلى حيث ترسو السفن ، وهناك وجدت أوليس ، أوليس الحكيم حكمة زيس ، وجدته جامداً في مكانه لا يمس قلاعه ، وقد نفذ الألم إلى أعماق قلبه . إلى جانب البطل وقفت الإلهة وخاطبته قائلة : يابن لا یرت ! أيها الإلهی ! أي أوليس الحكيم ! أنتطون بصدر وطنكم وتركون لپريام وأهل طروادة ثمناً لنصرهم هيلانة الإغريقية ؟ ! وبلاد الأغريق ولدت ، ومن أجلها هلك كل من استشهد من إغريق حول طروادة بعيدين عن وطنهم ؟ ! هيا ! بلا مهل ! إلى صفوف الجند ! بقولك المقنع أمسكهم عن الهرب ، لا تسمح لسفنهم أن تشق أمواج البحر » .

ونظر أوليس فإذا بها پالاس التي تتجه إليه بالحديث ، وهو الإغريق الصميم الذي يعرف كيف يحل إلهة الذكاء وبين أحضانها نما ، وبإشعاع منها مت إلى المجد بسبب . وهاله الموقف وقد هلمت قلوب الرجال ، فلاذوا بأعقاب النجاة . وما إن يحل بالنفوس اليأس من الحياة حتى تطير العقول حرصاً عليها . فكيف له أن يقف بمفرده أمام جيش بأكمله وقد ذهب الخوف بلب المهاريين ! وهبه فعل ، أو لا ترى أنه هالك لا محالة ؟ ! قد تستطيع شجاعة حمقاء أن تجازف بحياة صاحبها في يوم كهذا دون أن تصل إلى شيء . وأما أوليس فقد كان أحكم من الحق ، وأشجع من الإحجام ؛ كان ذا قلب يفكر . ولذا أقدم في حزم المستنير ، فألقى بمعطفه وأخذ من أجامنون صولجان الملك ليكون له الحق في مخاطبة الجند ، ثم التأثير فيهم بما يحمل في يده من رمز الولاية . ولعله كان يدرك بفطرته السليمة ما يستطيع الصولجان من شق نفوس سامعيه لحديثه ، على نحو ما كانت الألفاظ تستطيع بدون تلك العصا السحرية أو غيرها من المظاهر التي تفعل في جماهير الناس ، بل وخاصتهم فلعلها العجيب . ثم سار ، « وكلما لقي أحد الملوك أو القادة أوقفه بقوله المعسول : أيها البطل الشهير ! أمثلك يرجف خوفاً ؟ ! أثبت وثبتت جندك . وأما إذا لقي جندياً مغموراً يحث رفاقه على الهرب ، فإنه يضربه بصولجانه ويعنفه بأمر القول : أيها الشقي ! قف واستمع إلى أمر قادتك ، أيها الجندي الخائر القوى ، المنحل العزم . يا من لا اعتبار له في صفوف قتال ولا مجلس مشورة ! » وهكذا تهيب الحكمة للشجاعة سبل النجاة والفوز . ألا تراه كيف أخذ كل نفس بما تستحق من لين أو عنف ، وقد عرف كيف يمتلكها جميعاً ، بتحريك معاني القوة

والكبرياء في القلوب التي تستشعرها ، والخوف والخضوع عند من ألفوها . وهذه أدلة الذكاء الذي ينفذ إلى حقائق النفوس ويلابس الواقع ، وهو بعد ذكاء لا يعوق الإقدام بل ينير خطواته .

وانتهى به المسير إلى موضع الجمعية التي انعقدت للتشاور في الأمر ، وإذا بترسيت يخطب الجند ليحملهم بقوله الغادر الخداع على الاعتقاد بأنه من الخير أن يعودوا إلى بلادهم . وكان ترسيت هذا ثرثاراً مسرفاً ، خصب النفس في الوقاحة والجرأة ومجاهبة كل خزي ؛ كان يحدق تجريح الملوك يثير به ضحك الجماهير وسخريتها ، وهو أخس المحاريين . رجل أعمش أعرج ضيقت كتفاه المقوستان من صدره ، وعلى رأسه المدب كانت تتأرجح بضع شعرات شتيتة . وفطن أوليس لساعته أنه لا بد له من تغيير الجو المسيطر لتهدا النفوس من توترها ، وتعود عن الاتجاه الذي انصرفت إليه . فأسرع إلى ترسيت وضربه بالصولجان ضربة تركت بظهره سناماً كسنام النوق ، نخرّاً باكياً مُعْـوِلاً بعد أن كان يصول ويجول منذ هنيهة كأسد الغابة . وكان الجند يعرفون فيه الجبن والفهاة ، فعلت أصواتهم بالضحك . وهذا ما قصد إليه أوليس الذي كسب المعركة ، إذ تبدل الجو وسكنت القلوب . وهنا علا المنصة وما زال بالمحاريين يقنعهم بضرورة البقاء ليستولوا على طروادة ، حتى استمعوا له وانقادوا إلى رأيه ؛ وذلك لأنه عرف كيف يخاطبهم ، وهم الرجال الفطريون الذين تحركهم الكبرياء ، كما يقودهم الجشع المادى والطمع في الأسلاب ، ثم هم قوم يؤمنون بإرادة الآلهة ، وقد قضت تلك الإرادة أن يحاربوا وأن ينتصروا . ففيم التراجع ؟! والخطيب من التفاؤل والثقة بما يقول بحيث لم تلبث الجماعة كلها أن هتفت له مؤيدة متحمسة .

وكان هذا من أجل ما نعرف في حياة أوليس من مواقف ، وفيه تجلت صفاته النفسية : إقدام في حكمة ، وخبرة بدخائل النفوس ، وذكاء نافذ ، وثقة بالنفس .

وعاد الإغريق إلى أسوار طروادة يشددون عليها الحصار ، وبرز لهم أبطال المدينة يدفعونهم عنها . وأما الشيوخ فكنت تراهم يثرثرون بأعلى الأسيجة حيث أخذوا أماكنهم ليشهدوا القتال « كتلك العصافير التي ترقز فوق الأغصان ، بينما الحصاد يعملون مناجلهم في حقول الغلال » . وتمر بهم هيلانة فيروقهم جامها ، ويذكرون أن امرأة كهذه تستحق أن يقتل من أجلها الرجال . واثارت بيريام رغبة الاستطلاع ، فأوقف الفتاة يسألها : « حدثيني يا بنيتي عن هذا البطل ، هذا الذي يقصر عن أجائون بمدى رأسه ، وإن يكن صدره وكتفاه أعرض منه ، وسلاحه راقد إلى الأرض الخصبية ! وأما هو فيسير بين جنده

كما يسير الكبش غنى الجزة بين نعاجه البضة . وأجابه هيلانه : « هذا ابن لا یرت ، أولیس الحکیم . غذته أرض أیتا کا التي تمزقها الصخور الجذباء . بطل واسع الحیل ، حکیم المشورة » .

هذا هو الرجل : أبی کالكبش ، حکیم کزيس .

وكم كانت له في الإلياذة من بطولة . ومن العدل أن نذكر سيره في ظلام الليل مع ديموميد ليتعرف على مواقع العدو ، وما كانت لهما من مخاطرات جنونية . وفي اختيار ديموميد له أكبر دليل على أنه كان معروفا بالشجاعة المتدفقة إلى جانب أصالة الرأي . ولقد جرح ديموميد في تلك الليلة القائمة وأحاط به العدو ، ولكن أوليس لم يتركه وحيداً ، بل ضمد جروحه وعاد به .

ولم تكن شجاعة أوليس جسارة قلب فحسب ، بل شجاعة حقيقية ؛ فهو قوى الجسم قصير صلب متين . ألا ترى كيف أنه لم يخش إياس نفسه ، بل نازله في السباق ، وانتصر عليه يوم أن أقام أخيل المسابقات الرياضية الرائعة احتفالاً بدفن صديقه العزيز بتروكل ؟ ! ولكنها بعد شجاعة تتميز عما سواها ؛ فهو يخضع في الأغلب وثباتها لحكمته ، وحكمته إحساس صادق بالمكن ، وقسط واعتدال ، ثم غريزة تدفعه إلى الماراة والدهاء . ولهذا اختير على رأس وفد ذهب إلى أخيل ليثنيه عن عناده ، وهناك وجه إلى البطل خطبة تكاد تطير بأجنحة خفيفة ، خطبة مؤثرة نافذة قوية ، ولكنه أمام عناد أخيل لا يلج ، بل يتركه بابتسامة حزينة .

ومن ثم نراه رغم شجاعته لا يحجم عن الهرب إذا قضت الضرورة . أو لم يرفض أن يعود إلى القتال مع أخيل بعد موت بتروكل ؟ « أخيل ! يا ابن الآلهة ! إني أعرف شجاعتك ، ولكن الجند جياع ، فلا تتركهم الآن إلى القتال ليطاردوا العدو إلى مدينته . مر الجند يتغذون بالقمح ويطفئون ظمأهم بالنبيذ فتجدد قواهم . وما يستطيع المقاتل إذا حرم الطعام أن يصمد من الفجر إلى غروب الشمس ، فلا بد — مهما كانت حرارة قلبه — أن يثقل التعب قليلاً قليلاً جسمه المنهك . يهاجمه الجوع والعطش فتتقصف أرجله وسط القتال » .

وأما أخيل فما يريد أن يستمع لقول ، وكيف يُتحدث عن ولائم وراحة وقد مات صديقه بتروكل وما يزال دمه يطلب الانتقام ، وقد جال الأسى قلوب الرجال ؟ ولكن أوليس يرد عليه في شيء من التهمكيل المرارة : « يا ابن پيلييه ! أيها البطل الذي لا يقهر !

لست أشك أنك تفوقنى قوة إذا أخذت بسلاحك ، ولكنى أعتقد أننى أفوقك حكمة ، فسببى فوق سنك . لقد توفرت لى الأعوام فأخذت عنها خبرة تنير لى الطريق . لتدع إذن مشورتى تطامن من حدة نفسك . لقد مل الجند المذابح بعد أن غطت السيوف منبسطة الريف بالقش وضعف المحصول ، وقد مال زيس — فيصل الحرب — بالميزان . وما بالجوع يبجل الجند موتاهم . وفى كل يوم تتساقط الأبطال وفيرة العدد . فتى نضع حداً لآلامنا ؟! لنؤد واجب التحية لموتانا ، ولنستجمع عزمننا . لنسكب الدمع يوماً على قبور من فقدنا ، ولنشبع جوعنا ، ولنرو عطشنا نحن الذين أفلتنا من الموت ، حتى نستطيع إذا ارتدينا دروعنا الأبية أن نقاتل العدو بقلوب جديدة العزم » .

هذا هو أليس الشجاع إلى حد الهوس عندما يترك الهوس مجالاً للنصر ، والحكيم المتروى عندما تحدته خبرته بنفوس الجند ومدى قدرتهم على احتمال شتات الحرب بوجوب التريث وتجديد القوى . هذا هو أوليس الحريص على كرامته يدفع عنها تعالى أخيل نفسه ، وإن كان من قوة الخلق بحيث يعترف للغير بفضلها ، ويقر له بالسبق فى الميادين التى لا يستطيع أن يثبت فيها .

وثمة مواقف أخرى تدل على أنه وإن يكن مادی النزعة ، إلا أنه قد عرف دائماً كيف يضع صالح الوطن فوق نفعه الخاص ، بل فوق كبريائه . وهو بعد ورع تقى يخشى الآلهة ويحترمها ، ولكنه لا يحجم عن الصمود لها إن أضرت به ، وذلك فيما عدا « پالاس » إلهة الذكاء ، فهو يخضع لها خضوعاً تاماً ، وذاكؤها صاف وحكمتها عملية يعتمد على الحظ ، ولكنه لا يسقط من حسابه كل ما يمكن أن يتوقع من نكبات يُعد لها آلاف الحيل . وهو فى هذا أصدق تمثيلاً لصفات اليونان من أى بطل آخر من أبطال الإلياذة ، بل من بطلها الأول أخيل نفسه المسرف الكبرياء ، الغشوم الشجاعة . ولكن الزمن سار سيرته ، فأخذت الحكمة تطفئ شيئاً فشيئاً على نفس أوليس ، وتراجع الشجاعة ، وهو فى ذلك يمثل تطور الشعب اليونانى كله كما سنراه فى أوليس « الأوديسا » .

(٢)

فى الاودسا

يحتل أوليس فى الأودسا المكان الذى يحتله أخيل فى الإلياذة ، فهى قصته ، وذلك لأن لفظة « أودسا » مشتقة من « أودسيوس » كنية « أوليس » ؛ وأودسيوس باليونانية

هو « جواب الآفاق » الذى يقص هوميروس أنباء عودته من آسيا الصغرى إلى وطنه إيتاكا بجزيرة كورفو الشهيرة حتى اليوم بروعة موقعها على مقربة من شاطئ دلماسيا المصيف الأوروبى الجميل .

والحق إن فى اختيار هوميروس لأوليس كبطل للمحمته الثانية ما يدعو إلى التفكير ، وبخاصة إذا ذكرنا أنه قد كان هناك أبطال آخرون من بينهم من انتهى إلى مصير جدير بأن يوحى أجمل الشعر كأياس مثلاً . أياس الذى جن إذ آثر اليونان أوليس دونه بأسلحة أخيل عند موته ، مع أنه كان أعظم من أوليس إقداماً وأشد بطشاً . كان باعتراف الجميع « سياج اليونان » .

ولكن الواقع هو أن اليونانيين قد رأوا فى أوليس أنموذجاً قومياً تتركز فيه صفاتهم ، وفى هذا ما يفسر اختيار هوميروس له دون كل الأبطال . لقد كان الشعب اليونانى حريصاً على أن يستمع إلى مغامرات البحر ، وهو شعب قد بنى مجده على خوض عذاب اليم ، والتماس أسباب الحياة فى الأراضى النائية حيث الغنى الذى لم يتوفر لبلادهم الفقيرة . ثم إن الصفة التى غلبت على أوليس فى الإلياذة هى الشجاعة المستتيرة يوم دعا داعيها . ولكن الزمن قد سار سيرته ، وأصبح الرجل اليونانى ينجح إلى تقدير صفات نفسية أخرى لا تقل عن الشجاعة قيمة فى نظره ، لأنها صفاته التى يصدر عنها فى كل أموره ، ومن بينها الحنكة ، وحسن التقدير ، وفهم النفوس ، والمباقة فى معالجة المشاكل والتغلب على الصعوبات .

ولهذا عند ما نمر من الإلياذة إلى الأودسا نلمح فى شخصية أوليس تطوراً لا ريب أنه قد ماشى تطور العقلية اليونانية كلها ، بحيث نجد فى تصوير هوميروس له حقيقة الروح الإغريقية . والذى لا شك فيه أن الأدب وبخاصة أدب شاعر واقعى كهوميروس أدل على عقلية الشعوب من أى تراث روحى آخر . فالفلاسفة كأفلاطون أو الرواقيين قد يحدثوننا عن المثل الأعلى فى الأخلاق ؛ فيراه أفلاطون فى أن نعيش وفقاً لطبيعتنا البشرية ، فلا تقاوم غرائزنا ولا نحاول قتلها ، بل نتركها تنمو نمواً طبيعياً حتى لا تفسد حياتنا بكبتها ، مكتفين بأن نتخذ العقل رقيباً يحد من إسرافها ويلازم بين تنافرها . ولقد يدعونا الرواقيون إلى ألا نتأثر بالأحداث ، فلا تنخلع قلوبنا للحزن ، ولا تخف أحلامنا للطرب . ولكن هذه كلها مثل عليا ، والمثل الأعلى موضع رغبة ، ونحن لا نرغب إلا فيما يعوزنا .

والأدب ليس كذلك ، ففيه نجد حقيقة العقلية اليونانية كما كانت . وعند هوميروس ما يعيننا على فهمها ، فمن بين أبطاله العنيف الانفعال القاسى القلب فى نبلى وإباء كأخيل ؛

ومنهم الشجاع في روية ، الداهية عن ذكاء نافذ كأوليس .

والذي لا ريب فيه أن أوليس لم يفقد شيئاً من صفاته التي عرفناها عنه في الإلياذة ، ولكن الأمر أمر نسب وتطور . والذي يبدو لنا في الأودسا هو أن زمن البطولة الأولى كان قد ولى ، وكان اليونان قد أنكروا ما في خلق أبطالهم من إسراف ، فأصبح البطل كأوليس أقرب إلى البشر منه إلى الآلهة ، أقرب إلى الحياة منه إلى المثل الأعلى .

لم يعد أوليس البطل المقدم الذي يغامر في حرب مثالية يبنى منها أن يستنقذ هيلانة رمز الجمال الكامل ، بل ذلك الداهية الخصب الذكاء ، ذلك السائح الطلعة الذي يجوب آفاق البحر الأبيض ليرى بعيني رأسه ويعلم عن تجربة ، فلا يعود إلى وطنه إلا وقد ملأ ناظريه بجمال ما شاهد ، وأغنى ذاكرته بما سمع من قصص . وليس من شك في أن ألزم الصفات لرجل يسعى إلى ما كان يسمى إليه أوليس هي القدرة على التمييز عن فطنة ومهارة ، حتى يستطيع أن يتدبر لكل حالة خلاً موقفاً ، ولكل مأزق مخرجاً يسيراً .

نعم إنه لا يزال يحتفظ في الأودسا بصفاته الطبيعية وأخصها الشجاعة والصبر . فقواه الجسمية لا تزال سليمة ، وإرادته القوية ما برحت في قبضة يده يتصرف فيها كيفما شاء . ولكننا نحس أن قواه قد ازدادت خضوعاً لحكمته ودهائه ، بل ومكره ، فهو لم يعد بطلاً خارقاً بل بشراً كسائر البشر .

انظر إلى وصف لأوداموس Laodamos أحد أشرف الفياسيين Phéaciens له عندما ألقاه البحر بينهم : « أيها الأصدقاء ! دعونا نسأل هذه الأجنبي عما خاض من تلك المعارك المجيدة التي قوّم فيها جسمه . وفي منظره ما ينبئ بقوة الأبطال . ما أقوى جوانحه ! وما أصلب أرجله ! وما أعرض صدره ! إن في مناكبهِ صلابة ، وبأذرعه أعصاب تنبض . إن الشباب لم يفارقه وإن كانت المحن قد هدت من كيانه » .

وما إن وطئت قدماه أرض إيتاكا وطنه حتى بدا له أن يتنكر في ملابس شحاذ كي لا ينكشف أمره وهو لا يعلم بعد إلام سار ملكه ، أو انتهى الأمر بزواجه النبيلة پنلوبي وابنه الشجاع تليماك ؛ ومع ذلك فمن خلف الأسمال كانت عضلاته تطالع الناظر . وهو يصف نفسه فيقول : « لقد صرت إلى خريف الحياة ، ولكن أليس في قوة القش ما ينبئ بنوع الحصاد » .

وفي حرص هوميروس على أن يحتفظ لهذا الشيخ بقواه الجسمية ومظاهرها التي يصف في دقة ، ما يدل على اتجاه مطرد عند اليونان ؛ فهم شعب كان يرى دائماً في قوة الجسم أمانة

تفوق ، وذلك لافى عصور بداوتهم الأولى فحسب بل فى كل مراحل تاريخهم ، وآية ذلك حرصهم المستمر على الرياضة البدنية . ألسنا نذكر أن أفلاطون نفسه قد حصر فيها هى والموسيقى والعلوم الرياضية مواد التربية بجمهوريته . والتربية عندهم لم تكن تحصيلاً أو إعداداً للمهنة ، بل تكويناً للملكات جسمية كانت أو روحية . ثم هل أدل على فطنتهم لصحة الجسم وجماله وقوته من أن نرى سقراط نفسه ، سقراط الشيخ ، يحرص على أن يتعلم الرقص ليققل من قبج جسمه المنبعج ويقوى من ضعفه ، فيقول لأصدقائه وتلاميذه وقد اجتمعوا يوماً بمنزل أحدهم حول غلام يعلم الرقص : « أتضحكون منى لأنى أريد رياضة جسمى أن أتعهد صحى ، فأتمتع بأكل هنىء ونوم سليم ؟ ! أتضحكون لأنكم تعتقدون أن شيخاً مثلى لن يصاحب مدرباً رياضياً إلى الخلاء فيعزى جسمه أمام الجماهير ، بل سيقنع بغرفة طعام كهذه التى يكتفى بها هذا الغلام ؟ ! أتضحكون لأنى سأتمرن فى الشتاء تحت السقف ، وفى الصيف تحت الظلال إذا اشتدت حرارة الشمس ؟ أم تضحكون لأننى رحت ببطن كبير إلى حد ما ، فأردت أن أردّه إلى حجم معقول ؟ » . وفى هذا يقول شاعرهم أنا كريون : « عند ما يرقص الشيخ لا ترى فيه عجوزاً غير شعره ، وأما روحه فلا تزال فتية » .

وفى كل هذا ما لا يدع مجالاً للشك فى أن أوليس كما يصوره هوميروس يمثل بمتانة جسمه صفة كان اليونان يحرصون عليها كل الحرص . والكثير من شعوب أوروبا لا يزالون إلى اليوم يرون ما كان يراه اليونان ، من أن قوة الجسم فضيلة لا تقل أهمية عن الفضائل الروحية ، وإنه لمن الحق أن نحترقها أو نرى فيها أمراً ثانوياً .

ومع ذلك فقوة جسم أوليس لم تعد شيئاً إلى جوار قوة إرادته ونفاذ ذكائه .

ولكم من مرة أوشك الموت أن يتلقفه لولا تملكه لنفسه . ونحن لا نعرف ملاحاً سواه من بمضيق مسينا وسمع من أعلى الصخور نداء السيرين Sirènes الساحرات الصوت ثم صمد لإغرائهن . قالوا إنه أمر رجاله فشدوا وثاقه إلى شراع السفينة على أن يزيدوه شداً كلما طلب إليهم أن يحلّوه ، وما الوثاق إلا رمز لسيطرتة على أهوائه . وهكذا مرت سفينته دون أن تتحطم بالصخور كما تحطمت من قبلها ومن بعدها سفن أخذ ربانها بعذوبة الصوت فدنوا ليلقوا حتفهم . وبفضل تلك السيطرة أيضاً قاوم كالپسو Calipso الإلهية الجمال ، عند ما أرادت أن تستبقية فى كهفها بإحدى الجزر زوجاً لها ؛ كما انتصر على سرسيه Cercé وعلى السكلوب الخفيف ، ثم على پوزيدون نفسه إله البحر القاسى . أوليس أقوى من أنصاف الآلهة بل ومن الآلهة ، لأنه قابض على زمام أمره ، وقد انعقد عزمه على أن يعود إلى مملكته

حيث زوجته الوفية پنلوب Penelope التي كانت تنتظره في صبر منذ سنين ، والتي لم تكن تقل عنه دهاء ، وقد رأت خطابها الكثيرين وخشيت بأسهم فوعدهم أن تختار لنفسها من بينهم زوجاً بعد الفراغ من ثوب كانت تطرزه ، ولكنها أخذت تنقض بالليل ما عمله في النهار ، وبذلك لم تنته حتى عاد زوجها فألقدها .

ثم أية مقدرة على كبت مشاعره وإخفاء ما يثور بنفسه من انفعال ! انظر إليه وقد عاد متنكراً إلى بيته وزوجته تجهل حقيقته ، فتتحدث عن أوليس الغائب أرق الحديث : « وعند ما رأى بكاء زوجته المر استشعر بأعماق قلبه رحمة قوية ، ولكن عيناه لم تتحرك منهما حدقة بجفنيه الساكنين كأنهما من صخر أو حديد . ذلك لأنه يحدق فن التصنع إلى حد يستطيع معه أن يجبس دموعه » .

وما هي إلا لحظة حتى أوشك أن ينفجر من جديد إذ رأى نفسه بقصره شحاذاً مزدري يتلقى بقلب جريح من عشاق زوجته كل أهانة ، ويرى ما يلحقونه ببيته من أذى ، « اهتز قلبه بين أضلعه ، وكما ترسل الكلبة الجارحة نباحها القوى وتتحرق للقتال إذا دنا غريب من أبنائها وهي تسير بينهم لحايتهم ، كذلك زار قلب البطل وقد أنهكه تحمل ما يرى من هوان . ولكنه لم يلبث أن ضرب على صدره ليلزم الصمت وثبات قلبه الفتى . هددوا أيها القلب ! لقد تحملت فوق ما ترى اليوم من محن . لقد رأيت بعيني رأسك ذلك السكلوب الذي لا يقهر يفترس رفاقك الشجعان فثبت حتى استطعت بحكمتك أن تنجو من مغارته حيث كان الهلاك محققاً . هكذا زجر قلبه فسكن وكأنه قد أوثق فحمت فيه كل نأمة » .

وتجلى بطلنا مشركاً معه ابنه تليماك ، وقد عاد من رحلة قام بها بحثاً عن أبيه ، وأخذ يعد لهؤلاء العشاق الوقحين وسائل الهلاك في دهاء محكم ، قال لولده : « إنني أرى كل شيء وما يفلت مني شيء » . وتلك هي رؤية الممكن وحدوده لا يعدوها عند وضع الخطط . وما إن علم بوفرة أعدائه حتى لزم التنكر . وهو في ذلك مثل الكثير من قادة اليونان ؛ وكلنا يذكر بلا ريب فيليب المقدوني الذي عرف كيف يكسو الأسد جلد الثعلب .

ولكن دهاء أوليس لم يصبح بعد خسة ، ومصدره فهم نفوس البشر واستغلال لشهواتهم ، ولئن نصب شراكاً فهو لم ينصبها إلا للحمقى . ومن الواضح أن هذا الدهاء هو الصفة التي تعلق الأودسا بإظهارها . وفي أحد مواضعها تخبرنا هيلانة أصل البلاء ، « أنه قد بلغ بأوليس الدهاء أن دخل طروادة متنكراً في ثياب شحاذ (شنشنة قديمة ! !) فرأى كل شيء قبل أن يفطن إليه أحد ، ثم قتل نفرأ من رؤساء المدينة وولى » . ونحن نعلم من

مصدر آخر أن سقوط طروادة كان بحيلة من حيله ، إذ أمر بصنع حصان كبير من الخشب كمن ببطنه هو ونفر من الجند ، ثم تظاهر اليونان بالانسحاب مخلفين الحصان وراءهم ، فأتى أهل طروادة ظانين أنه غنيمة باردة ، ولما كانت أسوار المدينة وأبوابها لا تسمح بدخوله فقد هدموا جانباً منها وأدخلوه . وما إن أحس أوليس وأصحابه أنهم قد صاروا في قلب المدينة حتى وثبوا من الحصان وقتلوا الحراس ، وكر اليونان ، فاقتحموا على العدو مأواه ، وبذا سقطت طروادة ، وأصبح « حصانها » مضرب الأمثال للخديعة .

وهذا الدهاء هو نفسه الذي مكن لأوليس من رقاب الخطّاب ، فإنه لم يزل يعد العدة ، ويستوثق من الوسائل ، حتى تهيأت له كل ملابسات النجاح ، فأغلق باب القصر وفتك بأعدائه أشد فتك . وما إن تم له النصر حتى ظهرت قسوته كما عهدناها في الإلياذة . وأوضح ما نلمح من تلك القسوة هو شنقه للقوادات بسقف منزله ، فذلك منظر شابت لهوله النواصي . قالوا كنت تراهن يومئذ وقد « علّقن كالعصافير تهز أرجلها برهة ثم تفارق الحياة » .

ولكننا رغم هذه القسوة ورغم ذلك الدهاء الماكر لا نستطيع أن نرى في أوليس خلقاً ذمياً ، فقسوته لها ما يبررها ، ودهاؤه لم يستخدمه إلا في الحرب أو دفاعاً عن شرفه ، ورداً لحق البشر وأذاً لهم . بل نحن لا نستطيع إلا أن نعجب لرقته في حديثه له بإحدى الجزر التي مر بها حيث اتى نوزيكا Nausica بنت الملك ، وكانت فتاة جميلة وديعة ، فعرف كيف يلاطفها ويحييها ويلين لها القول على نحو أشبه بأخلاق الفروسية التي عرفناها في القرون الوسطى منها بأخلاق البداوة الإغريقية التي كانت سائدة في ذلك الحين .

ثم إنه كان يحب وطنه ، وهذا خلق بلا ريب بالغ النبيل . استمع إليه يتحدث وقد سئل عن ذلك الوطن : « بلدى إيتاكا الشهيرة التي تنظر إليها الشمس وقت الغروب . فيها ترف الأوراق الكثيفة على سطح النيرت Neiret عند الظهيرة ، وأما الفجر فينثر حولها عدداً وفيراً من الجزر الخصبية : دوليكيم Dulicheum وساميه Samé وزا كانت Zacintae الخضراء ؛ بلدى تقع على مقربة من أرض اليونان ، جزيرة تقطعها الصخور ولكنها منبت فتية بواسل . لا ! ليس في الأرض مكان أحب إلى قلبي منها . عبثاً حاولت كاليسو أن تستبقيني بكهفها لتخصني بشرف الزواج بها . عبثاً حاولت سرسيه العالمة بكل ما يعرف السحر من حيل أن تعرض على العرض نفسه فتحتفظ بي موثقاً بحبائل الزواج . لقد تبذرت جهودهن هباء ، فميجزن عن إمالة قلبي ، وذلك لأن أرض الوطن وما تقل من أهل وهبونا الحياة ،

واتصلت قلوبنا بقلوبهم ، قد أوحى إلى بحب رقيق لا يستطيع كل ما فى الأرض من مجد وخيرات أن يصرفنى عنه .

ونحن نعلم أنه لم يكذباً أرض الوطن حتى قبل تراهه ورفع بصره إلى ربات اليم شاكرًا أن قدنه إليه .

ذلك هو أوليس الأودسا : بقية من صحة الجسم وشجاعة القلب ، ثم عقل كبير ودهاء خصب ؛ قسوة حيث تغتفر القسوة ، ولين ورقة قلب حيث تهتز النفس ويشور الفؤاد . ولكنه بلا ريب لم يعد أوليس الإلياذة ؛ وأكبر دليل على ذلك أن نراه يوماً يستمع إلى شاعر متجول بإحدى الجزر فينصت ، وإذا بالشاعر يتغنى بحرب طروادة فيغطى بطلنا المغوار رأسه ويأخذ فى البكاء . ونحن على ثقة من أنه لو رآه زملاؤه أبطال الإلياذة فى ذلك اليوم لأنكروه .

لا . إن أوليس لم يعد من الصلابة بحيث كان ، وقد أخذ التفكير يتغلب فى نفسه على خشونة البداوة . أخذ الدهاء يسيطر على الشجاعة ، أخذت الرقة تنفذ إلى صلابة قلبه . أخذ يتحضر . وهذا أمر لا عيب فيه ، ولكن طريق الحضارة طريق زلق سوف نراه فى الحديث الآتى ينتهى برجلنا كما انتهى بالشعب اليونانى كله إلى بوادر انحلال خلقى . ستكون إحدى مظاهره ذلك الخبث القبيح الذى يصدر عنه أوليس « فيلوكتيت » Philoctète مسرحية سوفوكليس الروائى العظيم .

(٣)

فى فيلوكتيت

تركنا أوليس وقد أصبح فى الأوديسا أقدر على الدهاء مما عهدناه من قبل . وها نحن نلقاه اليوم فى فيلوكتيت Philoctète مسرحية سوفوكليس الشاعر العظيم ؛ فإذا بنا فى القرن الخامس قبل الميلاد ؛ وإذا بنا فى أثينا حيث ظهر الفلاسفة ، وكثر الخطباء ، وتعدد السوفسطائيون فأخذت بوادر الانحلال تدب فى الأخلاق . وتلك ظاهرة لها أشباهها فى تاريخ كل الشعوب ، فالتفكير ملكة خبيثة كثيراً ما تنتهى بالإنسان إلى تبرير كل الوسائل ، والتماس كافة السبل لما نسعى إليه من أهداف ، فيسكت صوت الضمير ، وتختفى من النفس معانى النبيل التى تتوافر عادة فى البداوة .

وهذا ما كان من أمر أوليس رضى الشعب اليونانى كله ، فهو لم يعد الداهية الشجاع ، بل الخبيث الجبان الذى لا يتورع عن شيء ، ولا يقيم لمبادئ الخلق أى وزن . ولا أدل على ذلك من أن ننظر فى موقفه من فيلوكتت أحد أبطال تساليا الخالدى المذكور .

« فيلوكتت » بطل أبى النفس بعيد المهمة . لاقاه يوماً هرقل فآخذ منه رفيقاً ، صاحبه فى كثير من أعمال بطولته التى خلدت ذكره ، إلى أن حم القضاء فمات هرقل برداء مسموم أعطته إياه زوجته « ديچانير » خطأ ، فى قصة طويلة مؤثرة . ولما كان هرقل يحب « فيلوكتت » ، فقد أعطاه عند احتضاره قوسه الشهيرة وأسهمه النافذة ، وأوصاه أن يقوم بنفسه على إحراق جثته كما جرت عادة القدماء .

وعند ما هم اليونان بالانتقام « لينيلاس » ، ونادوا بإعداد السفن والرجال للإبحار إلى آسيا الصغرى ، لم يتخلف فيلوكتت ، بل قدم ست سفن كبيرة زودها بالجند ، وأبحر هو على رأسهم ، ولكن محن الأيام شاءت إلا أن تلدغه حية بإحدى الجزر التى أرسوا بها أثناء رحلتهم الطويلة . لدغته فى رجله ، ففغر الجرح واشتدت رائحته الكريهة . فتشاور الرؤساء فى أمره . ومن عجب أن نرى « أوليس » يدعوهم إلى تركه بجزيرة « لمنوس » تخلصاً منه إذ لم يعد صالحاً لشيء . وفى هذا ما يحزن . فقد سبق أن رأينا أوليس نفسه فى الإلياذة يحرص على ألا يتخلى عن زميله « ديوميد » عندما جرح فى الغزوة التى اشتركا فيها ، وقد أحاط بهما العدو والليل حالك الظلام . وهوميروس يحدثنا أنه قد أظهر عندئذ نبلاً وشجاعة لا حد لجلالهما ، إذ ضمدا جراح رفيقه وعاد به سالماً . ولكن الزمن كما قلنا لم يعد زمن البطولة الكريمة ، بل زمن النفع المباشر الذى يستطيع كل فرد أن يجنيه من زميله .

ترك اليونان إذن « فيلوكتت » نزولاً على إرادة أوليس الذى تولى بنفسه تنفيذ الجريمة . ووصلت الحملة إلى طروادة ، وكان ما كان من حصار المدينة عشر سنوات دون التمكن من أخذها ، حتى ملّ الجند وطلبوا إلى رؤسائهم أن يستشيروا عرافاً لعله يدهم على سر أو ينبئهم بوسيلة . وقال العراف : « إن طروادة لن تسقط إلا على يد من يمتلك قوس هرقل وأسهمه » فسقط فى يد الجميع وحارت الأبواب ؛ إذ من يستطيع أن يعود إلى جزيرة لمنوس بعد عشر سنين ليطلب إلى فيلوكتت أن يعطيهم أسلحته أو أن يخف إلى نجدتهم ؟

وساءت الأمور ، فأخيل نفسه قد قتل ، وأعجب ما فى الأمر أن تكون وفاته بسهم يطلقه « باريس » حلس النساء فيصيب كعبه ، ويتساءل الناس جميعاً : كيف يموت بطل

— لم تر الأرض مثله — بإصابة في كعبه ، ويستنكرون موتاً كهذا . ولكنهم يقتنعون بإرادة القضاء ، إذ يبحثون فيعلمون أن أخيل كان منيع الجسم كله ، وأنه لم يكن فيه موضع ضعف غير كعبه ؛ وذلك لأن « زيس » كان قد أوصى « تيتيس » ، ربة البحار وأم البطل ، أن تغمس ولدها عند ميلاده في الماء عدة مرات حتى يبتل جسمه كله فيصبح في مناعة تامة . ولكن الأم المسكينة نسيت أن تبلل الكعب أيضاً ، إذ كانت يدها تغطيه وهي تنكس ولدها في البحر . وفي الحق إنها إرادة الآلهة ، فالخلود لم يكتب لأحد . وإلى اليوم لا يزال « كعب أخيل » مضرب الأمثال لموضع الضعف في كل رجل مهما كانت قوته ومهما علا مجده . مات إذن أخيل ، ولكنه خلف ولداً لا يقل عن أبيه شجاعة . خلف « نيوپتولم » Neoptolème أى « القائد الحديث » ، وقد رزقه من إحدى أميرات جزيرة سر كوس Syrcos ، حيث قادته إرادة الآلهة قبل نشوب الحرب . وكان أوليس يعلم بوجود هذا الشبل ويؤمن بأنه سيكون خير عوض عن أبيه . ونظر فرأى أنه لن يستطيع أحد أن يقترب من فيلوكتت الثائر المتألم الحامى الحفيظة غير هذا الطفل المقدم ، الساذج الشجاعة . فاقترح أن يسير هو إليه في جزيرة سر كوس ، وأن يخبره نبأ وفاة أبيه ، ثم يطلب إليه أن يصاحبه إلى جزيرة « لمنوس » ، حيث فيلوكتت الذى لم يكن بد من إحضاره لكي تتحقق نبوءة العراف .

وصل أوليس إلى سر كوس ، وهناك وجد نيوپتولم ، فأخذ يصطنع كل الحيل ليقنعه بما يريد . من ذلك أنه أعطاه أسلحة أخيل أبيه . ونحن نذكر أن اليونان كانوا قد آثروا أوليس — لدهائه — بتلك الأسلحة دون « أياس » الذى جن لهذه الإهانة وانتهى به الأمر إلى الانتحار ، مما زاد في مصاعب الجيش اليونانى وقد أخذ يفقد خيرة أبطاله الواحد بعد الآخر ، فهوّن ذلك على أوليس كل تضحية في سبيل النصر ، بله النجاة . ومن حيله الأخرى لإغراء نيوپتولم أن حرك فيه كبرياء الطفل ، ولوّح له برايات المجد . قال : « إن طروادة ستسقط على يديك إذا استطعت أن تحضر فيلوكتت ومعه أسلحة هرقل التى ورثها عند موت ذلك البطل الشهير ، فيلوكتت الذى قضت إرادة الآلهة أن يكون موت باريس قاتل أبيك على يديه ، وهو الذى سيساعدك على دخول طروادة » .

ولم يزل أوليس بنيوپتولم حتى أقنعه بالسير معه إلى لمنوس . وهنا تبدأ مسرحية سوفوكليس ، فقد وصل هذا الداهية الخبيث إلى الجزيرة ومعه طفلنا الشهم ، وجاء دور العمل ، فرأينا أوليس الساكر الجبان يظل في الخلف ليدفع نيوپتولم إلى المخاطرة ، وهو يعلم أن فيلوكتت

رجل أنزلت به الخيانة أشد المحن ، فعرفت نفسه المرارة ، وقد قضى بتلك الجزيرة — التي يأبى الشاعر إلا أن يجعل منها أرضاً جذباء موحشة — عشرين وذكريات مجده الذي ضاع ، ووطنه الذي حرم منه تلح على قلبه فيثور ويتحرق للانتقام ؛ ثم إنه يملك قوساً وأسلحة لا تزال حتى اليوم خالدة الشهرة . والذي لا شك فيه أنه كان يحقد على كل اليونان ، وينتظر يوماً يستطيع فيه أن يُسيل دماءهم جزاء وفاقاً لغدرهم به . ومع ذلك فلننظر بأى خبث يدفع أوليس طفلنا إلى الهلاك :

« يجب أن تحلب لب فيلوكتت بقول خادع . عند ما يسألك من أنت ومن أين أتيت ، قل له إنك ابن أخيل . وهذا حق لا مواربة فيه ! تظاهر أنك عائد إلى وطنك بعد أن تركت أسطول اليونان موضع بغضك العميق ! أنت الذي استدرجوك بأوضاع التوسلات عند ما لم يكن لهم غنى عنك لأخذ طروادة ، ثم لم يروك أهلاً لأن ترث أسلحة أخيل فأعطوها لأوليس ، مع أنك أحق بها من كل إنسان ! وهنا تستطيع أن تشبعنى سباً . وأنت إذ تفعل ذلك لن تسيء إلى شيء ، في حين أنك لو اتخذت سبيلاً آخر لسببت لليونان كافة أقسى المحن . ثم إنك لن تستطيع هدم سياج طروادة ما لم تستول على ما يملك هذا الرجل من قوس وأسهم . ولو أننى ذهبت بنفسى لحديثه لما كان في ذلك شيء من الاطمئنان أو ضمان السلامة ، بينما تستطيع أنت ذلك دون أية مجازفة . ولو أنه أحس بوجودى وقوسه بيده لضعفت ولضعفت مى كرفيق سفرى . يجب عليك أن تحتال لسرقة سلاحه » .

ويطرق « نيوپتولم » ، ويحس أوليس بما ثار في نفسه ، فيبادره بقوله المعسول الذى ينفث السم : « لست أجهل يا ولدى أن طبعك لا يسمح لك بأن تفوه بكلمات خادعة ، أو أن تأتى بأعمال ملتوية ، ومع ذلك ما أحلى أن نفوز بالنصر ! المرأة إذن الجرأة ! حتى نفوز بما نبغى . وبعد ذلك لدينا متسع لنكون أمناء صادقين . عليك الآن أن تضحى بصدقك وأمانتك مدى جزء صغير من يومنا هذا ، وبعد ذلك لك أن تكون أبد السنين أشرف الرجال » .

وهذا موضع الانحلال . داء عضال كم نخر في عظام الإنسانية منذ أقدم العصور ، إلى أن جاء ميكائلى ، المفكر الإيطالى المعروف ، فأقامه مذهباً معبراً عنه في كتابه « الأمير » بجمليته المسفة : « الغاية تبرر الوسائل » . وتلك نغمت لم نسمعها من أوليس إلا زيادة ، بل ولا من أوليس الأودسا . ولكنها بوادر الفساد التى أخذت تنتشر في القرن الخامس عندما ظهرت الفلسفة وامتدت بسفسطها إلى الأخلاق التقليدية ، تلقى الشك في قيمها ، وتلتمس للخروج عليها تأويل باطلا .

ورفض نيوبتولم عرض أوليس . رفضه لأنه ابن أخيل . ولقد كان أبوه يفضل الموت على أن يفكر في شيء ويفعل غيره . نيوبتولم شاب كريم الطبع نبيل الخلق ، فكيف يستطيع أن يكذب ويفعد وينافق في حين ؟ ! وهل هناك غاية مهما جلت أو نبلت تستطيع أن تبرر العيوب الخلقية ؟ ومع ذلك لا يئأس أوليس من إغرائه :

« وأنا أيضاً — يا ابن البطل المغوار — عندما كنت شاباً كنت أطول ذراعاً من لسان . وأما اليوم وقد حنكتني التجارب فقد أصبحت أعتقد أن الأحياء يسيطر عليهم اللسان أكثر مما يسيطر الذراع » .

وهذه سفسطة جورجياس بعينها . ويصيح نيوبتولم مغضباً من دعوة أوليس له إلى الكذب . ولكن هذا الأخير يجيبه في برود : « إنه ليس في الكذب عار ما دام فيه منجاة لنا ، بل ما دام فيه نفع لنا » ! !

ولا غرابة في ذلك ، فأوليس لم يعد يدعو « بالاس » الإلهة النبيلة عندما يحزبه أمر ، بل همس إله التجار واللصوص والمنفعة . لقد تشكر أوليس لآلهته القدماء ومعهم الشعب اليوناني كله ، وهو طبعاً يرفض ما يصفه به أعداؤه من انحطاط ، ويحاول أن يرفع كذبه إلى مستوى الفلسفة فيجعل منه مذهباً نظرياً . ألم يقل عند ما سمع سباب فيلوكتت له : « باستطاعتي أن أرد عليه رداً طويلاً ، ولكن الوقت لا يسمح لي بذلك اليوم . وأما الآن فليس لدى إلا شيء واحد أجيب به ، وهو : أنني كما يقتضي كل ظرف . فحيث تطلب الاستقامة والعدل لا ترى أعدل مني ولا أقوم ؛ ومع ذلك فقد أملت على طبيعتي شهوة الطموح إلى النصر دائماً » . وهنا يلحق سوفوكليس بالمؤرخ توسيديد عند ما يصف لنا أخلاق اليونان إبان الحرب البليپونيزية .

ولقد كان الأمر يهون لو أن الفساد لم ينته بأن يمتد إلى نيوبتولم نفسه ؛ فأوليس لم يزل به يغريه بالمجد والنصر حتى سخره لما أراد . وذوو النظر يجمعون على أن الصفة التي وقعت في نفس الطفل عند تملك أوليس له لم تكن الصفة التقليدية : « أيها الشاب الجميل الخير » بل : « أيها الشاب الحكيم الخير » ، وفي استبدال أوليس للفظ « الجميل » بلفظة « الحكيم » ما يلخص تطور الروح اليونانية كلها ، فهم لم يعودوا يقدرّون جمال الجسم وقوته وشجاعته تقديرهم للذكاء والدهاء والمكر التي أصبحوا يسمونها حكمة .

وهكذا نرى نيوبتولم يسير إلى فيلوكتت ويخدعه بالكذب ، فيدعي أنه سيعود إلى سيركوس ، وأنه لا يعرف محدثه ، ولا سبب محنته ، كما يتظاهر بأنه هو الآخر فريسة لظلم

اليونان ، وهو يسرف في ذم أوليس وغيره من الأبطال وبتهمهم بالسرقة والخيانة : سرقة أسلحة أبيه — مع أن أوليس كان قد أعادها إليه — ثم خيانة بعضهم بعضاً . وهكذا نرى ابن أخيل نفسه يقلب الحقائق ، ولكنه أحد إغريق القرن الخامس ، ولكن أستاذة هو أوليس .

وانتهى به الأمر إلى أخذ الأسلحة من فيلوكتت ، وقاد الرجل المسكين إلى الشاطئ ليبحروا جميعاً . وهنا عاودت نيوپتولم بقية من نبل طبعه الأصيل ، فاعترف بالحقيقة ظاناً أن فيلوكتت سيعفو عما كان . ولكن فيلوكتت كان على الخلق القديم ، كان لا يزال صلب العناد قوى النفس ، وكأني به يستشعر الخزي كلما ذكر تلك اللحظة المشؤومة التي فتح فيها عينيه وهو ملق على الشاطئ ، فرأى السفن تختفي في الأفق بعد أن خلفته منبوءاً لجراحه الدامية . نعم لقد مضى على ذلك عشر سنوات ، ولكن الألم لم يبرح ، والجرح لم يلتئم . فأى غرابة في أن يثور عند ما يخبره نيوپتولم بهذه الخيانة الجديدة ! أى غرابة في أن يصيح طالبا أسلحته ليقضى على نفسه ويقطع أوصاله غيظاً ، إذ عاد فوقع فريسة هيئة للغدر والاحتيال ، وقد أصبح لا يريد شفاء ولا مجداً ، بل يرى المجد والشفاء في أن ينتقم لنفسه ، وأن يرى هلاك اليونان بعد عجزهم عن الاستيلاء على طروادة التي أفنت أبطالهم وأرثهم من المحن ألوانا عشر سنوات .

وحار أوليس ونيوپتولم في الأمر ، وقد نفدت منهما الحيل ، ولم يبق إلا أن يطلبوا عون الآلهة . وهذا ما كان ؛ فقد ترفق زيس فأرسل شبح هرقل إلى فيلوكتت ، يطلب إليه أن يسير إلى طروادة حيث يجد الشفاء ويصيب المجد بقتل باريس قاتل أخيل أكبر أبطال اليونان ، ثم بالمساهمة في أخذ طروادة . وأطاع فيلوكتت وقد هدأت نفسه ، فودع لمنوس مقر محنته ، كما ودع البحر الصاخب من حوله أجمل الوداع ، ووصل إلى طروادة حيث تحققت نبوءات العراف وإرادة الآلهة . وبعد أن تم له ما أصاب من مجد عاد إلى وطنه في رحلة لم تستغرق غير سنة واحدة . وأما أوليس فقد ظل يتخبط بالبحار عشر سنوات كما رأينا في الأودسا . عاد فيلوكتت إلى وطنه قبل أوليس بتسع سنوات ، ولعل في ذلك بعض العوض عما أنزلت به الأقدار من محن .

أوليس لم يعد إذن كما عهدناه ، ومع ذلك فنحن لا نزال في عصر سوفوكليس ، فما بالكم عند ما يتراخى الزمن قليلاً إلى عصر أوربيدس الذي يخيل إلينا أن بينه وبين سوفوكليس قرونًا . ولكن الزمن لا يقاس بالسنين بل بما فيه من أحداث . ولقد كانت الحياة الفكرية

في ذلك الحين مستمرة التقدم ، وبتقدمها أخذت الأخلاق تنحل ، حتى رأينا رجلاً كألسيباد الزعيم الآتينى الشهير لا يتحرج أن ينضم إلى الأعداء ضد وطنه مرة ومرة ، مادام يرى في ذلك تحقيقاً لمطامعه المفسدة .

أوليس سوفكليس يمثل مرحلة في تاريخ اليونان . وهو مهما كانت عيوبه لم يصل بعد إلى ما نراه في تاريخهم المتأخر عند ما ينتهى بهم الأمر إلى السقوط في يد المقدونيين ثم الرومان ومن تبعهم ، إذ ظلوا مستعبدين ولم يستطيعوا استرداد استقلالهم إلا أخيراً في النصف الأول من القرن التاسع عشر .

ولكن أوليس لم يفن بفنائهم ، بل ظل خالداً يوحى إلى الشعراء والكتاب شتى المعانى ، وذلك لأنه وليد العبقريّة ، وهذه لا سلطان للزمن عليها .

(٤)

في الآداب الحديثة

لم يمت أوليس بموت الشعب اليونانى وسقوطه في قبضة الاستعمار قروناً طويلة . فأوليس كما قلنا من خلق العبقريّة ، وهذه لا سلطان للبشر عليها بل ولا للزمن ، فقد عادت الإنسانية أيام البعث العلمى تنقب عن ذلك التراث الجليل الذى لم يكن من الممكن أن تطمس الأيام معالمه إلى غير رجعة .

عادت الإنسانية إلى تراث اليونان تعاود فيه البصر التماساً لوحى جديد ، وكان أوليس ممن استوقف الناظرين ، وذلك لما اجتمعت إليه من صفات وتركزت فيه من رموز . فهو لم يكن أنموذج الشعب الإغريقى في مراحل التاريخيّة المختلفة فحسب ، بل أنموذجاً بشرياً فيه الكثير من نواحي الإنسانية التى نمتلكها أو نود أن نمتلكها : فيه الحنين إلى الوطن واللهفة إلى العودة إليه مهما كان في ذلك من مخاطر ، فيه روح المغامرة التى تدفعنا إلى الضرب فى الأرض والبحار لنفيد تجارب ونثرى بما نشاهد من صور . فيه حب الاستطلاع والرغبة فى المعرفة التى لا تعدل بالفهم شيئاً ولا يردّها عن ذلك شيء . فيه كل هذا وفوق هذا من المعانى التى ما زلنا نحرص عليها أو نقف دونها .

أوليس شخصية غنية . نظر فيها كل شاعر وكاتب فوجد ما يريد . فدانتى يأبى إلا أن يحدثنا عما صار إليه بطلنا من مصير وهو ينبئنا أنه قد لقى في « الجحيم » وتسقط حديثه فإذا به يقول : عند ما غادرت سيرسيه التى احتفظت بى مختبئاً أكثر من عام لم تستطع صورة

ولدى العزيز ولا يرى بوالدى الشيخ بل ولا الحب الذى كان مصدر سعادة لينلوب . لم يستطع شئ من كل هذا أن يهزم فى نفسى اللهفة إلى معرفة العالم . لقد رأيت كل الشواطئ ، حتى إسبانيا ومراكش وجزيرة سردينيا وغيرها من الجزر التى يبللها البحر . لقد كنت أنا ورفاقى شيوخا مثقلين عندما وصلنا إلى ذلك المضيق الضيق الذى وضع هرقل عنده الحدود لينذر الرجال أن لا يعدوه . وكنت قد خلفت أشبيلية عن يمينى وكانت سبتا قد خلفتني عن اليسار . عندئذ قلت : أيها الإخوان الذين وصلوا إلى المغرب خلال آلاف المخاطر ! اتبعوا الشمس ولا تحجموا عن النفاذ ، بما بقى لكم من حواس ، إلى ذلك العالم الذى لا يسكنه أحد والذى تولى الشمس عنا لتضيئه . أذكروا من أنتم ، أذكروا أنكم لم تولدوا لتعيشوا كالذباب بل لتبحثوا عن الفضيلة والمعرفة . بهذه الأقوال الموجزة أثرت رفاقي ليستمروا فى طريقهم حتى لقد وجدت بعد ذلك مشقة فى أن أثنىهم . أدركنا مؤخر السفينة نحو الشرق واتخذنا من المجاديف أجنحة نظير بها فى جنون متجهين باستمرار نحو اليسار ، ووصلنا إلى حيث أصبحت أرى فى الليل نجوم القطب الآخر كلها . وأما قطبنا فكان من المهبوط بحيث لا يرتفع فوق أمواج البحر . وأشعل القمر قبسه خمس مرات وأطفأه خمس مرات منذ دخلنا إلى جوف البحر ، وإذا بجبل يظهر معتما لبعثنا عنه ، وإن لاح لى أعلى من كل ما رأيت من جبال ، وفرحنا ، ولكن فرحنا لم يلبث أن انقلب دموعاً ، إذ أتننا « دوامة » من الأرض الجديدة صدمت مقدم السفينة ودارت بها مع الموج ثلاث دورات وفى الرابعة رفعت مؤخرها إلى أعلا وغرست مقدمها إلى أسفل ، وظللنا هكذا إلى أن ابتلعنا البحر .

هذا هو المصير الذى تصوره دانتي لأوليس ، ودانتي من رجال البعث الذين لم يكونوا يعدلون بالمعرفة شيئاً . فلا غرابة إذن فى أن نراه ينتهى بأوليس إلى هذا الموت المجيد ، وقد هفت نفسه إلى استطلاع ما خلف مغرب الشمس من عوالم ، وعجزت كل روابطه بذويه عن أن تثنيه عن السير للبحث عن تلك المعرفة .

وأما الشاعر الفرنسى الرقيق دى بللى Du Bellay أحد كبار شعراء فرنسا فى القرن السادس عشر فلم ير فى أوليس إلا رمزاً لمن يسعده الحظ فيقوم برحلة جميلة يفيد منها تجارب وحكمة ثم يعود إلى أهله فرحاً راضياً . أوليس عنده حنين إلى الوطن . ولقد كان شاعرنا ملحقاً بالسلك السياسى بروما ، وهو من مقاطعة « أنجو » الجميلة بفرنسا ، ولهذه المقاطعة شهرة واسعة لا نعرف لها سبباً خاصاً اللهم إلا أن تكون أشعار دى بللى هى التى خلقت حولها ذلك الجو الشعري الجميل . قال الشاعر وقد برحت به الغربة :

« سعيد من يقوم برحلة جميلة كأوليس ، أو كذلك الذى استولى على الجزة الذهبية (يقصد جازون) ، ثم يعود ليعيش بين أهله ببقية حياته وقد امتلأ خبرة وحكمة .

واأسفاه ! متى سأعود إلى رؤية مدفأة قريتنا الصغيرة ترسل دخانها . فى أى فصل سأعود إلى رؤية حديقة منزلنا المسكين الذى يعدل عندى مقاطعة بأكلها بل أكثر من ذلك المأوى الذى بناه أجدادى أحلى عندى من قصور الرومان الجسورة الجباه . أردواز سقوفنا المرهف أحلى من الرخام الصلب .

« لوارنا » — نهر الغال — أحلى من « التير » اللاتينى . « أليريه » الصغير أجمل من جبل « البلتان » وعذوبة « أنجو » أرق من هواء البحر .

وفى إنجلترا فى القرن التاسع عشر مَثَل أوليس عند الشاعر الذائع الصيت الفريد تينسون روح المغامرة وراء البحار . وتلك صفة يشارك فيها الإنجليز الشعب اليونانى القديم . بأى نغمات يتحدث عن هذا البطل الذى لم يعد يطيق البقاء قابعا بعقرداره وقد ملها بعد العودة إليها . قال الشاعر فى قصيدته الرائعة « أوليس » :

« فيم البقاء بتلك الديار الهامدة بين عارى الصخور الى جوار زوج عجوز . ملك عاطل يقيم عدلا موتوراً بين قوم جفاة لا هم لهم إلا حيازة المال وملء البطون والغط فى النوم . إنى غريب عنهم ولا بد لى من الرحيل .

لكم أمعنت فى المسرات وأمعنت فى الأحزان . أنفرد بها حيناً وأشرك من أحببت حيناً وقد استوى فى ذلك أرض ويم ما أرسيت إلى شاطئ أو أثرت زبدًا تغطى به عرائس اليم الباكية ظلمة البحار .

لقد أصبحت إسمًا يذكر ، وجبت الآفاق بقلب منهم ، فرأيت الكثير وفهمت الكثير : مدناً أهلة وعادات وأجواء ومجالس وحكومات . رأيت نفسى وفهمت نفسى غير متخلفة وقد انعقد لها احترام الجميع .

لكم جرعت من نشوة المعارك إلى جوار أندادى بسهولة طروادة ، حيث تقصف الرياح وتترد الأصداء ، وقد خلفت بعضاً من نفسى بكل ما لقيت . لكنها الحياة ، قباب ممتدة نلح خلالها بقاعاً فسيحة لم نجبها ، وآفاقها أبداً مترامية كلما حاولنا منها دنواً . ما أقبح أن نقف . ما أقبح أن ننتهى ، والسيف يصدئه الغمد ويجلوه الطعن ، وما الحياة بأنفاس زردها . ما أقل أن تجتمع حياة إلى حياة ، فكيف بى وما لى غير واحدة نفدت فلم يبق لى منها إلا القليل ، ولكنى استنقذها من الصمت الأبدى ساعة فساعة فأثرى وأفيد جديداً . ما أقبح

أن تحتبس النفس أعواماً وقد هرمت تلهبها الرغبة في التماس المعرفة كما يلتمس نجم يهوى خلف ما تمتد إليه عقول البشر . ها هو ولدى تليماك . سأترك له جزيرتي ووصولجاني وقد حبوته محبتي ، وعهدى به بصيراً بالحكم ، قادراً على أن يروض بحكمته جماع هذا الشعب العنيف ، وأن يحمله بلا رفق على الفطنة إلى ما فيه الخير والنفع . وما به من عيب . وأنه لاخذ نفسه بالتزام واجبه ، وأنه لأعف من أن يعق فروض المحبة أو أن يتراخى في تبجيل آلهتنا عندما تشتط بنا النوى . ليكن له هذا ، وليكن لى ما خلقت له .

ها هو المرفأ . ها هي السفن تنشر الرياح قلاعها . ها هي البحار الشاسعة المظلمة يعم ضياؤها ، وأنتم رفاق اليم ! كم جهدتم وكم فكرتم إلى جوارى والابتسامة لاتغادر شفاهكم ، ثارت عاصفة أو أشرقت شمس ، تلقونها جميعاً بقلب طليق . لقد تقدمت بى وبكم السنون ، ولكن للكبر مجده وجده إلى أن يختم الموت الحياة . وما تزال لدينا جلائل من الأمور تليق برجال مثلنا نازلوا الآلهة .

ها هي الأضواء تنبعث من أعلى الصخور ، وها هو النهار ينصرم وقد أخذ القمر يسمو بالأفق وأعماق البحار تنمتعدة الأنغام . هيا أيها الرفاق ، فما يزال لدينا متسع للبحث عن عوالم جديدة . ادفعوا السفن . استقروا بأمكنتكم والطموا المسابح الصاخبة . ولتكن غايتنا إلى ما خلف مهد الشمس ومسارب نجوم الغرب ، حتى يقضى الله فينا قضاءه ، فإما ابتلعتنا مهاوى اليم ، وإما أرسينا بجزر الخيرات ، حيث نرى بطلنا أخيل كما عهدناه . لئن كان قد فنى منا الكثير فقد بقى الكثير ، وما زلنا كما كنا ، وإن لم نعد فى تلك القوة التى اهترت لها الأرض والسماء . ما زالت قلوبنا عامرة بالبطولة الصادقة المعدن . نعم لقد أضعفنا الزمن وإرادة القضاء ، ولكننا لا نزال أقوياء لنكدح ونجد ونجد ونأبى الخضوع .

وهذا هو أوليس المكافح الصاب العود . يغامر رغم شيخوخته وكله ثقة وتحرق إلى المجهول ، فإما النصر والسيطرة على الوجود ، وإما الفناء وسط الجهاد . وتلك صفات نجدها عن الإنجليز الذين استطاعوا أن يثبتوا لصدمات الدهر .

وكرت السنون وإذا بنا ترى أوليس آخر فى القرن العشرين . هو أوليس الكاتب الإنجليزى المعاصر جيمس جويس James Joyce الذى أنفق جانباً كبيراً من حياته بباريس ، تلك المدينة الصاخبة المتعددة مظاهر النشاط الإنسانى ، ساميه وحقيقه . ولقد نفذ جويس إلى كل ما يجرى فيها من مجد وإسفاف ، وود لو سجل خلاصة تجاربه العديدة فلم يجد غير أوليس رمزاً لتلك الحياة الحافلة ، فكتب ما يقرب من ثمانمائة صفحة يقص فيها مغامرات

بطله الذى لم يترك شيئاً إلا فعله ولا وسطاً إلا تغلغل فيه ، فهو رمز المعرفة الشاملة . تلك التى لا تعدل بالتجربة شيئاً ولا تردها عنها مبادئ خلق أو مواضع اجتماعية . إن فى أوليس جويس ما لا يجزئ المرء أن يعترف به حتى بينه وبين نفسه ، وتلك بلا ريب مقدرة قد تحمد للكتاب ، ولكننا فى الحق لا نكاد نطمئن إلى نفع نراه فيها أو ضرورة ملجئة إليها ، فهى لا تزيدنا معرفة إلا بالجانب المظلم من نواحى الإنسان ونحن فى حاجة إلى ضياء .

وفى الحق إننا لا ندرى كيف تطور أوليس حتى انتهى إلى جويس ، وإن يكن فى عشرات القرون التى عبرها ما قد يعيننا على الفهم وبخاصة إذا ذكرنا ذلك التطور الواضح الذى تطورت به الأخلاق فى القرن العشرين .

والذى لا شك فيه هو أن أوليس اليونان لم يعد كما قلنا أنموذجاً بشرياً بل مجموعة من الرموز يأخذ منها الشعراء والكتاب ، كل ما يحلو له للعبارة عما فى نفسه من إحساس أو فى عقله من فكر ، ونحن مع ذلك ننظر فى كل ما خلق المحدثون فى هذا فلا نجد أن أحداً منهم قد أضاف إلى البطل قسمة جديدة ، وإنما هى سمات من الصورة التى رسمها له الإغريق القدماء وبخاصة هوميروس فجاءت كاملة منذ أن خلقت .

لقد رأينا أوليس فى الإلياذة يمثل الشجاعة والحكمة ، ورأيناه فى الأودسا وقد أخذت الحكمة تسيطر فى نفسه شيئاً فشيئاً على الشجاعة ، ورأيناه عند سوفوكليس وقد صار خبيثاً وذكاء مدمراً ، وكان هذا نذيراً بفنائه وفناء الشعب الذى يمثله .

ومرت القرون فعاد أوليس إلى الظهور ، وإذا بملاحمه تعود فتضح بفضل أقلام جديدة . أهو البعث ؟ أهو خلق جديد ؟ ذلك ما لا يعنيننا الآن ؛ وإنما أردنا أن ندل بمثل ناطق على ما فى تراث اليونان من خصب وقدرة على الإيحاء . قدرة لا يمكن أن تنفد ، لأنها من قدرة الحياة التى أمسكت بها عبقريتهم فسجنوها فى صور ونماذج لن تقضى . وفى هذا ما يفسر حرص الدول الأوروبية على الثقافات اليونانية واللاتينية واعتبارها الوسائل الأولى فى تربية الشباب وذلك على الرغم من أن معظم المؤلفات التى كتبت بهاتين اللغتين قد ترجمت إلى جميع اللغات الحية أكثر من مرة . ودراسة تلك اللغات فى ذاتها رياضة عقلية لا مثيل لها ، كما أن الكتب التى ألقت فيها يرجع جانب كبير من قيمتها إلى جمال صياغتها ، ومن الثابت أن أية ترجمة لا يمكن أن تحتفظ بهذا الجمال .

العبيط

(١)

مع مارى والأطفال

لقد قص ديستويشسكى الكاتب الروسى الشهير أحداثاً كثيرة وقعت لأمر روسى هو موتشكين Muichkine الذى وصفه الكاتب لأمر سنراه فيما بعد بالعبط ، وأودع تلك الأحداث رواية تقع فيما يقرب من ألف صفحة بعنوان « العبيط »^(١) .

ونحن لا نزيد اليوم أن ننزلق إلى مناقشات فلسفية حول العبط ، فمن الناس من يدعى الحكمة ، وما أكثر الدعاوى ، فىرى فى تصرفات هذا الرجل لا عبطاً فحسب ، بل واختلالاً فى الإدراك ؛ ومنهم من لم يزل يسلط عقله على عقله يتبين حدوده ويناقش مقدرته على الجزم عن يقين حتى أصبح يرى فى ضوءه ذاته شيئاً من الاضطراب يكاد يحيله ضوءاً كاذباً ، إن لم يكن ظلمة ، ولهذا يحذر أن يصف غيره بالعبط ، فلربما كان هو العبيط .

الأمير موتشكين فى السابعة والعشرين من عمره الآن ، فهو إذن رجل بحكم سنه ، ولكنه مع ذلك يستريح إلى معاشرة الأطفال ، ويضيق بالأشخاص الكبار ، لأنه إذا وجده معهم لا يدرى ماذا يقول لهم . وهذا أمر غريب يدعوننا إلى أن نرى فى الرجل شذوذاً ؛ ونبحث فى نشأته محاولين الكشف عن ذلك الشذوذ فلا نهتدى إلى شيء كثير ؛ فالرجل قد مات أبوه وهو فى سن مبكرة ، فتعهد صديق خبير من أصدقاء والده . وكل ما لاح عليه من أمارات غير عادية لا يعدو مرض التشنج العصبى . ونحن لا نستطيع أن نقرر أن هذا المرض يؤدى إلى العبط ، فقد كان ديستويشسكى نفسه مريضاً به ، ولقد مرض به أيضاً فلوير الكاتب الفرنسى الكبير ، كما مرض به غيرها ممن لا يجرؤ أحد من عقلائنا أن يصفهم بالعبط .

وفى الحق أننا لا نرى داعياً للبحث عن تعليل حكم لم نثق بعد من صحته ، فوتشكين لم يكن عبيطاً ، بل ربما كان فى وصفه بهذه الصفة أكبر سخرية استطاعها ديستويشسكى من عقلية البشر . يخيل إلينا أن هذا الكاتب العبقرى لم يكن يظن العبط بأميره ، بل بنا نحن .

وها هي قصة هذا العبيط مع ماري والأطفال توضح سوء ظن المؤلف بالملايين الذين قرأوا روايته . ستقرأوها فلا تملك إلا أن تدهش لمقدرة هذا العبيط على فهم جوانب الضعف في النفس البشرية ، وإذا بك تشور على ما في طبائع الناس من شر أصيل ، وقد أخذت بنبل الرجل ونفاذ حسه .

من المعلوم أنه عند ما اشتد بموتشكين المرض أرسله القائم على تربيته إلى طبيب بسويسرا ليعالجه بمصيحته ، ولقد وجد المريض في جو سويسرا مساعداً على الشفاء ، فأقام هناك أربع سنوات ، دفع مربيته في السنتين الأوليين أجر علاجه وإقامته ؛ ثم مات هذا المحسن الكبير فلم يبق للأمير معيل ، ومع ذلك فقد أمسكه الطبيب الكريم سنتين أخريين ، ولكن العبيط ضاق بالإقامة وقد انقطع عنه كل مدد من روسيا ، فقرر العودة إلى بترسبورج ليلتمس له عملاً يعيش به . وتذكر عبيطنا أن أسرته العريقة قد بقيت منها أميرة هي الآن زوجة لجنرال بالجيش ، فقرر أن ينزل بدارها ليتعرف إليها وإلى زوجها ، ثم ينظر ماذا هو فاعل .

نزل العبيط عند الجنرال إپانتشين Epantchine ، واستطاع أن يحمل مضيفه على أن يقدمه إلى الأميرة . وغادر الجنرال المنزل لأمر يشغله ، فلم يتناول وجبة الغذاء مع أسرته ، وظل الضيف مع الأميرة وبناتها الثلاث ، وتناولوا الغذاء سوياً ، ثم جلسوا للحديث ؛ وأبى حب الاستطلاع الأصيل في النساء إلا أن يسوق الضيف إلى قصص حياته في الخارج ، وأربعتهن يحسبن به العبط ، إذ كان الجنرال قد بصّرهن بهذه الحقيقة قبل أن يغادر المنزل ، وإن يكن حديث الضيف لم يلبث أن زرع عند بعضهن هذا اليقين ، وقد كان من بينهن من تتمتع بملكة الحكم الشخصي .

قصة العبيط مع ماري والأطفال كانت من بين ماقص بطلنا في ذلك اليوم ، فقد وقعت له أحداثها بالقرية السويسرية حيث كانت المصحة التي أقام بها .

قال : « في أول الأمر لم يكن الأطفال يحبونني . لقد رأوني كبيراً وقد كنت دائماً قليل (الضحكة) ، ثم إنني أعلم أنني دميم ، وأخيراً باعد بيني وبينهم أنني كنت أجنبيّاً في قريتهم . لقد كانوا في البدء يتضحكون مني ، بل أخذوا يرمونني بالحجارة عندما فاجأوني أقبل ماري ، إنني لم أقبلها غير مرة واحدة ... لا ، لا تضحكن ، فإن الحب لم يكن له دخل في الموضوع . ولو أنكن رأيتم هذه المخلوقة البائسة بأنفسكن لأخذتكن بها الشفقة كما أخذتني . كانت فتاة من القرية تسكن مع أمها كوخاً صغيراً تضيئه نافذتان ، وكانت الأم العجوز تباع أربطة الأحذية والخيط والتبغ والصابون ، وياذن من السلطات كانت تعرض بضاعتها على لوح من

الخشب مثبت أمام إحدى النافذتين . وكانت هذه التجارة تأتيها بقليل من النقود الصغيرة تعيش بها ؛ وكانت مريضة متورمة الأرجل ، مما اضطرها إلى أن تظل جالسة ؛ وكانت ماري في العشرين من عمرها ، نحيفة ضعيفة البنية ، وإن لم يكن مرض السل قد ظهر عندها ، إلا أنها بالرغم من ذلك كانت تعمل باليومية في المنازل ، حيث تقوم بالأعمال الخشنة : فتمسح البلاط ، وتغسل الملابس ، وتكنس الأحواش ، وتقدم للحيوانات علفها .. وفي أحد الأيام أغواها قومسينجي فرنسي وأخذها معه ، ولكنه بعد أسبوع واحد غرسها حيث انتهى به المسير ثم ولى ؛ فوجدت نفسها وحيدة بعرض الطريق ، فعادت إلى قريبها وهي تستجدي طول رحلتها ، ووصلت قدرة مهلهلة الأسماك ، ممزقة الحذاء تمزيقاً تاماً . لقد سارت ثمانية أيام : تنام في العراء ، وتقاسي لذعة البرد ؛ لقد دميت قدميها ، وتغطت يداها بالقشف والشقوق . وهي حتى قبل ذلك لم تكن جميلة ، لم يكن لها غير عينيْن وديعتين تملؤها الطيبة والبراءة . لقد كان صمتها خارقاً ، فقد اتفق مرة — قبل أن تحدث لها تلك الحادثة — أن أخذت تغني فجأة ، وهي تعمل ، فأحدث هذا الغناء فيا أذكر دهشة عامة ، « لقد غنت ماري ... آه ... ماري تغني ! » ، هكذا قال الناس وهم يضحكون ، وخجلت ماري منذ ذلك الحين ، فانطوت في صمت عنيد . وكانوا يعاملونها عندئذ بشيء من العطف ، ولكنها عندما مرضت وأخذت أطرافها تدمي لم يظهر لها أحد أقل شفقة . ما أغلظ الناس في مثل هذه الحالة ! بأي قسوة يحكمون على هذه الأشياء ؟ ! وكان أولهم في ذلك الأم العجوز ، فقد تلقت بنتها في غضب واحتقار . « الآن قد لوئت شرفي » ، هذا ما قالت ؛ ثم كانت أسبق الجميع في تعريض ابنتها لسباب الجمهور . وعند ما علموا في القرية بعودة ماري أسرعوا جميعاً شيوخاً وأطفالاً ونساء وفتيات ليروها . لقد غزا السكان جميعاً كوخ العجوز ، وهناك كانت ترقد ماري على الأرض عند قدمي أمها باكية وهي تموت جوعاً ولا تغطيها غير الأسماك ، وبينما يتقاطر الزائرون كانت تحاول أن تختفي عن أبصارهم بأن تتخذ من شعرها المنتشر نقاباً يغطي وجهها ، ثم تطأطئ رأسها إلى الأرض . لقد التف الجمهور حولها في دائرة وأخذوا ينظرون إليها كحشرة ؛ فالشيوخ يعنفونها تعنيفاً لا هوادة فيه ، والشبان يكشرون لها عن أنيابهم ، والنساء يكلن لها السباب ، وقد أظهرن من الاشتزاز مثل ما يظهرن عندما يرين عنكبوتاً ، والأم جالسة في حجرتها تشجعهم بالصوت والإشارة ، بدلا من أن ترد عن ابنتها شيئاً من عدوانهم . ولقد كانت في ذلك الحين شديدة المرض ، في حالة احتضار تقريباً . وفي الواقع لقد ماتت بعد ذلك بشهرين ، ومع ذلك فإنها رغم إحساسها

بقرب أجلها قد رفضت إلى آخر لحظة أن تتصافى مع ابنتها . إنها لم تخاطبها قط بكلمة واحدة ، وكانت ترسلها إلى الدهليز لتنام به ، بل تركتها بغير غذاء تقريباً ؛ ولقد كانت مضطرة إلى أن تضع صريراً قدميها المريضتين في الماء الساخن ، فكانت ماري تغسلهما لها ، وتقدم إليهما كل أنواع الرعاية ، فتقبلها العجوز دون أن تقابلها بأية عبارة رقيقة . ولقد كانت الفتاة تتحمل كل ذلك في استسلام .

وعند ما عرفت إليها فيما بعد ، لاحظت أنها نفسها كانت تبرر كل ما ينزل بها من إهانات إذ كانت تعتبر نفسها أخطأ كائنات الأرض . ولم تعد العجوز تتناول غير اللبن ، فأخذت نساء القرية يفدن إليها ليتناولن رعايتها وفقاً للعادات المرحية بالريف . وعندئذ أمسكوا إطلاقاً عن إطعام ماري ، فكان كل الريفيين ينحونها عن مداخل منازلهم ، بل إن أحداً منهم لم يقبل أن يعهد إليها بعمل ما كما كانوا يفعلون من قبل . لقد كان كل واحد منهم يلقاها ببصقة تقريباً ، فالرجال لم يعودوا ينظرون إليها كامرأة ، وكانوا يوجهون إليها أقذع الألفاظ ، وأحياناً ، وفي النادر الذي لا يذكر ، كانوا إذا أخذهم الخُمار يوم الأحد يرمون إليها بقليل من النقود سخريّة منها ، وكانت ماري تجمعها في صمت . ثم أخذت منذ ذلك الحين تبصق الدم ، وانتهت أسماؤها بأن أصبحت من القذارة بحيث لم تعد تجرؤ أن تظهر بالقرية . ومنذ عودتها كانت تسير عارية القدمين ، وكان أطفال المدرسة ، وهم أكثر من أربعين ، يحلوا لهم بنوع خاص أن يؤذوها ويرموها بالطين . وطلبت إلى أحد الفلاحين أن يسمح لها بحراسة البقر ولكنه رفض ، فألحقت هي نفسها بهذا العمل ، فكانت تصحب المواشي عند خروجها من الحظيرة ولا تتركها طول النهار . ورأى الفلاح أنها تؤدي إليه خدمات عديدة فلم يطردها ، بل كان يعطيها أحياناً بعضاً من فضلات غذائه : قليلاً من الخبز والخبز . ولقد رأى في عمله هذا طيبة كبيرة منه . وعند ما ماتت الأم لم يخجل القسيس أن يلعن ماري على مسمع من الجميع في وسط الكنيسة ، وأما هي فقد كانت بأسماها القذرة راكعة إلى جوار التابوت وهي تبكي ، وكان حب الاستطلاع قد آتى بكثير من الناس إلى الجنازة ؛ كانوا يريدون أن يروا كيف تبكي الفتاة ، وكيف تسير خلف التابوت . وكان القسيس — الذي لا يزال شاباً — لا يطمح إلا إلى أن يكون واعظاً كبيراً ، فأتجه إلى الجمهور ، وأشار إلى ماري ثم قال : « ها هي تلك التي سببت موت هذه السيدة الجليلة » ، (هذا غير صحيح ، فقد كانت العجوز مريضة منذ سنتين) ، « ها هي أمامكم وهي لا تجسر أن ترفع عينها ، لأنها قد سميت بأصبع الله ... ها هي عارية القدمين مغطاة بالأسمال ؛ مثلاً يتعظ به كل أولئك اللأئي قد يغريهن سوء

السلوك . . . ومن هي ؟ . . . إنها ابنتها . . . الخ » .

ولنتصور أن هذا الجبن قد سر جميع الحاضرين ؛ ولكن . . . حدث عندئذ حدث .
فقد أخذ الأطفال جانب البائسة ؛ وذلك لأنهم كانوا قد انضموا إلىَّ وابتدأوا يحبون مارى ،
وها هو تفصيل ما حدث :

لقد أردت أن أسدى إلى الفتاة بعض العون ؛ فقد كانت فى حاجة إلى النقود ، ولكننى
طول إقامتى بسويسرا لم أكن أملك درهماً واحداً تحت تصرفى . وكان عندى دُبوس من
الماس فبعته لأحد التجار الذين يذهبون من قرية إلى أخرى للتجار فى الملابس القديمة ؛ ولقد
أعطانى ثمنًا له ثمانية فرنكات ، مع أنه كان يساوى أربعين بلا ريب . ولزمن طويل لم أستطع
أن أصل إلى حديث خاص مع مارى . وفى النهاية تقابلنا خارج القرية فى إحدى طرق الجبل
خلف شجرة ، وهناك أعطيتها الثمانية فرنكات ، وأوصيتها أن تحرص عليها ، لأننى لن
أستطيع فى المستقبل أن أمدّها بعون آخر . ثم قبّلتها قائلاً : لا تظنى بى أى قصد سيىء ،
فإذا كنتُ قد قبّلتك فليس ذلك لأنى مغرم بك ، ولكن لأنك توحين إلىَّ بشفقة عميقة ؛
وفى الواقع لقد رأيت فيك دائماً ومنذ البدء فتاة بائسة لا فتاة مجرمة .

لقد أردت فى حرارة أن أعزّيها وأن أقنعها بأنها كانت على خطأ فى أن تعتبر نفسها دون
الآخرين ، ولكننى لم ألبث أن أدركت أنها لا تفهم قولى ، أدركت هذا من موقفها ، وذلك
لأنها لم تفه بكلمة واحدة تقريباً ، بل ظلت طول الوقت واقفة أمامى مسدلة جفونها كشخص
يثقله الخزي . وعند ما انتهيت قبّلت يدي ، فأمسكت توتاً بيدها ، وأزدتُ أن أقبّلها ،
ولكنها سحبتها للحظتها . وفجأة لاحظنا الأطفال وقد اجتمعت هناك جماعتهم ، ولقد عرفت
فيا بعد أنهم كانوا يرصدون حركاتى منذ حين ، وأخذوا يضحكون ويصفرون ويضربون
أيديهم يداً على يد . فأسرعت مارى إلى الهرب ؛ وفى نفس اليوم علمت القرية كلها بالخبر ،
فازداد سوء الظن بمارى ، وتكالب الاعتداء ، بل لقد سمعت أنهم قد فكروا فى عقابها ،
ولكن بفضل من الله لم يحدث من ذلك شيء ؛ ومع هذا فإن الأطفال لم يتركوا لفريستهم
راحة ، بل ضاعفوا من عداوتهم لها ، وأخذوا يطاردونها ويقذفونها بالطين . وكانت المسكينة
عند ما تحس بهم فى أعقابها تجرى ، وهى المسلوطة ، حتى تنقطع أنفاسها ، لى تفلت من
أذاهم ، وهم يعدّون من خلفها صائحين بالشتائم . ولقد حدث ذات يوم أن كدت أشتبك
معهم . وفيما بعد أخذت أردمهم إلى العقل ، فكنت أتحدث إليهم كل يوم كلما استطعت ذلك .
ولقد كانوا يقفون أحياناً ويستمعون إلىَّ ، ولكنهم استمروا رغم ذلك فى إيذائهم لمارى .

وشرحت لهم كيف أنها بائسة ، فأنتهوا بأن أمسكوا عن شتمها ، وأخذوا يمرون بها دون أن يقولوا لها شيئاً . وبالتدريج أخذت أحداث معهم أحاديث طوالاً ، ولم أكنم عنهم شيئاً ، بل قصصت عليهم كل شيء . وكانوا ينصتون إلى باهتمام ، ولم يلبثوا أن أخذتهم الشفقة على الفتاة ، فأصبح الكثيرون منهم يحيونها تحية عابرة إذا مروا بها .

يخيل إلى أن ماري قد دهشت لهذا التغيير في معاملتهم لها . ولقد حدث مرة أن بنتين صغيرتين حملتا إليها شيئاً من طعامهما ، ثم حضرتا ليخبراني بما فعلتا ؛ قالتا : إن ماري قد بكت ، وإنهما قد أصبحتا الآن يحبانها كثيراً . ولم يلبث جميع الأطفال أن أحبوها ، كما شعروا نحوي أيضاً بحجة فجائية ، فكانوا كثيراً ما يأتون إلى ويطلبون دائماً أن أقص عليهم شيئاً ، ولا بد أنني كنت أجيد القصص لأنهم كانوا يحرصون على حكاياتي . ولقد أخذت نفسي بعد ذلك بالقراءة والدرس لا لشيء غير أن أحمل إليهم ما أجد في الكتب . ولقد استمرت على هذه الحال طوال الثلاث سنوات التالية . وعند ما أخذ الطبيب وغيره من الناس يلومونني لأنني أتحدث إلى الأطفال كأنهم رجال ناضجون ، ولا أكنم عنهم شيئاً ، أجت بأنه من العار أن نكذبهم ، وأضفت أنهم مهما اتخذوا من احتياطات لن يمنعوا الأطفال من أن يعرفوا دائماً ما يريدون هم أن يظلوا جاهلين به ؛ بل إنهم سيعرفونه على نحو يدنس خيالهم ، بينما هم لن يتعرضوا معي لهذا الخطر ، وما على كل منا إلا أن يعود إلى ذكريات طفولته ليتحقق من صحة ما أقول . ولكن هذا الرأي لم يقنع أحداً . . .

لقد كانت قبلي لماري قبل وفاة أمها بخمسة عشر يوماً ، وعند ما ألقى القسيس موعظته كان جميع الأطفال في جانبي ، فأخبرتهم بالهجوم المخزي الذي سمح القسيس لنفسه به ، ووصفت هذا الهجوم بما يستحق من ألفاظ ، فثاروا جميعاً ، وبلغ الغضب بالكثيرين منهم أن حطموا بالحجارة نوافذ القسيس ، ولقد أفهمتهم أنهم مخطئون في تصرفهم هذا ؛ ومع ذلك فقد ذاع في القرية أنني كنت المحرض لهم على هذا العمل . ومنذ ذلك اليوم اتهمني الجميع بإفساد أخلاق تلاميذ المدارس . واكتشف الجميع بعد ذلك أن هؤلاء الأطفال يحبون ماري ، فسبب هذا الاكتشاف قلقاً بالغاً ، ولكن الفتاة كانت سعيدة . وحاول الآباء عبثاً أن يحظروا على أطفالهم مخالطتها ؛ ولكنهم كانوا يذهبون سراً للقاءها ، حيث ترعى البقر في مكان بعيد بما يقرب من نصف فرسخ عن القرية . وكانوا يحملون لها الهدايا ، بل إن الكثيرين منهم كانوا يذهبون ليضموها فقط إلى صدورهم ويقبلوها قائلين : ماري ! إني أحبك ! ثم يعودون مسرعين إلى بيوتهم وهم يعدون ملء أرجلهم . ولا شك أن سعادة

كهذه كانت خليفة أن تذهب بصواب ماري ، فهي لم تكن تتصور هذا حتى في الأحلام . ولقد أحست بمزيج من الفرح والاضطراب . وكان الأطفال وبخاصة البنات يحرسون على الذهاب إليها ليخبروها أني أحبها ، وأنني أتحدث عنها كثيراً . وقالوا لها : لقد قص علينا قصتك ، والآن نحن نحبك ونرثي لك ، وسنستمر كذلك دائماً . ثم يسرعون إلى بأوجههم الصغيرة المرحية ليخبروني في اهتمام شديد أنهم قد رأوا ماري ، وأنها ترسل إلى تحياتها .

وفي المساء كنت أذهب إلى الشلال ، وهناك كان يوجد مكان مغلق عن القرية إغلاقاً تاماً ، وشجر السرو يحيطه من جميع النواحي . في ذلك المكان كنت أستقبل الأطفال في المساء ، بل إن الكثيرين منهم كان يأتي سراً ؛ وأنا أعتقد أنهم قد وجدوا سروراً كبيراً في حبي لماري ، وهذه هي المسألة الوحيدة التي كذبتهم فيها طول إقامتي بينهم . لقد تركتهم يعتقدون أنني مغرم بماري ، وإن كنت لم أشعر نحوها بغير الشفقة ، ولكنني عندما رأيت أنهم ينسبون إلي إحساساً آخر ، وأن هذه الفكرة تسرهم ، حرصت على ألا أكذب ظنهم ، وتظاهرت بأنهم قد كشفوا دخيلة نفسي . أي طيبة لطيفة في هذه القلوب الصغيرة ! ولأكتف في ذلك بمثل واحد : فقد عثر عليهم أن يروا صديقهم ليون يحب ماري ، وماري رثة الثياب ، بل ويعوزها الحذاء ؛ تصوّر أنهم حصلوا لها على حذاء وجورب وملابس داخلية ، بل وبعض الثياب . كيف ؟ وبأي حيل عبقرية نجحوا في الحصول على كل هذا ؟ ذلك ما لا أفهمه ! ولكن المدرسة كلها قد اشتركت في هذا العمل . وعند ما سألتهم عن الموضوع كان الجواب الوحيد ضحكة مرحة ؛ وقد أخذت البنات الصغيرات يضربن أيديهن يداً فوق يد ويقبلنني . وأحياناً كنت أذهب لرؤية ماري خفية .

ثم اشتد بها المرض ، فأصبحت تقريباً عاجزة عن المشي ؛ وأخيراً انقطعت عن العمل بالمزرعة انقطاعاً تاماً ، ولكنها استمرت تقود المواشي إلى الحقل كل صباح . هنالك كانت تستند إلى صخرة عموية على الأرض ، وتظل كذلك بلا حراك حتى يحين موعد العودة بالبقرة إلى الحظيرة . وأنهاكها السل ، وانقبضت أنفاسها ؛ فكانت تظل يومها كله في حالة تشبه النوم ، مغلقة العينين ، مسندة رأسها إلى الصخرة ، وكان وجهها شاحباً كالجمجمة الميتة ، والعرق يبلل جبينها وعارضها . كنت أجدها دائماً في هذه الحالة ، ولم أكن آتي إلا لبرهة قصيرة ، لأنني أيضاً لم أكن أريد أن أرى . وبمجرد ظهوري كانت ماري تنتفض فتفتح عينيها وتسرع إلى تقبيل يدي ، وكنت أتركها تفعل ذلك لأنها كانت تجد فيها سعادتها . وطول مدة زيارتي كانت ترتعد وتسكب الدموع ، وأحياناً كانت تتكلم ، ولكن حديثها

كان في الحقيقة من الصعب فهمه . لقد كانت تشبه المجنونة بشدة انفعالها ولهفتها ؛ وأحياناً كان الأطفال يقبلون معي ، وفي مثل هذه الحالة كانوا يقفون على مسافة منا ، ليلاحظوا الطريق ، حتى لا يفاجئني أحد وأنا أتحدث مع ماري ، وكان « دور الحراس » هذا يسرهم كثيراً . وبعد عودتنا كانت ماري تعود إلى وحدتها ، فتظل من جديد بلا حراك ، مغمضة عينيها ، مسندة رأسها إلى الصخرة ، ربما كانت تحلم بشيء .

وفي ذات صباح لم تستطع الخروج كالعادة لتقود القطيع إلى المرعى ، وبقيت في منزلها الصغير الخالي ، ولم يلبث الأطفال أن علموا بذلك ، فأتوا كلهم تقريباً لزيارتها عدة مرات في ذلك اليوم وهي طريحة الفراش لا يقوم بخدمتها أحد . ولدة يومين كان الأطفال وخدمهم الذين يقومون بأمرها ، وقد أخذوا يتناوبون مهمة تريضها ؛ ولكنه عندما علم أهل القرية بعد ذلك أن ماري تحتضر أتت الفلاحات العجائز كل واحدة بدورها للقيام بجوارها ، وقد لاح في القرية أنهم أخذوا يشفقون على الفتاة ، فهم على الأقل قد ابتدأوا يتركون للأطفال حريتهم في أن يدنوا منها ، ولم يعودوا ينهرونهم عن ذلك كما كانوا يفعلون من قبل . وكانت المريضة دائماً في حالة حشرجة ، فنومها مضطرب ، وسعالها مخيف ؛ وكانت النساء العجائز بمنعن الأطفال من الدخول إلى الغرفة ، ولكنهم كانوا يسرعون إلى النافذة ، وأحياناً لا يبقون هناك إلا لحظة واحدة ليقولوا : صباح الخير ماري العزيزة ! وأما هي فبمجرد رؤيتها لهم أو سماعها لصوتهم كانت تنتعش ، وللمحظتها كانت تصم أذنيها عن ملاحظات ممرضاتها ، فترفع نفسها في مشقة فوق الفراش لترسل برأسها إشارة إلى أصدقائها الصغار ، شكراً لهم . واستمر الأطفال على حمل الهدايا إليها ، ولكنها لم تعد تأكل شيئاً ، وبفضلهم — أوكد لكن — ماتت سعيدة تقريباً ؛ بفضلهم نسيت محنتها وقد تلقت منهم الصفح على نحو ما ، وذلك لأنها حتى النهاية كانت تعتبر نفسها عاصية . لقد كانوا كالطير يضربون كل صباح نافذتها بأجنحتهم ويصيحون : ماري ! إننا نحبك !

لقد ماتت بسرعة ، وكنت أعتقد أنها ستعيش طويلاً ؛ ففي اليوم السابق لموتها ذهبت أراها قبل غروب الشمس ، فلاح لي أنها تعرفني ، ولقد صاغت لها للمرة الأخيرة . كم كانت تلك اليد عارية عن كل لحم ! وفي الصباح المبكر أتوا فجأة ليخبروني أن ماري قد ماتت ؛ وفي هذه المرة خرج الأطفال على كافة الأوامر ، فدخلوا المنزل وغطوا الميتة بالزهور ، ووضعوا على رأسها تاجاً منها ؛ وفي الكنيسة احترم القسيس على الأقل ذكرى تلك التي سبها وهي حية ، ثم إن الحضور لم يكونوا غير قليل ممن أتى بهم حب الاستطلاع . وعند رفع الجسد

أراد جميع الأطفال أن يحملوا التابوت ، ولكنه لما كانت قوتهم لا تكفى لذلك فإن رغبته لم تجب . وساروا جميعاً في الجنازة باكين . ومنذ ذلك الحين وهم ييجلون قبر ماري ، ففي كل عام يزينونه بالأزهار ، كما أنهم زرعوا حوله أشجار الورد .

(٢)

العبيط في الحياة الاجتماعية

رأينا الأمير موتشكين — عبيط ديستوفسكى — يصاحب الأطفال ويفضلهم على الكبار ، ولم نستطع إلا أن نقره على سلوكه . فقد تضافر مع أصدقائه في رحمة فتاة بأئسة . نعم إن الفتاة كانت قد سقطت سقطلة أخلاقية لم يكن بد للهيئة الاجتماعية من أن تثور لها . ونحن ندع جانباً منبع تلك الثورة . هبها غريزة تناهض ما في ملكة التفكير من تدمير حياة الفرد وتقويض حياة الجماعة إذا أطلقنا لتلك الملكة عنان التبرير المضلل . ثم انظر ألم تكفر الفتاة عن إثمها ألم التكفير ؟ ألم تقبل كل ما أنزل بها من تنكيل بنفس صاغرة باخعة ؟ وعندما ينزل القضاء أو ما ترى رحمة الله لا بد مرسله هديها إلى من تختار من أرواح تحمل إلى البائسين نسمة من تلك الرحمة ؟ ومن يديرنا لعل الأطفال والعبطاء هم تلك الأرواح المختارة ؟ نستطيع إذن أن نتردد في الحكم على موتشكين بالعبط لمصادقته الأطفال ومسحه دموع ماري ؛ بل قد نجرو فترى أن الهيئة الاجتماعية التي تصف الأمير بهذه الصفة هي على الأقل العبيطة إن لم تكن الغليظة الحمقاء . وما الهيئة الاجتماعية إلا نحن — العاديون من الناس — الذين نتحكم فيهم المواضع فتجعل منهم أحياناً وحوشاً لا تعي ما تفعل .

وها نحن اليوم نواجه العبيط في الحياة الاجتماعية ، ها نحن نغادر أدب النفس إلى أدب الجماعة . نغادر وحي الضمير إلى عادات المجتمع . ولا تحسبن أننا ننقل بذلك من مجال صارم إلى مجال هين . فنحن في الحق أكثر استعباداً للعرف منا للخلق . وذلك لأمرين هين هو أننا جميعاً — إلا من عصم ربى — أشد حرصاً على حركاتنا الظاهرة منا على حقائق نفوسنا . وإذا تعارض ظاهر لنا بباطن كم ممن ترى حولك يستجيبون لنداء الضمير ؟

عاد الأمير موتشكين من سويسرا حيث كان يستطب من التشنج العصبي إلى بترسبورج ولما كان يعلم أن أسرته العريقة قد انقرضت ولم يبق منها غير سيدة واحدة زوجة لجنرال كبير بالجيش ، فقد رأى أن يذهب إلى تلك السيدة ليتعرف إليها ويستشيرها فيما يفعل وهو الوحيد المنقطع .

« كانت الساعة غير بعيدة من الحادية عشرة صباحاً عند ما دق الأمير الجرس ببنت الجنرال ، وهو في الدور الثاني . مسكن في حدود البساطة التي تسمح بها مكانة صاحبه الاجتماعية . وفتح الباب خادم في بذلة الحشم . وكانت مناقشات طويلة بين الأمير وذلك الرجل الذي نظر إليه هو وحقيبته ملابسه الصغيرة نظرة ملؤها الريبة . وفي النهاية ، وبعد أن أعلن إليه عدة مرات أنه حقيقة الأمير موتشكين وأنه في حاجة ماسة إلى رؤية الجنرال لأمر هام ، أدخله الخادم إلى غرفة صغيرة مجاورة لغرفة الانتظار ثم انسحب تاركاً الضيف بين يدي خادم آخر . رجل في الأربعين من عمره يرتدى بذلة رسمية وعمله إخبار صاحب السعادة بأسماء الزائرين . وكان في ملامحه المهمومة ما يدل على مبلغ شعوره بأهمية وظيفته .

قال للضيف : تفضل . أدخل الصالون برهة ودع حقيبتك هنا . فال هذا وهو يجلس في مقعد ضخم برزانه مصطنعة ونظرتة المدهوشة القاسية تفحص الأمير الذي لم يتخل عن متاعه المتواضع ، وأخذ كرسياً وجلس إلى جواره قائلاً : سأنتظر هنا — إذا سمحت — في صحبتك . ماذا أفعل هنالك وحيداً ؟

— ولكنك ، ما دمت قد أتيت لزيارة ، لا تستطيع أن تبقى في هذه الغرفة . إنك تريد أن تحدث الجنرال نفسه . أليس كذلك ؟ . وفي الواقع إن الخادم لم يكن يخطر بباله أن يُدخل زائراً كهذا على الجنرال ؛ ولذلك كرر سؤاله الأخير . فأجاب الأمير : نعم إن لدى مسألة . . . — أنا لا أسألك عن شيء . فعملي هو أن أعلن قدومك فقط ، ولكنني كما أخبرتك مضطر إلى أن أرى السكرتير أولاً .

لقد أخذ الخادم يزداد ريبة . فالأمير كان شديد الاختلاف عن الزائرين العاديين . والجنرال — لا ريب — لم تكن مقابلته قاصرة على الوجهاء بل كان يأتيه أيضاً أفراد من كافة الطبقات لمصالح مختلفة ، وكان الخادم يعرف ذلك جيداً ولديه أوامر بأن لا يتشدد مع الزائرين ، ومع ذلك فإنه في هذه الحالة بالذات لم يجزؤ أن يتحمل المسؤولية ورأى أن خير حل هو أن يستعين بالسكرتير .

وأخيراً سأل الأمير وكأنه يوجه سؤاله مكروهاً : أحقا أنك . . . أتيت من الخارج ؟ ولقد أعوزته الشجاعة فلم يستطع أن يوجه السؤال الحقيقي ، وهو : أحقا أنك الأمير موتشكين ؟ وأجاب الأمير ؟ نعم ، إنني قادم من المحطة مباشرة . ولقد أردت فيما أعتقد أن تسألني هل أنا حقيقة الأمير موتشكين ، ولكن اللياقة منعتك من توجيه هذا السؤال . « هه ! ... » هكذا تتم الخادم مدهوشاً .

— أوكد لك أننى لا أكذبك ، وأنتك لن تتحمل بسببى أية مسئولية . وإذا كنت ترانى فى هذا الزى حاملا هذه الحقيقة الصغيرة فليس فى ذلك ما يدعو إلى الدهشة . فخالق الآن ليست على ما يرام .

— هه ؟ . . . فى الحقيقة ليس هذا ما يخيفنى . إننى هنا لكى أعلن الزائرين . وبعد هنية سيخرج السكرتير . وإذا كنت . . . هل لى أن أعرف أنك لم تأت إلى الجنرال كرجل محتاج لتطلب مساعدة .

— آه ! لا . من هذه الناحية كن مطمئناً كل الاطمئنان . إننى لم آت من أجل هذا . — معذرة . لقد خطرت لى هذه الفكرة وأنا أتأمل ملابسك . انتظر السكرتير . فالجنرال مشغول الآن مع أحد الضباط ، ولكنك سترى السكرتير قادماً . . . سكرتير الشركة .

— إذا كنت سأنتظر زمناً طويلاً ، فإنى أسألك أن تسمح لى بالتدخين فى جهة ما ، فلدى البية والدخان .

فصاح الخادم فى استنكار وهو لا يصدق أذنيه : بالتدخين ! ؟ . . . بالتدخين ! ؟ . . . أبداً . إنك لا تستطيع أن تدخن هنا ، بل وما كان يجوز أن يخطر هذا ببالك . آه ! هذا شيء عجيب !

أوه ! إننى لم أقصد التدخين فى هذه الغرفة ، فأنا أعلم جيداً أنه غير مسموح به ، وإنما أردت أن أرجوك لتدلى على مكان أشعل فيه ييبى . وذلك لأننى معتاد التدخين ، وها قد مضت على ثلاث ساعات دون أن أدخن . ومع ذلك فليكن ما تريد . وأنت تعلم أن هناك مثلاً يقول : فى الدير الأجنبى . . .

وغنم الخادم مكرهاً : ولكن كيف أعلن قدومك وأنت فى هذه الحالة ؟ مكانك كزائر ليس هنا ، بل فى الصالون . وبيقائك فى هذه الغرفة ستعرضنى للتقريع ، ثم أضاف ، وهو يلقي بنظرة جانبية إلى الحقيقة الصغيرة التى كانت لا تزال بيد الأمير ، وقد شغلت الخادم طول الوقت . . . ولكنك تنوى أن تقيم عندنا . أليس كذلك ؟

— لا . هذا لم يخطر ببالى . وحتى لو اقترحوا على ذلك لن أقبل البقاء . وغايتى الوحيدة من هذه الزيارة هى أن أتعرف إلى أصحاب المنزل . ولا شيء أكثر من ذلك . ولاح هذا الجواب للخادم الظنين داعياً إلى الريبة فصاح مندهشاً : إيه ! ! أن تتعرف إليهم ؟ ! ولكنك ابتدأت بأن أخبرتنى أنك أتيت لمسألة ما .

— ربما أكون قد بالغت عند ما تحدثت عن «مسألة». ومع ذلك فليكن مجيئي إلى هنا ، إذا أردت ، لمسألة ، بمعنى أننى أريد أن آخذ نصيحة . وإن كنت أود قبل كل شيء أن أتقدم إلى الجنرال اينتشين ، وذلك لأن زوجته من أسرة موتشكين ، أسرتى . وهى وأنا آخر عضوين فيها .

ولقد بالغت الكلمات الأخيرة من قلق الخادم فصاح ذاهلاً : وإذن فأنت من الأقرباء أيضاً ؟ !!

— تقريباً . لا شك أن هذه القرابة قاعة ، ولكنها بعيدة إلى حد أن تستطيع اعتبارها منعدمة . وعند ما كنت فى الخارج كتبت مرة إلى زوجة الجنرال ، ولكنها لم ترد . ومع ذلك فقد رأيت عند عودتى أن من الواجب تذكيرها بى . ولقد استطردت إلى كل هذه التفاصيل لىكى أبدد شكوكك ، وذلك لأننى أراك دائم القلق . أعلن قدوم الأمير موتشكين وبمجرد أن يسمعوا اسمى سيعرفون سبب زيارتى . وعندئذ سيستقبلونى أو يرفضون استقبالى . فإن فعلوا كان خيراً وإن رفضوا ربما كان أخيراً . وإن كنت أعتقد أنهم لا يستطيعون أن يرفضوا ، فالسيدة لا شك تود أن ترى الممثل الوحيد الباقي من أسرتها . وأنا أعلم أنها تعز بأصلها اعتزازاً كبيراً .

وكان الأمير كلما ازداد تبسطاً فى حديثه واسترسالاً بريئاً ازداد إساءة إلى نفسه فى نظر الخادم . فهذا الحديث الذى لا غبار عليه إذا جرى بين أناس من طبقة اجتماعية واحدة ، لم يكن الخادم ليستطيع أن يفهم إلا أنه ناب عن موضعه نبواً شديداً عند ما يدور بين زائر وخادم . ولما كان الخدم أقل غباوة مما يظن أسيادهم عادة فإن خادمنا قد افترض أحد أمرين : إما أن يكون الأمير شحاذاً أتى يستجدى الجنرال صدقه ، وإما أن يكون بكل بساطة رجلاً مخلولاً . وذلك لأن أميراً نبهاً لا يمكن أن يبقى فى هذه الغرفة الجانبية ولا أن يقص أموره على خادم . وفى كلتا الحالتين هل كان يستطيع أن يعلن قدوم شخص كهذا ؟ .

وأنا أعفى القارىء من بقية الحوار وأطمئنه إلى أن الأمير موتشكين قد انتهى بالدخول والتعرف إلى الجنرال وزوجته وأبنائهما ، بل كانت له حادثة غرام مع إحدى بنات الجنرال ، والسكرتير طبعاً هو الذى أدخله .

والآن ماذا يرى القارىء ؟ أهو عبيط حقاً ؟ ولك أن تراجع كل أقواله فلن ترى فيها غير الصدق . قد تقول ولكن الرجل عبيط عبيط ما فى ذلك ريب . فهو لا يعرف أين يضع نفسه ولا يقدر نفسية من يخاطبه ولا يفطن إلى ما فى ردود الخادم من وقاحة متصاعدة ،

وهو أخيراً لا يعرف أن ما كل حق يقال ، وإذا قيل فما ينبغي أن يقال لكل إنسان ، وما إلى ذلك من حكمنا الثمينة . قد تقول هذا وخيراً من كل هذا وأما أنا فأعتقد أن عقولنا نحن هي الفاسدة وأن حياتنا الاجتماعية قد خربت نفوسنا . لقد كانت من القسوة بحيث خلقت أرواح عبيد وأرواح سادة . وكانت من الالتواء بحيث جعلت من حياتنا كلها نفاقاً متصلاً واتخذت من هذا النفاق قانوناً صارماً يصيبنا من عدم احترامه أكبر الأذى ، فأصبحنا جميعاً تتساءل عن سر عبط هذا الأمير العجيب بدلاً من أن تتساءل عن سر فسادنا نحن خدماً وسادة .

(٣)

العبط والاعدام

من المعلوم أن ديستوفسكى خالق « العبط » قد حكم عليه بالإعدام هو وعشرة من رفاقه الذين كانوا يميلون إلى الحرية المدنية والعدل الاجتماعى فى عهد القيصر نيقولا الأول . وبينما هم فى السجن أيقظهم الحراس فى الصباح المبكر وقادتهم العربات إلى حيث لا يعلمون ، وإذا بهم فى ساحة الإعدام حيث يتلى عليهم الحكم ويشد ثلاثة منهم إلى أعمدة الموت معصوبى الأعين وفصائل الجند من أمامهم لإطلاق الرصاص وديستوفسكى ذاهل ينتظر دوره . ومرت بالرجل دقائق ستقرأ أصداءها عما قريب . وفى اللحظة الأخيرة لم تطلق النيران إذ عفا القيصر عن المتهمين واستبدل بالحكم السجن أربعة أعوام فى سيبيريا ثم النفى أعواماً أخرى بنفس تلك البلاد السحيقة المهلكة .

وإذا ذكرنا طبيعة ديستوفسكى المرضية وشدة إحساسه استطعنا أن ندرك كيف أن هذه المحنة الخاطفة قد تركت فى نفسه أعمق الآثار . ولقد خلفت بها مثل وقع السيف المسموم ما إن تنكأه حتى ينزف .

ومن عجب أن يجرى الكاتب على لسان العبط أنفذ ما أوحى إليه تلك اللحظات من إحساس . ولكن ألم نقل من قبل أن الأمير موتشكين لم يكن من العبط بحيث نطق ؟ لا . موتشكين ليس بعبط . ولديستوفسكى أن يسخر من العقول كما يشاء . استمع إلى عبيطنا يحلل ما فى الحكم بالإعدام من فظاعة « تصور مثلاً رجلاً يعذب جسمه مغطى بالجراح . إن الألم الجسمى لن يلبث أن يذهله عن الألم النفسى حتى إن جراحه لتصبح إلى أن يموت عذابه الوحيد . ولكن أقسى أنواع العذاب وأعظمها ليس ما تولده الجراح وإنما هو اليقين من أنك بعد ساعة ثم بعد عشر دقائق ثم بعد نصف دقيقة ثم بعد برهة واحدة ستطير

روحك من جسدك وأنتك لن تعود إنساناً وأن كل هذا شيء مؤكد . هذا اليقين هو أشنع العذاب ... ليس هناك أى تناسب بين الإعدام وبين القتل الذى تكفر عنه تلك العقوبة . فأحدهما أقطع من الآخر فظاعة لا نهاية لها . فالرجل الذى يذبحه اللصوص أو ينحرونه بالليل ، فى غابة ، أو على أى نحو كان ، يحتفظ إلى اللحظة الأخيرة بالأمل فى أن ينجو بالحياة . ولقد رأينا أناساً ، بنحورهم السكين ، ومع ذلك يأملون ويعدون ويتضرعون . وأما هنا فهذه البقية من الأمل التى تلتطف من الموت عشرات المرات ، تراهم يحرمونك منها حرماناً تاماً . هناك حكم . واليقين من أنك لن تفلت هو فى ذاته العذاب الذى ليس فى العالم ما هو أقطع منه . ضع جندياً أمام فوهة مدفع فى معركة وأطلق المدفع تر أنه لا يزال يأمل ، ولكن اقرأ على نفس الجندى الحكم عليه بالإعدام تراه إما أن يصيبه الجنون وإما أن يأخذ فى البكاء . من قال إن الطبيعة البشرية تحتمل هذا دون أن تخرب فى الجنون ؟ لِمَ هذه القسوة التى لا فائدة فيها ؟ ربما كان هناك إنسان قرى عليه الحكم بإعدامه ثم ترك برهة فريسة للرعب ليقال له بعد ذلك . إذهب ! فقد عفى عنك . آه ! هذا الرجل يستطيع أن يقص أحاسيسه . لقد تحدث المسيح نفسه عن هذا العذاب الأليم . لا . إنه لا يجوز أن نسمح بأن يؤخذ كائن بشرى بعذاب كهذا ؟ » .

يحدثنا العبيط عن رجل مرت به تلك المحنة فاستطاع أن يقص أحاسيسه . ولكن ديستوفسكى كان أبعد خيالاً وأغنى نفساً من أن يقف عند ما ابتلى . لقد عاد فى موضع آخر تحدثنا بلسان العبيط أيضاً عن تنفيذ الحكم بالإعدام فعلاً وسار به إلى آخر مراحل على نحو لا نظى أن أحداً قد داناه فيه .

« كان السجين يقدر أن الإجراءات العادية ستراعى ، ولذلك اعتقد أن أمامه على الأقل ثمانية أيام . ولكن لأمر ما اختصرت المدة . فى الساعة الخامسة صباحاً كان نائماً وكنا فى أواخر أكتوبر ، ولذلك فقد كان الجو فى تلك الساعة لا يزال بارداً والنهار لم يشرق بعد . دخل مدير السجن ومعه أحد الحراس ، فى غير جلبة ، ووضع يده على كتف السجين فنهض جالساً وسأل وقد رأى الضوء : ماذا حدث ؟

— اليوم بين التاسعة والعاشر ستنفذ العقوبة .

ولم يستطع السجين الذى كان النوم لا يزال بعينيه أن يصدق هذا الخبر ، فقد كان يزعم أن أمر التنفيذ لن يصل إلا بعد ثمانية أيام ، ولكنه عند ما كمل صحوه أمسك عن المناقشة ولزم الصمت . هذه هى التفاصيل التى ذكروها . ثم قال بعد ذلك : فليكن ! بنتنة ... على

هذا النحو؟! إنه لأمر مؤلم! ثم لزم الصمت من جديد ولم يرد أن يفوه بكلمة. ونحن نعلم كيف تمر الثلاث أو الأربع ساعات التاليات : زيارة القسيس ، الفطور : لحم ونيذ وقهوة (آه! يالها من سخرية قاسية! ولكن هؤلاء الناس لا يقصدون إلى شر ، فهم يعتقدون في سداجة أنهم بتصرفهم هذا يأتون عملاً إنسانياً). ثم عملية الغسيل والتجميل (وأنت تعلم ما هي هذه العملية بالنسبة للمحكوم عليه بالإعدام). وأخيراً يحملونه في عربة ويقودونه إلى المقصلة. ولا شك أنه — فيما أعتقد — كان يتخيل أثناء نقله أنه لا يزال أمامه في الحياة وقت لا نهاية له. «لا تزال أمامي ثلاثة شوارع أعيشها. إنه زمن طويل ، عندما أصل إلى نهاية هذا الشارع ، سيظل أمامي شارع آخر أتابعه ، ثم ثالث حيث يوجد إلى اليمين مخبز — وسيمر وقت آخر قبل أن نصل إلى هذا المخبز». وحول العربة جمهور صاحب عشرة آلاف رأس. عشرة آلاف زوج من الأعين ، وعليه أن يحتمل هل هذا ، وبنوع خاص هذه الفكرة : هاهم أولاء عشرة آلاف ، ولكنهم لن يعدموا أحداً منهم بل أنا الذي سأموت. هذا عن المقدمات. سلم يقود إلى المقصلة ، أمام هذا السلم أخذ الرجل في البكاء ، وكان رجلاً قويا ذا خلق شديد. قالوا إنه كان مجرماً كبيراً. والقسيس الذي ركب إلى جواره في العربة لم يتركه برهة واحدة ، وكان يحادثه باستمرار ، ولكنني أظن أن المسكين لم يكن يستمع إليه ؛ ربما يكون قد حاول أن يصغي ولكنه بعد الكلمة الثالثة لم يعد يفهم شيئاً. وفي النهاية أخذ يصعد السلم والقيود التي تغل قدميه تضطره أن يخطو خطوات صغيرة. وأمسك القسيس — الذي كان بلا ريب رجلاً ذكياً — عن عظامه مكتفياً بأن يقدم إليه باستمرار الصليب ليقبله.

لقد كان المجرم شاحباً عند أسفل السلم ، وأما الآن وقد وصل إلى المقصلة فإن وجهه صار أبيض كالصحيفة ، لاشك أن أرجله أخذت تتداعى تحتها وأن قلبه أخذ في الغثيان. وكأن شيئاً قد خنقه فانتشر في جسمه إحساس بالخدر. هذه ظاهرة يولدها الرعب في تلك اللحظات المروعة التي يظل فيها العقل كاملاً ولكنه يفقد كل ماله من سيطرة. إذا كان هلاكك مثلاً محققاً وكنت في منزل سينهار فوقك فإنك تشعر فجأة برغبة لاتقهر في أن تجلس وتغمض عينيك وتنتظر. ليكن ما يكون... وراء القسيس في هذه الحالة من الضعف فأدنى من شفتيه — في صمت وحركة سريعة — الصليب ، صليب لاتيني من الفضة. وكرر ذلك عدة مرات ، وعندما أحس به الرجل لاح أنه قد عاد إلى نفسه لعدة ثوان ففتح عينيه ومشى. لقد كان يقبل الصليب بنهم وهو في لهفة قلقلة كالسافر الذي يخشى أن ينسى شيئاً سيحتاج إليه

في رحلته وإن يكن من الراجح أن كل عاطفة دينية كانت بعيدة عن ضميره . تلك كانت حاله إلى أن شد على اللوح وإنه لمن الغريب أن الإغماء لا يحدث في هذه الثواني الأخيرة إلا نادراً . وعلى العكس من ذلك تحتفظ الرأس بحياة غزيرة ، وتعمل بلا ريب بقوة كبيرة وكأنها آلة تسير . يخيّل إلى أن ألوانا من الأفكار تطن عندئذ في الجمجمة . أشباح من الأفكار قد تكون مضحكة وهي لاشك في غير موضعها مثل : آه ! هذا المتفرج بجهته « حسنة » . الجلاد ببذله زرار صدى . ومع ذلك تعرف كل شيء وتذكر كل شيء . وهناك مسألة لا يمكن أن ننساها وهي أنك لا تستطيع الإغماء . وحول هذه المسألة يدور كل شيء . ولنتصور أن هذه الحالة تستمر حتى آخر ربع ثانية . وعند ما تمر الرأس من الطوق وتنتظر وتعلم ثم فجأة تسمع السكين تنزلق فوقها ؟؟ ! لاشك أنها تُسمع . ولو أنني كنت شخصياً ممددا على الخشبة لأرهفت أذني ولسمعت الصوت ! وهو ربما لا يصدر إلا لعشر من البرهة ولكننا لا يمكن ألا نسمعه . ولنتصوروا أننا لا نزال إلى اليوم نود أن نعرف : هل الرأس لا تدرك — في الثانية الأولى بعد قطعها — أنها قد انفصلت عن الجسم ؟ » .

لست أدري أصدق العبيط في قصصه أم لم يصدق ، فتجن لا نعلم — كما قال شكسبير — أن ميتاً قد عاد ليخبرنا بما رأى ، ولا أن محكوما عليه بالإعدام قد وصف لحظاته الأخيرة ، بما في ذلك برهة قطع الرأس والثانية التي تليها ، ولكنني أستطيع أن أتخيّل أوضح الخيال ما يحدثني به هذا الرجل العجيب . تأمل قليلا تلك الرأس التي تحتفظ بحياة غزيرة ومع ذلك لا تفكر إلا في « حسنة » بجهة متفرج ، أو زرار ببذلة الجلاد . أو ماتحس أنها قد وصلت إلى غاية الجهد فلم يبق فيها إلا ما يخلف هذا الجهد من حرارة تشبه الحياة وهي بحمي اليأس أشبه . إن في تفاهة ما يدور بها لوحياً يعرب الخيال . ثم أي مهارة في فن هذا العبيط . كم من تفاصيل صغيرة تغزو النفس في تدرج ما كر ، وكم من حيل يصطنعها ليلبغ منا ما يريد . وحيله بعد من صميم حياتنا القريبة . لهفته في تقبيل الصليب هي لهفتنا جميعاً عند ما نخشى أن ننسى شيئاً سنحتاج إليه في سفر ، وشموه شعور رجل حم به القضاء وأخذ البيت ينهار فوقه فلم يستطع إلا أن يجلس ويغمض عينيه وينتظر إرادة الله . ثم صوت السكين . بأى حرص يريد الكاتب أن تقف عند هذه البرهة أو عشر البرهة لنحققها بخيالنا . لقد خشي أن نمر بها سراعاً ، فأوقفنا لنناقشها . هل سيُسمع انزلاقها ، وهل المسكين سيصنئ لصوتها . وبأى دهاء وضع الكاتب نفسه في هذا الموضع ليخبرنا أنه لا بد من نصت عندئذ لذلك الصوت المروع ولا بد مدركه . وما فعله الكاتب هناك أمل ضمني في أن يفعله غيره . وهذه هي

سداجة أهل الفن الماكرة الساحرة وأخيراً هل أنا بحاجة إلى أن أدل القارىء على مافى السؤال الأخير (إدراك الرأس فى الثانية التى تلى قطعها أنها انفصلت عن الجسم) من رهبة تقشعر لها الجلود .

وبعد فقد اقتتل علماء القانون حول عقوبة الأعدام ، وكتبوا فى ذلك المجلدات الضخام ، فمنهم المؤيد ، ومنهم المناهض ، ولكنى لا أذكر أن أحدا منهم قد فطن إلى معنى العدالة النفسية التى صورها ديستوفسكى هذا التصوير الرائع . إن فى تحليله لعدم التناسب بين القتل والأعدام لحقا لا يدفع . فهذا اليقين الذى يلقى الموت بالنفس وهى حية عذاب لا مثيل لفظاعته . ثم تلك اللهفة الحائرة التى أخذ عليها اليأس كل مسلك ، فتراها تعد مابقى لها فى الحياة بالشوارع التى ستعبرها ، ومع ذلك يستقر فى ضميرها يقين بالفناء ، أو ما ترى فيها أشنع العذاب؟! وإذا صدق مايقول هذا الكاتب العظيم أو ما يكون من العدل أن نقدر هذه العقوبة بوقعها النفسى وتكافؤ هذا الوقع مع ما ارتكب من جرم ، وألا نكتفى فى مناقشتها بما نتوقع من صونها حياة الجماعة .

(٤)

العبيط والنساء

رأينا العبيط فى عدة مواقف ، رأينا مع مارى والأطفال ، ورأينا مع خادم وسط الحياة الاجتماعية ، واستمعنا إليه يتحدث عن عقوبة الإعدام ويصف تنفيذ تلك العقوبة الشنيعة ، ونستطيع أن نستخلص من كل ذلك أنه كان رجلا عاطفيا تقوده مشاعره أكثر مما يقوده عقله ؛ فهو يحنو على مارى ويصادق الأطفال لا حرصا على مبادئ أخلاق يؤمن بها بل بمجاعة لدافع قلبى ، ودوافع القلب قل أن تتفق مع مواضعات الحياة الاجتماعية . وهو رجل ذو فلسفة خاصة فى الحياة ، فلسفة شعورية أيضا لأنها لا تتلق شيئا من الخارج ومن ثم لا تنصت إلى عرف ولا تظن إلى لياقة ، ولهذا نراه لا يرى عيبا فى أن يجالس الخادم وأن يعترف إليه بأموره الخاصة إيمانا منه بأن الناس سواء وأنه لن يضيره فى شيء أن يقص على ذلك الخادم ما يريد ، وهو لا يعتقد أن هناك ما يستحق الكتمان ولا يقيس الأمور بنتائجها الخارجية ولا يدرك النفس البشرية كما صاغت أوضاع الحياة بل يراها دائما فى طبيعتها الفطرية حتى لنحسبه عاجزا عن أن يقدر ما قد يصيبه من ضرر عندما يأخذ الناس بهذا النوع من المعاملة ، وإن كان من الذكاء بحيث يدرك الحقيقة النفسية لمن يخاطبه ويفض غلافها دون

أن يأبه لهذه الحقيقة أو يقيم وزناً لما قد يصدر عنها من نتائج ضارة به . وهو أخيراً حار الخيال واسعه حتى لنراه يتصور من التفاصيل المروعة ما نعجب كيف يخطر لخيال بشري ، وفي وصفه للاعدام وإبرازه لهواجس من نفذ فيه ذلك الحكم من الدقة والاستقصاء ما يشهد بأنه قد بلغ من الحساسية حداً يقرب من المرض .

كل هذه مواقف تساعدنا على تخطيط صورة العبيط كما تصوره ديستوفسكى ، ولكن الصورة لا يمكن أن تكمل ما لم نعرض لعلاقته بالنساء ، وموقفه منهن ، فذلك محك عظيم الخطر في حياة الرجال .

ولقد أحب العبيط فتاتين ، أحبهما معا ، وكان حبه عفيفا متقدرا ، أشبه ما يكون بحب الفروسية . ولقد لعبت طبيعة الفتاتين في هذا الحب الدور الحاسم . كانت إحداهما : نستازيا امرأة عنيفة عنيدة مجروحة الكبرياء ثائرة على أخلاق الرجال . وكانت الأخرى أجلاييه بنت الجنرال اپنتشين فتاة مترفعة في غطرسة شديدة الثقة بنفسها واحتقار من عداها .

ولقد بلغ من سداجة هذا العبيط أن ظن أن في استطاعته أن يوفق بين الفتاتين وأن يحمل كلا منهما على محبة الأخرى أو مصافاتها على الأقل . ولقد جرى بينه وبين أحد الشخصيات الثانوية في الرواية حوار يكشف عن تفكيره أوضح الكشف .

سأله محدثه وقد هم بالزواج من نستازيا : تريد أن تزوج من نستازيا مع أنك تؤكد لأجلاييه أنك تحبها ؟ — آه ! نعم نعم أحبها . — آه ، إذن أنت تحب الاثنين معا ؟ — نعم أحبهما — يا لله ! فكر قليلا أيها الأمير ، فكر فيما تقول — آه بدون أجلاييه ، إننى . . . لا بد لى من رؤيتها إننى . سأموت نائماً . لقد خيل إلى وأنا نائم فى الليلة الماضية أننى أحتضر . آه ، ليت أجلاييه تعلم كل شيء . آه لو علمت يجب أن تعلم كل شيء . هذا هو المهم . ولماذا لا نعلم كل شيء عن الغير عندما يكون ذلك الغير جانبا . هنا شيء لا أستطيع تفسيره . إننى لا أجد اللفظ المعبر ولكن أجلاييه ستفهمنى ، آه ! لقد آمنت دائماً بأن أجلاييه ستفهمنى . — أيها الأمير إنها لن تفهم شيئاً . لقد أحبتك أجلاييه كما تحب المرأة الرجل لا الفكرة المجردة . أو ما تظن أيها الأمير المسكين أنك على الأرجح لا تحب هذه ولا تلك ؟

لقد كانت نستازيا يتيمة تلقاها أحد الأثرياء وهى فى الخامسة من عمرها ونشأها بضياعه ، حتى إذا بلغت الثانية عشرة وبدأت عليها ملامح الخفة والذكاء والجمال تعهد الرجل تربيها بدور العلم ، وبعد أن أتمت دراستها اتخذ منها عشيقه له ، ولكن العشق لم يدم طويلا إذ فكر

في الزواج من غيرها وعندئذ أظهرت الفتاة من الحزم وقوة العزم ما حير العقول ، إذ أتت إلى بطرسبرج حيث أخبرت عشيقها أنها تمانع في زواجه وإن لم تشعر نحوه بغير التقزز والاحتقار . ولم ير العشيق مخرجاً غير أن يحتال فيزوجها من سكرتير صديقه الجنرال إينتشين ، ونستازيا تسخر من محاولته . وهي موضع رغبة الكثيرين من الأثرياء حتى لقد أتاها ليلة أحد هؤلاء المترفين العريدين حاملاً آلاف الجنهيات وكان العبيط حاضراً وعرض العرييد ماله ولكن العبيط حرص أن يتلف عليه أمره فعرض على نستازيا الزواج منه . ولكن نستازيا أخذت المال وألقت به إلى نار المدفأة والتفتت إلى سكرتير الأمير خطيبها المزعوم ، وقد كان حاضراً هو أيضاً ، وطلبت إليه أن يستنقذ المال من النار ، وهو لا ريب لم يدفعه إليها غير ما وعده به مريبها وعشيقها من ثراء . ولكن الخطيب يرفض أن يعيد يده إلى هذا المال ، وإن انتهى به الأمر ففطن إلى ما في موقف نستازيا منه من سخريه فعدل عن خطبته . وتعلقت الفتاة بالعبيط لسذاجته وشذوذ أطواره ، تلك السذاجة وذلك الشذوذ اللذان لا يخلوان من شهامة حقيقية ، وكان شعورها نحوه مركباً عجيباً من دوافع القلب وغرائر الحياة . لقد وجدت فيه شيئاً جديداً في الوسط الذي تعيش بينه — تصرفاته تلقائية ، وحركات نفسه لا يدخلها تقدير ولا حساب ، وفي سذاجته من السحر ما يغرى نفساً يقظة كثيرة الحنايا كنفسها المرة العميقة ، لقد كان بينهما من التجاذب مثل ما بين الضياء والظلمة .

وأما أجلاييه بنت الجنرال فقد تغير موقفها منه ، فبعد أن كانت لا تستمع إليه إلا ساخرة متعالية ، لم تلبث صراحتة وبساطة نفسه أن حطمت في نفسها الكبرياء ، فإذا بها تتعلق به وترى سعادتها في أن تقوم على رعايته . ولعلها وجدت في تلك الرعاية ما يشبع الكبرياء القديم . وهذه حقيقة قد تفسرها غريزة الأمومة في النساء من جهة ، ونزعة الكبرياء من جهة أخرى . وبقدر ما في نفس تلك الفتاة من تعالٍ كان ألبها من أن تنافسها نستازيا . واكتوى موتشكين بنار الاثنين يعذبته من العذاب . وهو المؤمن بأنه لا محل لهذه العداوة . وكان يوم التقت فيه الفتاتان بحضوره ، وإذا بالبغض الذي طال كبتهما له ينفجر . وأخذ الرجل ما يشبه الدهول ، فضرع إلى أجلاييه أن تصافى نستازيا : « هذا لا يمكن ... أوكلا ترين إلى أي حد بلغ بها الشقاء ؟ » ولكنه لم يكذب يلفظ تلك الكلمات حتى ألزمتها الصمت نظرات أجلاييه المروعة . لقد رأى في عينيها ألماً وبغضاً لا حد لهما ، وكان الوقت قد فات ، فأجلاييه لم تحتمل برهة التردد التي مرت به فصاحت صيحة غيظ ثم اتجهت إلى الباب مسرعة . وعدا العبيط من خلفها ، ولكن نستازيا أمسكته محذقة فيه بوجهها المقطب الشاحب

وانفرجت شفتاها الزرقاوان بقولها « أريد إذن أن تتبعها » ثم سقطت بين ذراعيه مغشياً عليها . فحملها إلى غرفتها ووضعها في مقعد ووقف أمامها كالمتحجر . وخف أحد من في البيت يبلل وجهها بالماء . وبعد هنيهة فتحت عينيها ولكنها لم تدرك شيئاً إلى أن أفاقت ، فنظرت حولها ثم أرسلت صرخة وعدت نحو موتشكين وهي تصيح : « أنت لى ! أنت لى ! لقد ولت تلك الفتاة المتكبرة ! ها ها ها . عجباً أنا التي كنت سأتركك لها ، لماذا ؟ لأى سبب ؟ إننى مجنونة . مجنونة . » ولكي تنتقم نستازيا من منافستها استبقت الأمير بمنزلها واعترمت الزواج منه ، ولكنها في يوم الزواج هربت مع ذلك الثرى الذي أحرقت ماله ، وتنتهى المأساة بما يفزع ، فقد قتل ثرىنا الفتاة ، واستفحل بموتشكين مرضه فأصيب بالعبط المسرف . ولقد كان في المنظر الأخير من هذه المأساة ما يرعب الخيال ويلازمه ، فقد أمضى العبيط ومنافسه الثرى الليل قائمين على جثة القتيلة مزرجة بالدماء ، وكان بينهما حوار شاق طويل اجتمع فيه الحب إلى البغض في مزيج مركب من الشعور الإنساني الذي لن نسبر غوره .

هذا هو موقف العبيط من الفتاتين . وموضع النظر هو إيمانه إيماناً ساذجاً مؤثراً بأنه يستطيع أن يحب الفتاتين وأن يحملهما على التصافى إن لم يستطع حملهما على المحبة ، وفي هذا الإيمان ما يماثي فلسفته العامة التي تسلم بأن ما تستشعره النفس يجب أن يكون حقيقة واقعة وأن يقبله الجميع مادام صادقاً تلقائياً ؛ وهو لا يدرك ما في نفوس الغير من صعوبات يجب أن يحسب لها حسابها . ولعله كان أصدق حساً من الفتاتين فأجلاييه لم يحتمل كبرياؤها ما لمحتة من تردده بينها وبين منافستها فضحت بالحب في سبيل الكبرياء . ونستازيا نفس غامضة لم تلبث بعد أن تحقق لها النصر ووجدت الرضى — إذ هزمت بنت الجنرال — أن عادت إلى صحوها فهربت في يوم الزواج . ونحن في الحق لا نستطيع إلا أن نفضل الشعور المباشر على الشعور الملتوى . لقد أحب العبيط الفتاتين لنفسهما ، وإذا كانت هناك مشاعر أخرى قد اختلطت بذلك الحب ومهدت له فهي أقرب للإيثار والشهامة منها للأثرة المتكررة . فنستازيا كان يريد أن يستخلصها من مخالب السوء ، وأجلايته كان فيها من توثب الذكاء وقوة الشخصية وجمال الروح ما يغرى بالحب . ومن هنا ترانا تتساءل كما تساءلنا من قبل : أحقاً كان موتشكين من الغفلة بحيث يستحق أن يوصف بالعبط أم هي الحياة الاجتماعية لم نكتف بأن أفست بمواضعاتها معاملاتنا الخارجية بل امتدت إلى داخل النفوس حيث ألبست مشاعرنا الطبيعية أبواباً من التنكر لا تلبث أن تتبدد فتكون خيبة الآمال .

DATE DUE

This image shows a blank ledger page with a grid of 3 columns and 10 rows. The grid is formed by solid vertical lines and dashed horizontal lines. The page is cream-colored and shows signs of age, including a small red mark in the top left and some dark smudges at the bottom.

892.74:M27InAr.1

مندور، محمد

نماذج بشرية

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01038853

